



المدخل الاجتماعي للإتصال الجماهيرى

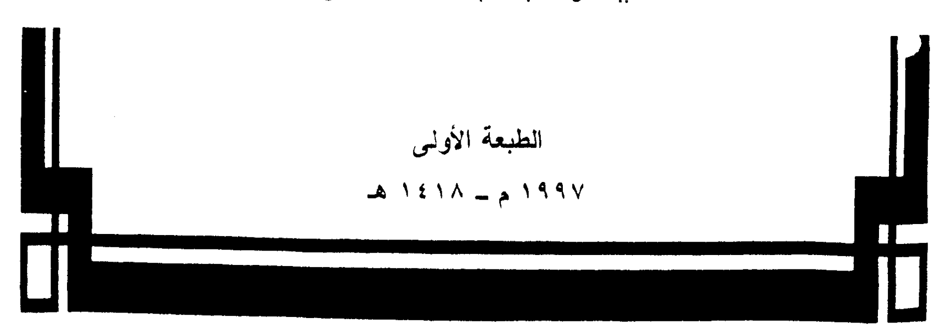
الدكتور محمد محمد البادى

أستاذ ورئيس قسم الصحافة

كلية الآداب - جامعة المنصورة

الناشر

كلية الآداب - جامعة المنصورة



الطبعة الأولى

١٩٩٧ م - ١٤١٨ هـ



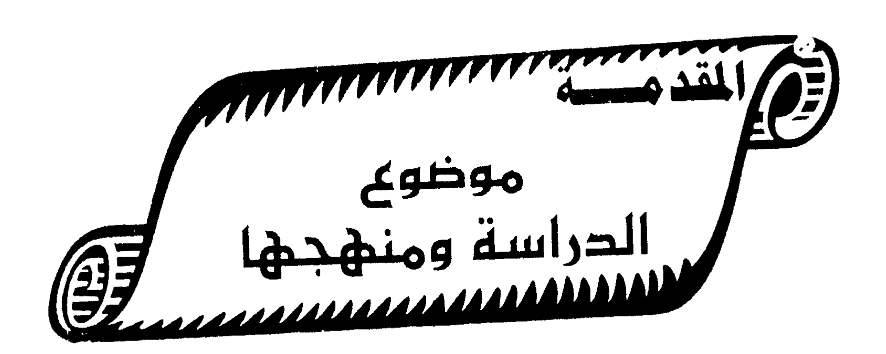

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم
من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾
صدق الله العظيم
الآية ١٣ سورة الحجرات



المحتويات



(تابع) الموضـــوع | الصفحة


المقدمـــة
موضوع
الدراسة ومنهجها



لا أحد يجزم بأن علم الاجتماع الإعلامى أو علم اجتماع الاتصال ، وهما مسميان علم واحد ، اكتسب ثباتاً فى النظرة إلى إطاره العلمى التخصصى ، أو حقق يقينا حول اتجاهاته وأبعاده. وذلك لانتمائه إلى أكثر من تخصص علمى ، ولاختلاف الباحثين فى كل تخصص حول ما ينبغى عليه مضمونه.

فالدراسات الأجنبية ، وخاصة الإنجليزية والأمريكية منها ، ركزت فى دراسته على وسائل الاتصال الجماهيرى وعلاقتها بالمجتمع ، وكانت فى مجملها دراسات تطبيقية على مجتمعاتها. والدراسات العربية ركزت على دراسته نظرياً ، كظاهرة إنسانية ، مع محاولات منها للتطبيق على وسائل الاتصال الجماهيرى وخاصة التليفزيون فى بعضها ، أو التطبيق على الاتصال التنظيمى فى المنظمات المصرية فى بعضها الأخر . وجاء الربط بين النظرية والتطبيق مترهلا ، ولم يحقق تتابعا علميا منطقيا.

ومع عدم وجود الرؤية الواضحة لمضمون هذا العلم وأبعاده وعلاقاته ، يصبح المدخل الاجتماعى للاتصال مصطلحا له ما يبرره كزاوية للنظر إلى الاتصال تضاف إلى الزوايا العديدة التى تناولتها الدراسات العلمية السابقة. وتصبح أهميته قاصرة على ما يضيفه إلى هذه الدراسات ويؤصله من الناحيتين العلمية والدراسية ، كبعد علمى جديد.

وبادئ ذى بدء ، ينبغى أن نحدد ما يقصد بالمدخل الاجتماعى للاتصال على ضوء الاهتمامات الداخلة فى علم الاجتماع. ففى دراسة علمية قام بها ماكيفر Maclver .M.R وشالز بيدج Bedge.C تبين أن المجتمع لا يوجد إلا حيثما تسلك الكائنات الاجتماعية فيما بينها سلوكا يحدده إدراك كل منها للآخر . ويطلق على العلاقات التى تحدد بهذه الكيفية مصطلح العلاقات الاجتماعية. وتلك

العلاقات التى تقوم على الإدراك المتبادل والإحساس بوجود شىء ما أو عقيدة ما يشترك فيها أفراد الجماعة كلهم ،هى التى يتركز حولها اهتمام علم الاجتماع [١].

وتضيف هذه الدراسة ، أن هذا الإدراك المتبادل والإحساس المشترك بين أفراد هذه الجماعة أو تلك ، تشكله دينامية الاتصال بكل ما تقوم عليه من عوامل نفسية واجتماعية. وهذا يعنى أن هذه الدينامية لا تدخل فى المجال التخصصى لعلم الاجتماع وحده ، وإنما تدخل أيضا فى المجال المتخصص لعلم النفس. وتؤكد هذه الدراسة على أن كلا من علم الاجتماع وعلم النفس يدرس جوانب مختلفة لحقيقة واقعة لا تقبل التجزئة. ولكن الفرق بينهما فرق فى الجانب الذى يهتم به كل منهما أكثر من غيره فى الحقيقة الواقعة.

وتضيف هذه الدراسة أيضا ، أن ما يهتم به عالم الاجتماع هو الأسلوب الذى يتبعه الأفراد الواعون فى علاقاتهم بعضهم ببعض. ومن المعروف أن هناك عناصر نفسية كثيرة تكمن وراء جدران الفرد ، مثل البواعث النفسية والعصبية للسلوك ، وفسيولوجيا الإحساس والإدراك ، والعمليات الوراثية ، ووظائف الغدد. وعالم الاجتماع لا يهتم بكل هذه العناصر النفسية إلا من حيث إلقائها الضوء على الحقائق والظواهر المتصلة بالسلوك الواعى. وهذا السلوك الواعى يصحبه دائما نشاط عصبى وعقلى معا. والوقوف عند هذا النشاط العصبى والعضلى لا يفيد عالم الاجتماع فى التقدم تقدماً محسوسا نحو تفسير العمليات الإطرادية للشعور أو الوجدان.

فمثلا ، نجد عالم الموسيقى يستعين بمعرفة فسيولوجيا الأذن والمخ فى الوقت الذى يهتم فيه بالموسيقى اهتماما أساسيا ، وهذا ينطبق على عالم الاجتماع ، حيث يستخدم نفس الأسلوب ، فهو يستعين بمعرفة الخلايا العصبية ولواحقها فى الوقت الذى يركز فيه تركيزا أساسيا على تحليل العلاقات الاجتماعية.

---

[١] ر. م ماكيفر وشالز بيدج ، ترجمة الدكتور على أحمد عسى: المجتمع ، الجزء الأول. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٧٤. الصفحات ١٨ ، ١٩ ، ٥١ ، ٥٢.

وعلى ذلك ، يؤكد المدخل الاجتماعى للاتصال على العناصر الاجتماعية ودورها فى تشكيل عملية الاتصال والنظم الاجتماعية التى تقوم عليها والدينامية التى تحركها ، بدون تجاهل العناصر النفسية المتكاملة معها ، لما يعنيه هذا التكامل من مدخل علمى سليم نحو فهم هذا الاتصال وقدراته فى صنع العلاقات والمعاملات التى تحرك الأفراد والجماعات والمجتمعات نحو تحقيق مقاصدها وغاياتها المشتركة.

ولاشك فى أن لهذه الزاوية الاجتماعية فى دراسة الانتصال أهميتها للدارسين والباحثين والعاملين فى مجال الاتصال وتطبيقاته. فهى تؤكد على أن الاتصال عملية إنسانية تتخلل كل الظواهر الاجتماعية وتشكلها. وليس هناك جانب من جوانب هذه الظواهر الاجتماعية أو مشكلة من المشكلات الاجتماعية التى تفرزها ، إلا ونجد للاتصال دوراً أساسيا فيها ، وهذا ما يقصد بالاتصال كعملية اجتماعية.

ثم أن هذه الزاوية الاجتماعية فى دراسة الاتصال تؤكد على أنه ، من ناحية أخرى ، يمثل ظاهرة اجتماعية مستقلة فى المجتمعات الإنسانية ، حيث يعمل من خلال نظام اجتماعى يحكمه ويوجه إلى غاياته ومقاصده التى يستهدفها داخل كل مجتمع ، من ناحية ، وفى مواجهة المجتمعات الأخرى ، من ناحية ثانية.

كما أن هذه الزاوية الاجتماعية فى دراسة الاتصال تؤكد على أن هذه الأنظمة الاجتماعية للاتصال لها ديناميتها التى تحركها وتدفعها وتعطيها قدرتها على التفاعل مع الأنظمة الأخرى داخل المجتمع وخارجه. وبالتالى ، فإن هذه الدينامية تثير كثير من القضايا الداخلية والخارجية. ومن ثم ، يكون على من يتناول هذه الزاوية الاجتماعية بالتحليل أن يؤكد على هذه الأبعاد الأربعة لظاهرة الاتصال الإنسانى ، وهو ما يحدث فى هذه الدراسة التى نحن بصددها.

ولقد استخدمنا فى هذه الدراسة منهج التحليل المقارن ، وهو أحد المناهج الوصفية الإنشائية ويستمد هذا المنهج على الملاحظة العلمية والمقارنة والاستنتاج والاستشهاد للوصول إلى تحليل واسع وعميق لكل الأبعاد التى تعنيها الزاوية

الاجتماعية فى دراسة الاتصال ، كموضوع لهذه الدراسة وبهدف تحقيق الغاية منها علميا ودراسيا.

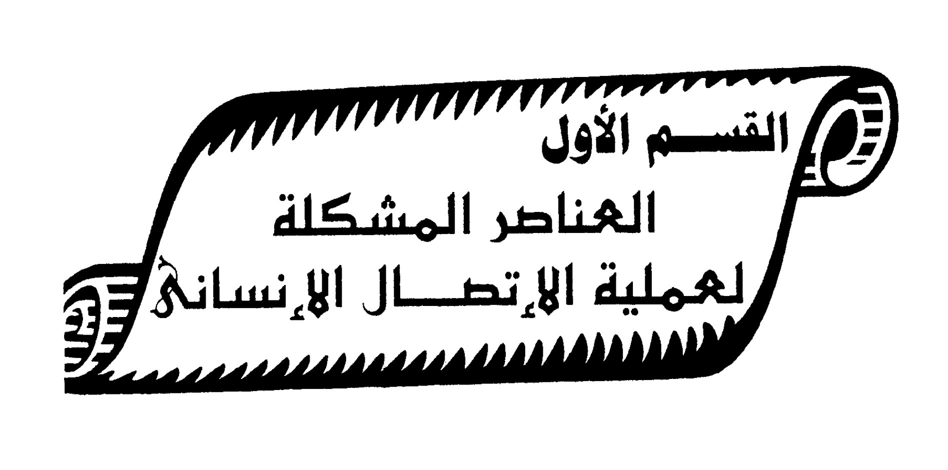
وتناولت خطة الدراسة هذه الأبعاد الأربعة فى قسمين متتاليين:ركزت فى أولهما ، ومن خلال فصلين متتابعين ، على توصيف عملية الاتصال تاريخيا واجتماعيا ، كعملية إنسانية وكنظام اجتماعى ، وبدون تجاهل العناصر النفسية التى تخدم هذا التحليل وبالقدر الذى يحتمه المدخل الاجتماعى لهذه العملية.

وركزت خطة الدراسة فى قسمها الثانى ، ومن خلال فصلين متتابعين أيضا ، على دينامية الاتصال التى تقوم عليها أنظمتها الاجتماعية فى تفاعلها مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى بصفة خاصة ، ومع المجتمع كله وفى مواجهة المجتمعات الأخرى ، بصفة عامة. وكان من الطبيعى أن تكون الدراسة هنا تطبيقية على وسائل الاتصال الجماهيرى ، كمستوى له وجود مكثف وحساسية خاصة.

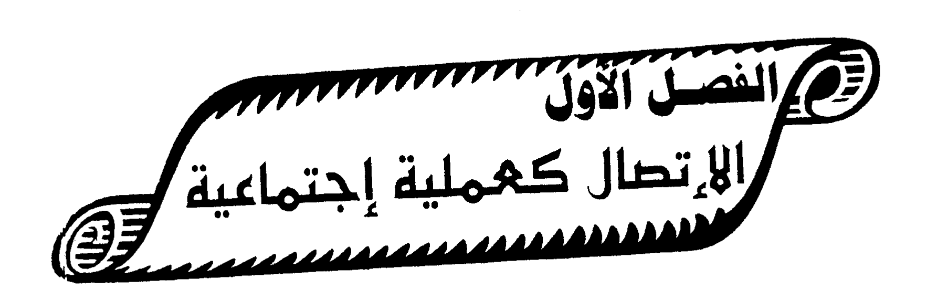
وعلى ضوء النتائج التى انتهينا إليها ، كان لابد أن نعرض فى الخاتمة لقضية علم الاجتماع الإعلامى و الاتصال ، وأن نناقش احتمالاتها المستقبلية ، أخذين فى الاعتبار كل الجهود العلمية السابقة علينا.

وقد خلصنا إلى أن الزاوية الاجتماعية للاتصال وحدها لا تصنع علما له كيانه التخصصى وله استقلاله وتميزه ، لأن الاتصال مجال مركب ويقوم على ظاهرة معقدة. ومن ثم يكون من المهم والضرورى أن تتكامل تخصصات فرعية كثيرة داخل إطار هذا المجال حتى نستطيع أن نقطع الطريق الطويل إلى قيام هذا العلم. ولاشك فى أن كل الجهود التى تبذل على هذا الطريق لها ما يبررها ويدعمها ، لما لظاهرة الاتصال من ارتباط عضوى ووظيفى مؤثر وفعال داخل كل مجتمع.

الدكتور محمد محمد البادى


القسم الأول
العناصر المشكلة
لعملية الإتصال الإنساني




الفصل الأول
الإتصال كعملية إجتماعية



يعتبر الاتصال عمليات نفسية واجتماعية ، تقوم عليها كل المعاملات والعلاقات التى تحدث بين الأفراد والجماعات والمجتمعات. ودينامية الاتصال تعنى التفاعل النفسى والاجتماعى الهادف الذى تتحرك به الإفراد والجماعات والمجتمعات وتتفاعل معا من أجل تحقيق غايات نفسية واجتماعية مشتركة.

والاتصال ، بهذا المعنى ، ليس مرادفا للتعبير عن الذات. فالفرد لا يحتاج فقط إلى أن يتكلم ويعبر غن ذاته لكى يفهمه الآخرون ، وإنما يحتاج أيضا إلى أن يستمع إلى الآخرين ليعرف مدى فهمهم لما يقول ، ومدى استجابتهم له ، أى أنه يحتاج إلى أن يحدث الفهم المشترك بينه وبين الآخرين.

والاتصال بهذا المعنى ، يكون القوة التى تشد الإفراد والجماعات إلى بعضها داخل المجتمع الواحد. فعن طريق الاتصال يؤثر الفرد على الأفراد الآخرين ويتأثر بهم. وعن طريقه يحدث التداخل بين اتجاههم ومواقفهم وآرائهم وأنماط سلوكهم. أنه المحرك للعمليات الاجتماعية ، وبه يصبح الناس كائنات اجتماعية. وبدونه لا يرتبط الناس ببعضهم ، ولا يزاولون معا أية أنشطة مشتركة ، ولا يطورون معا سيطرتهم على بيئتهم.

وعندما نقارن بين ما يكتسبه الفرد من خبرته المباشرة بما يكتسبه من اتصاله بالآخرين عن طريق وسيلة من وسائل الاتصال ، فإن حصيلة خبرته المباشرة تبدو محدودة بدرجة ملحوظة. فالاتصال يمكن الفرد من اجتذاب خبرات الآخرين ، فيتعلم ما يفوته منها ، ومن ثم ، يمكن النظر إلى المجتمعات البشرية على أنها مجموعة من الخبرات المتداخلة والمتعاونة والمعقدة.

وإذا اعتبرنا المجتمع ، من ناحية أخرى شبكة واسعة من الاتفاقات الضمنية الحيوية المشتركة بين الأفراد والجماعات ، والتى عن طريقها يتحدد السلوك السليم والسلوك المشين فى المواقف الاجتماعية ، فإن الاتصال يبرز هنا كعملية اجتماعية يتعلم من خلالها الفرد مضمون هذه الاتفاقات الضمنية الحيوية المشتركة داخل المجتمع الذى ينتمى إليه وخلال تعاقب الأجيال. وبهذا الاتصال تصل الأفراد

والجماعات إلى نوع من التوقع المشترك فيما يتعلق بأنماط السلوك المقبولة وغير المقبولة.

ويمكن القول ، بصفة عامة ، أن الاتصال يربط الأفراد بما يجرى داخل بيئتهم ومجتمعهم وعالمهم. وبالاتصال يستطيع الأفراد أن يحددوا مكانتهم الاجتماعية مقارنة بمكانة الآخرين. وبه أيضا يستطيعون أن يتكيفوا بنجاح مع البيئة التى يعيشون فيها والمجتمع الذى ينتمون إليه والعصر الذى ينتسبون إليه وتؤكد التجارب العلمية أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون اتصال فترة طويلة ، لأن الاتصال يحقق له وجوده ككائن اجتماعى.

ولقد انتهت الدراسات العلمية التجريبية إلى حقيقة هامة ، وهى أن التضامن أو التآلف بين أعضاء كل جماعة إنسانية يعتمد على الاتصال الفعال بينهم. وعندما تكون وسائل الاتصال مقيدة أو مقطوعة فإن كل عضو يلجأ إلى تكوين اتجاهات نمطية نحو الأعضاء الآخرين ، لأنه لا يستطيع أن يتحقق من سلامة ملاحظاته أو أن يكون آراء صحيحة عنهم. وهذه الاتجاهات النمطية ينتج عنها سوء القصد أو سوء النية تجاه الآخرين ، كسمة مميزة للعزلة التى يعيشون فيها. ولا شك أن سوء القصد أو سوء النية يولد العداوة بين الأعضاء ويغذيها. وعلى العكس من ذلك تماما ، نجد الإتصال الفعال يقلل العداوة بينهم لأنه يشجع على تغيير الاتجاهات غير السليمة ، وتكوين الاتجاهات الإيجابية ودعمها.

كما انتهت هذه الدراسات العلمية التجريبية إلى حقيقة أخرى هامة ، وهى أن الاتصال هام وحيوى لعمل كل جماعة إنسانية. ذلك لأن الإطار المرجعى للجماعة، والذى يتكون من الإدراك المشترك للعناصر الأساسية التى تقوم عليها حقيقة معينة، لاغنى عنه لوجود الجماعة ذاتها. وغياب الاتصال الفعال يعنى غياب الإدراك المشترك والقيم المشتركة ، وبالتالى اختفاء الجماعة أساسا ، لأنها لا تستطيع أن

تستمر بدونه. كما أن وجود أية عوامل للاتصال الفعال يؤدى إلى التمزق والانشقاق فى العلاقات الإنسانية بين أعضاء الجماعة [١].

وكذلك انتهت هذه الدراسات العلمية التجريبية إلى أن الاتصال وشبكاته يعنى الوجه البنائى لجماعة ما [٢] فهو يوضح الكيفية التى يرتبط بها أفرادها ببعضهم من ناحية ، والتى تربطها هى بالجماعات الأخرى من ناحية ثانية. كما يوضح الأدوار والعلاقات ومدى التفاعل داخل الجماعة ، وبينها وبين الجماعات الأخرى. فلاتصال يحرك الأفراد والجماعات نحو أهدافها ، وبه تتحقق مصالحها.

وهناك دراسات علمية حاولت إثبات أهمية الاتصال بين المجتمعات ، ومنها تلك الدراسة التى قام بها تشارلز سلتر C. Salter وألان تيجر A. Tiger سنة ١٩٧٥. وانتهت هذه الدراسة إلى تأكيد ما انتهت إليه الدراسات السابقة عليها. فقد ثبت منها أهمية الاتصال الواسع والصريح والمبنى على أسس علمية مخططة ، حتى لا تترك العلاقات بين المجتمعات للفوضى والعشوائية والسطحية والتى تضر بأكثر مما تفيد [٣]. ولاشك أن الفهم المتبادل بين الشعوب والمجتمعات يعتمد على ما يتوفر بينها من شبكات اتصال يمكن الاعتماد على ما تقدمه من معلومات.

وبذلك ، يتضح أن أهمية الاتصال لا تقتصر على الأفراد فى علاقتهم بالأفراد الآخرين ، ولكنها تشمل الجماعات فى علاقتها بالجماعات الأخرى داخل المجتمع الواحد ، وتشمل كذلك المجتمع كله فى علاقته بالمجتمعات الأخرى. وتستطيع الأفراد والمجتمعات أن تحقق التعاون بينها بالاتصال. كما تستطيع أن تحقق به مصالحها وأهدافها وتحافظ على وجودها.

---

(١) Booner , H. Group Dynamics . Princples and Applications. New York: Ronald Press Co., 1959.Pp. 91-95.

(٢) Leavitt,H.Managerial Psychology. Chicago: The University of Chicago Press , 3rd edition , 1972.Pp.234-235

(٣) Salter C.and Teger ,A.Chauge In Attitudes Towerd Other Nations. As A Function of the Type of International Contact. Sociometry . vol.38,No.2,1975.Pp.213-221.

ويمكن القول ، بصفة عامة ، أن الاتصال هو أساس الحضارة فى مختلف العصور . الذى يحافظ على وجودها وإستمرارها وتطورها. ولسوف تبقى قنواته الخيوط التى تغزل بها الحضارة الإنسانية معالم مستقبلها.

ولاشك فى أن أهمية الإتصال تؤكد على أنه ليس عملية إجتماعية مستحدثة ، وإنما ترتبط بجذور تاريخية واجتماعية تضرب بعمق فى النفس الإنسانية وتجمعاتها الحضارية عبر التاريخ. ثم أنها تؤكد على أنه ليس عملية إجتماعية بسيطة ، وإنما هى عملية معقدة لها أبعادها التى تتشعب إلى كل أوجه الحياة الإجتماعية.

وهذا الإستنتاج يؤكد على أهمية توصيف الإتصال تاريخيا وإجتماعيا كعملية إجتماعية لها مكانتها ولها علاقتها البنائية والعضوية والوظيفية داخل كل مجتمع إنسانى وخارجه ، حتى يمكن اثبات كل أبعادها ومقوماتها.

ولسوف نتبادل هذا التوصيف التاريخى والإجتماعى فى مبحثين متتالين ، نتتبع فى أولهما جذور هذه العملية الإجتماعية وتطورها عبر التاريخ ، ونركز فى ثانيهما على تحليل واقعها ومقوماتها ، على أن يكون تناول المبحثين معا داخل إطار الحدود المستهدفة من تحليل المدخل الإجتماعى للإتصال ، وذلك كما يلى:

المبحث الأول: مراحل تطور الإتصال الإنسانى

المبحث الثانى: الوصف الإجتماعى لعملية الإتصال ومقوماتها

>>>>>><<<<<<

المبحث الأول

مراحل تطور الاتصال الإنسانى

لعل أهم أغراض علم الاجتماع فى مواجهة الحقائق الاجتماعية التى يدرسها ، أنه يحلل طبيعتها ويتصل بها ، للوقوف على نشأتها وتطورها والدعائم التى ترتكز عليها ، وكشف الخصائص التى تنطوى عليها ، كظواهر متأثرة بالمجتمع ومؤثرة فيه [١] .

وبالتالى ، فإن مراحل تطور الاتصال الإنسانى تدخل ، من هذه الزاوية ، فى المفاهيم التى يعنيها المدخل الاجتماعى للاتصال بل هذه المراحل فى تطور الاتصال الإنسانى – تعتبر نقطة البداية فى أى وصف اجتماعى للاتصال ، لأنها تثبت وجوده كعملية اجتماعية إنسانية نشأت مع ظهور التجمعات الإنسانية وتطورت معها وتعقدت بتعقدها.

بل أنه نظرا لأهمية هذه الدراسة التاريخية للاتصال الإنسانى ، قامت نظرية اتصالية ، تسمى بنظرية التحولات ، لتعطى لهذه الدراسة التاريخية مضمونها وأبعادها وضرورتها ، سواء فى الدراسات الاجتماعية أو الاتصالية ويقصد بهذه النظرية تحديد سلسلة العصور التى حقق خلالها الإنسان قفزات متتالية فى قدراته على تبادل وتسجيل واستعادة ونشر المعلومات ، حيث مكنت هذه القفزات الإنسان خلال العصور المتتالية من التفكير والاختراع وتجميع الحلول التى تم التوصل إليها لمشكلات العيش داخل حياة اجتماعية ، ثم نقلها بعد ذلك للآخرين من خلال الاتصال معهم [٢] .

وتؤكد هذه النظرية على أن هذه العصور كانت مرتبطة بتطور الإشارة والكلام والكتابة والطباعة ووسائل الاتصال الجماهيرى التى نعرفها اليوم. كما

---

[١] مصطفى الخشاب: علم الإجتماع ومدارسه ، الكتاب الثانى: دعائم علم الإجتماع وحقائقه. القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ، سنه ١٩٨٥ ،ص ٢٧.

[٢] Deflur , M& Other.Theories of Mass Communication.New York and London: Longman,1989,Pp.7-11.

تؤكد على أن فهم نتـائج وعواقب هذا الانتقـال مـن المراحل الأقدم إلى المراحل الأحدث ، يتيح الحصول على خلفية هامة للتطور ، وإدراك أهمية نتـائج المرحلة التى دخلها الجنس البشرى مع بداية هذا القرن.

وتعتبر هذه النظرية إن مرحلة عصر الإشارات والعلامات هى البدايات الأولى للاتصال ، والتـى ميزت عصر الحياة الإنسـانية البدائيـة. وقد لعبت الاستجابات الموروثة أو الغريزية دورا هاما فى تحقيق هذا الاتصـال عند حده الأدنـى. ومـع التزايد البطىء لقدرة العقل ، أمكن إقرار بعض الإيمـاءات والأصـوات والإشارات التـى تتميز بعنصـر المشاركة فـى إدراك معانيهـا ، وتستخدمها الأجيـال المتعاقبـة لتحقيق المعاملات الأساسية التى تتطلبها الحياة الاجتماعية. ومع تطور القدرة علـى التعلـم عبر ملايين السنين ، أصبحت أنظمـة الاتصـــال القائمـة علـى العلامـات والإشارات أكثر تعقيداً وأكثر ارتباطاً بالقواعد الثابتة وأكثر تأثيرا.

ولقد حدث بعد ذلك تطور مفـاجئ ، عندمـا انتقـل الجنس البشـرى إلـى عصـر الكلام واللغة. وكان ذلـك منـذ خمسـة وثلاثيـن ألـف سـنة ، عندمـا استخدمت اللغـة كوسيلة اتصال. ثم حدث تطور آخر بتوصل الجنس البشرى إلى الكتابة منذ خمسة آلاف سنه فقط. وكان للحضارات الصينية والسومرية والمصرية الفضل فى وضـع أسس هذا العصر وتطوراته.

ولم يدخل الانسان عصر الطباعة إلا فى منتصف القرن الخـامس عشـر ، أى فى سنة ١٤٥٥م ، عندما توصل جوتنبرج إلى الطباعـة فـى مدينـة مينز الألمانيـة. وبظهور الطباعة بدأ الإنسان يدخل عصر وسائل الاتصال الجماهيرى ، والذى بدأ بالكتاب والصحيفة ، ثم بظهور التلغراف والتليفون ، وما يلى ذلك من ظهور الفيلـم والراديو والتليفزيون ، وانتهى بالكمبيوتر ، لكى يعيش العـالم كلـه ثـورة تكنولوجيا المعلومـات والاتصـالات ، والتـى سوف تغير عمليـات الاتصـال الإنسـانى خـلال السنوات القادمة.

ونلاحظ هنا أن الدراسات العلمية الأجنبية تبدأ مراحل تطور الاتصال الإنسانى بعصر الاشارات والعلامات لعدم قدرة الانسان الأول على الكـلام. ولذلـك اعتبرت

الكلام مرحلة تالية. ولكن القرآن الكريم يذكر عن الخالق سبحانه وتعالى ، أن آدم أول خلق الله ، كان قادراً على الكلام ، وكان يعلم ويتكلم قبل نزوله الى الأرض. والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة ومتعددة منها على سبيل المثال:

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه. وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه ، أنه هو التواب الرحيم﴾ [(١)]

ولاشك فى أن هذه الآيات تثبت أن آدم ، وهو الإنسان الأول ، كما يعلم ويتكلم كما تثبت أن لغة التخاطب هى المرحلة الولى للاتصال الإنسانى ، وجاءت العلامات والإشارات مصاحبة لها لدعم معانيها كما نفعل الآن. ولكننا استشهدنا هنا بالدراسات الأجنبية على أساس أنها جزء من التراث العلمى العالمى.

ونلاحظ هنا أيضا ، إن نتائج هذه العصور من التحولات العظيمة فى مجال الاتصال الإنسانى ليست منفصلة ، ولكنها تراكمية. فالعلامات والإشارات لا تزال تستخدم حتى الآن وعلى نطاق واسع ، وأضيف إليها الكلام والكتابة ، ثم الطباعة

---

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة الآيات من ٣١ إلى ٣٧.

ووسائل الاتصال والمعلومات الأخرى بعد ذلك. وهذا يعنى أن تاريخ الاتصال الإنسانى عبارة عن خليط من الأنظمة الإتصالية ، وليس مجرد انتقال من نظام اتصالى إلى آخر.

كما نلاحظ هنا أن نشطة الحياه اليومية للبشر خلال كل عصر من عصور هذه التحولات العظيمة تأثرت بأنظمة الاتصال التى كانت موجودة فى إيامها تأثرا عميقا. ولذلك ، فانه طبيعة عمليات الاتصال فى كل مجتمع ترتبط تماما بكل اوجه الحياه اليومية للناس فى هذا المجتمع.

وعلى ذلك ، فانه من اجل فهم افضل للاثار العميقة التى خلفتها انظمة الاتصال على الوجود الانسانى خلال العصور المتتالية ، فانه ينبغى تناولها بشئ من التفصيل ، على ان نضع فى اعتبارنا كل ما عرضناه وما لاحظناه ، حتى يتضح المغزى الذى نستهدفه من عرض مراحل تطور الاتصال الانسانى ، كقاعدة للمدخل الاجتماعى اليه.

اولا: عصر العلامات والاشارات

يعتقد علماء الانثربولوجيا ان الانسان الاول مارس الاتصال من خلال عدد محدود من الاصوات التى كان قادرا من الناحيتين الجسمية والطبيعية على اصدارها ، مثل الزمجرة والصراخ والهمهمة والدمدمة ، بالاضافة الى حركات الجسد مثل اشارات الايدى والاذرع وغيرها.

ويعتقدون ايضا ان التعليم لعب دورا هاما فى امتلاك القدرة على الفهم والمشاركة فى الانظمة المحلية للعلامات والاشارات التى كانت تتوصل اليها كل اسرة او جماعة. وتطورت هذه القدرات عبر مراحل زمنية معينة نحو الافضل فى اتجاه انماط معقدة وأكثر فعالية ودقة للاتصال على اساس قواعد مشتركة لتفسيرها وفهمها. غير ان الرسائل المعقدة التى كان بوسع البشر نقلها كانت محدودة.

ولذلك ، لم تكن هذه الانماط تسمح بالاتصال السريع او التطور الحضارى المؤثر. وهذا يعنى. ان الناس فى هذا العصر كان ينبغى عليهم استخدام الرسائل البسيطة والتى ينقلونها بينهم بطريقة بطيئة. وكان لهذه القدره المحدودة على

الاتصال تأثير هام على طبيعة الحياه الاجتماعية ، وخاصة بالنسبة لعمليات التفكير. فقد ثبت ان الاساليب التى نستخدمها للاتصال مع الاخرين هى نفسها التى نستخدمها فى الاتصال داخل انفسنا. وبمعنى اخر ، نجد ان قواعد التفكير تتوازى مع قواعد الكلام او الحديث ، فالتفكير شكل داخلى من اشكال اللغة[1] .

ومن الممكن ان نستنتج هنا ، انه طالما ان الناس فى هذا العصر كانوا عاجزين عن الاتصال باللغة والكلام لأغراض التفاهم مع الاخرين ، فانهم كانوا ايضا عاجزين عن تخزين واستدعاء انماط الافكار التى يحتاجونها للاتصال بالاخرين ، كما كانوا عاجزين عن الاستيعاب الداخلى للمعانى وتصنيفها واستقرائها وتوليفها واستخلاص العام من الخاص ، والوصول الى النتائج المنطقية المعقولة. ولا بد أن الحياه العقلية للانسان القديم فى هذا العصر كانت مقصورة على المفاهيم الاساسية القائمة على انظمتهم الخاصة بالاشارات والعلامات. وهذا يعنى ان عمليات الاتصال بينهم وضعت قيودا هائلة على قدرتهم على التفكير والانتقال. وكانت النتيجة ان ايقاع التقدم الحضارى ومجالاته كان بطيئا جدا.

ثانيا: عصر التخاطب واللغة.

يرجح علماء الانثروبولوجيا ان لغة التخاطب ظهرت خلال الفترة ما بين ٣٥الف و ٤٠الف سنة. وقد مكنت هذه اللغة الانسان فى هذا العصر من ان يطور قدرته على التخطيط والصيد بطريقة افضل والدفاع عن نفسه بفاعلية اكثر.

ولقد اضطر الانسان الى ان يتراجع الى مناطق الانهار ، مثل دجلة والفرات ، والنيل ، بعد ان تزايد الجفاف فى المناطق التى كان يعيش فيها. وعلى ضفاف هذه الانهار حقق الانسان لنفسه الاستقرار ، ووفر لنفسه العناصر المختلفة التى احتاج اليها ليعيش حياته كمزارع. وظهرت تبعا لذلك القرى والمدن القديمة ، وتعلم

---

[1] هناك العديد من الدراسات العلمية التى اثبتت هذه الحقيقة وأكدت عليها ، منها:

- Whorf, B. Language: Thought and Reality. Cambridge, Mass.,:M. I. T. Press, 1956.
- Mead, G. H. Mind, Self and Society. Chicago: University of Chcago Press, 1934.
- Bromowiski, J. The Origins of Konwledge and Language. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1978.

الانسان تربية الحيوانات وعبادة الآلهة ، ووابتكر تقنية متطورة تقوم على استخدام المعادن والعجلات والبكرات وصناعة الفخار ، واستغل اوقات فراغه فى الابتكار والتجديد والتفكير. ولكنه كان لا يزال عاجزا عن الكتابة.

اما اللغة نفسها فقد أصبحت أكثر تنوعا ، وتطورت بثبات طرق جديدة للتخاطب خلال انتشارهم فى مناطق جديدة ، حيث كانوا يواجهون مشكلات جديدة ويتغلبون عليها. وعبر الأجيال التالية تعدلت اللغات الأقدم. وليس من شك فى أن تطور لغة التخاطب جعل من الممكن حدوث انطلاقات كبرى فى التطور الانسانى.

ويمكن القول هنا بصفة عامة ، أن توصل الانسان رالى لغة التخاطب واكتسابه القدرة على استخدامها وتطويرها ، كانت له آثار واسعة على أن يخطو خطوات عملاقة الى الامام. فلا شك فى أن الكلمات والارقام وغيرها من الرموز ، بالاضافة الى قواعد اللغة والمنطق ، ساعدت على تمكين الجنس البشرى من التأقلم مع بيئته الطبيعية والاجتماعية بوسائل لم تكن معروفة على الاطلاق خلال عصر الاشارات والعلامات.

ومن خلال تمكن الانسان من النظم الرمزية ، أصبح بوسعه التصنيف والاستيعاب والتحليل والتوليف وامعان الفكر. كما أصبح بوسعه التذكر والنقل والتلقى وفهم الرسائل الطويلة والمعقدة بدرجة لم يسبق لها مثيل ، والتى كان من المستحيل التعامل معها باستخدام الأشكال السابقة للاتصال.

ويمكن القول هنا أيضا ، وبصفة عامة ، أن التحول الى الاتصال بالتخاطب واللغة أحدث تعديلات مثيرة للوجود الانساى ، حيث انتقلت مجتمعات عديدة فى مختلف أجزاء العالم من أسلوب الحياة بالصيد وجمع الثمار الى تطوير حضارات كبرى. ومع أن اللغة وحدها لا يعود اليها حدوث ذلك ، الا انه كان من المستحيل أن تحدث كل هذه التغيرات بدون اللغة.

ثالثا: عصر الكتابة:

احتاج الانسان الى ملايين السنين لكى يمتلك القدرة على استخدام اللغة ، واحتاج الى عدة قرون لكى يمتلك القدرة على الكتابة ويجعلها احدى حقائق الحياة

الانسانية. وقصة الكتابة هى قصة الانتقال من الكتابة التصويرية او الوصف التصويرى الى نظم الصوتيات ، ومن التعبير عن الافكار المعقدة بالصور. أو الرسوم الى استخدام الحروف البسيطة للتعبير عن اصوات محددة. وكانت بداية هذه المحاولات متمثلة فى الرسوم الدقيقة للحيوانات التى رسمها الانسان الاول على جدران الكهوف فى عصر لغة التخاطب.

ثم كان تسجيل صور الاحداث بعد ذلك وبعد ان استقرت الزراعة ، يمثل تقدما ملموسا بالنسبة لما قبلها ، طالما كان بوسع من استخدموها فك رموز معانيها وتحقيق الهدف منها فى توصيل هذه المعانى الى الآخرين. ومن ثم ، كانت القاعدة التى يقوم عليها نجاح هذا الانتقال هى تطوير معانى قياسية او اصطلاحية متفق عليها للتعبير بالكتابة التصويرية.

وكانت أهم بواعث الانتقال الى هذه الكتابة التصويرية ، هو حاجة الناس الى طرق لتسجيل حدود الأرض والملكية ، وحاجتهم الى تسجيل عمليات البيع والشراء بعد تطور النشاط التجارى وتزايد الاتصالات بين الشعوب المختلفة ، بالاضافة الى حاجتهم الى تنظيم الزراعة والتجارة. فمثلا ، كان من الضرورى متابعة مناسيب مياه الانهار وحركة الأجرام السماوية التى تتحكم فى مواسم الزراعة والحصاد. ولذلك ، لم يكن غريبا أن تبدأ الكتابة التصويرية فى بلاد سومر ومصر القديمة ، وهى أولى المناطق التى ظهرت فيها الزراعة.

ففى حوالى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، بدأت تظهر النقوش التى يبدو أنها كانت مرتبطة بالمعانى فى كل من مصر وسومر. وبصفة عامة ، كانت هذه النقوش عبارة عن صور بدائية مرسومة أو محفورة على جدران المبانى أو الأسطح المشابهة. وخلال فترة قصيرة نسبيا. أصبح تقنين المعانى بوضعها فى صيغ اصطلاحية متفق عليها حقيقة واقعة. فكل رمز كان يمثل فكرة معينة أو شيئا معينا او مفهوما معينا. ولكى يتم الاتصال ، كان يتعين على الشخص الذى يقوم بالكتابة والشخص الذى يقرأ الرسالة ، التمكن من عدد هائل من هذه النماذج والرسوم. ولذلك كانت معرفة القراءة والكتابة مقصورة فى البداية على المتخصصين. وكان

كتاب المخطوطات القدماء يدرسون لسنوات طويلة لمعرفة آلاف الرموز التى يحتاجونها لتدوين الرسائل باللغة الهيروغليفية ، أو لفك رموزها للأثرياء وذوى النفوذ.

وفى حوالى عام ١٧٠٠ قبل الميلاد ، طور السومريون نمطا آخر من الكتابة، حيث توصلوا الى طريقة يعبر بها كل رمز قياسى عن صوت محدد ، بدلا من أن يعبر عن فكرة أو شئ. وكانت قيمة هذا الابتكار هائلة. فبدلا من آلاف الرموز المنفصلة المعبرة عن الأشياء والأفكار ، أصبح المطلوب عدد أقل من الرموز للتعبير عن أصوات المقاطع التى تتكون منها الكلمات. وكانت هذه الطريقة هى الخطوة الأولى نحو تطوير الكتابة الصوتية. وقد أسهمت فى تيسير معرفة القراءة والكتابة ، حيث أصبح على الانسان ان يتذكر فقط مائة رمز تقريبا لمعرفة مختلف المقاطع الصوتية فى اللغة.

وخلال اقل من ألف عام ، ظهرت الكتابة الألفبائية. وانتشرت بسرعة فى انحاء العالم القديم. وبعد عدة قرون وصلت الى بلاد الأغريق ، بعد ان كانت فكرة استخدام رموز الحروف للتعبير عن الأصوات الساكنة والمتحركة بدلا من المقاطع الصوتية قد تطورت تماما. وكان ذلك تقدما كبيرا ، لآن المسألة لم تعد تحتاج الى رموز كثيرة العدد. بل انه على سبيل المثال ، لا تزيد هذه الرموز فى اللغة الانجليزية عن ٢٦ حرفا ، وفى اللغة العربية عن ٢٨ حرفا. ولقد أصبحت حروف الكتابة أحد أهم منجزات الجنس الشرى فى كل العصور. ولولاها لسادت الأمية فى معظم العالم ، ولما حدثت التطورات الهائلة فى العلوم والفنوان ونظم الحكم والعقيدة. ولقد بدأ التاريخ نفسه بالسجلات المكتوبة منذ ٢٥٠ قرنا فقط. وهى فترة تعد قصيرة نسبيا اذا قورنت بسبعين مليون سنة ، هى عمر البشرية.

أما بالنسبة لوسائل نقل المعلومات او الوسائط ، فقد استخدمت الأحجار وألواح الطين والفخار عند السومريين والمصريين فى البداية. ولكن المشكلة هى أن هذه الوسائط كانت لها القدرة على التحمل عبر الزمن ، ولكن كان من الصعب ، بل من

المستحيل ، ان تنقل عبر الأمكنة والمسافات. ومع تطور هذه المجتمعات وتعقدها ، كان عليها أن تبحث عن وسائط بديلة وسهلة.

وقد توصل المصريون الى صناعة نوع من الورق من نبات البردى ، واستخدموا الفرشاة والحبر للكتابة عليه بدلا من النقش على الحجر. وتوصلت قبائل المايا فى أمريكا اللاتينية الى الكتابة على لحاء الشجر بعد اعداده على شكل لفائف يمكن طيها ، وكانوا يكتبون عليها من الوجهين. ثم توصل الصينيون الى صناعة الورق واستخدامه ، وعنهم انتقل الى العالم الاسلامى. وقد جاءت أخطر المراحل ، عندما بدأ الورق يحل محل المخطوطة الرقية المصنوعة من الرق خلال القرن الثانى الميلادى. ومن العالم الاسلامى ، انتشر بشكل تدريجى فى اوروبا بعد فتح الأندلس.

وقد كان أهم تأثير لهذه التحولات فى الوسائط الحاملة للمعلومات ، أنها فتحت الطريق الى امكانية حدوث تغيير كبير فى النظام الاجتماعى وثقافة المجتمع وحضارته ، بعد ان توفرت الظروف الضرورية للتغيرات الاجتماعية والثقافية الكبرى ، من خلال التوصل الى تكنولوجيا اتصال تقوم على استخدام وسيط خفيف، وهو الورق ، ويمكن نقله بسهولة ، بالاضافة الى رموز للكتابة يمكن لكتاب المخطوطات كتابتها وقراءتها بسهولة. وقد تأثر هيكل المؤسسات الاجتماعية بأسره بهذا التطور [1] .

رابعا: عصر الطباعة

كان الناس قبل القرن الخامس عشر ينسخون الكتب عن طريق عمل مخطوطات أو نسخ تتم كتابتها يدويا. وكان لهذه الطريقة عيوبها ، فالى جانب كثرة الأخطاء ، كان عدد الكتب المتاحة محدودا للغاية ، ولم يكن قادرا على شرائهاالا الاشخاص القادرون ، فانحصر توزيعهاداخل دائرة ضيقة.

---

(1) Innis. H. Empire and Communication. Toronto = University of Toronto Press. 1972. P. 14.

واستطاع الصينيون اسخدام فكرة الختم لتُرك أثر على سطح ما وطبع صورة على الطمى الطرى باستخدام اسطوانة خشبية تدور بعد أن يحفر عليها بعض الرموز. ثم طوروها بطبع صفحة كاملة من الحروف عن طريق الضغط عليها بقوة فوق سطح من الخشب الأملس لتترك صورة معكوسة يتم تحبيرها وطبعها بطريقة الختم على ورقة أو اى سطح آخر. واستخدموا هذه الطريقة المطورة فى طبع كتاب محاورات بوذا ، وهو اول كتاب فى العالم ، حوالى سنة ٨٠٠ قبل الميلاد. وكان ذلك قبل ظهور الطباعة فى اوروبا بمئات السنين.

اما الطباعة ، كما نعرفها الآن باستخدام حروف فردية مصنوعة من المعدن ، فانها لم تكن ممكنة قبل ان يتوصل اليها صائغ مغمور يدعى جوتنبرج من مدينة مينز الالمانية سنة ١٤٥٥م. واستطاع جوتنبرج أيضا أن يطور مطبعة تقوم على فكرة وجود سطح توضع عليه لوحه الحروف وسطح أملس للضغط على الورقة التى ستتم الطباعة عليها ، واستخدم هذه المطبعة فى طباعة الانجيل. وخرجت النسخ خالية من الأخطاء ونظيفة وأنيقة وسريعة.

ومع بداية القرن السادس عشر الميلادى ، كانت المطابع التى تعمل بطريقة الجمع اليدوى للحروف تنتج آلاف النسخ من الكتب المطبوعة على الورق. وكان يتم نشر وتوزيع هذه الكتب بجميع اللغات الأوربية ، التى أصبح من الممكن أن يقرأها أى شخص ملم بلغته الأصلية. وأدى انتشار هذه الكتب الى زيادة الاهتمام بتعلم القراءة.

ثم ظهرت الفكرة الأساسية للصحيفة بالقارة الأوربية والعالم الجديد. وتأسست صحافة المستعمرات الأمريكية ، وكانت توزع على الصفوة المتعلمة فى شكل أوراق صغيرة وكتيبات ، وتطور عن هذا الشكل نوع جديد من الصحف التى تخاطب القاعدة العريضة من الجماهير والتى اتسمت بالتركيز على اهتماماتها الأساسية وبرخص ثمنها وسعة توزيعها ، وانتشرت فى أجزاء عديدة من العالم. وبعد ذلك ، شهد العقد الثالث من القرن التاسع عشر تطور تكنولوجيا الطباعة

السريعة ، وارتبطت الفكرة الأساسية للصحيفة بأول وسيلة اتصال حقيقية فى عالم الاتصال.

ويلاحظ هنا أن الصحيفة الجماهيرية أو الشعبية ، مثلها مثل وسائل الاتصال الأخرى التى جاءت بعدها ، كانت اختراعا ظهر الى الوجود فى اعقاب مجموعة معقدة من العناصر الحضارية التى ظهرت وتراكمت داخل المجتمع. كما يلاحظ هنا ان هذا الاختراع مثله مثل جميع الاختراعات ، كان يمثل اندماج هذه العناصر فى موقف اجتماعى موحد يقبل انتشار الصحيفة كمشروع حضارى. وكانت الصحيفة ، كأداه فنية تكنيكية منسجمة مع المؤسسات الحضارية والثقافية الاخرى فى ذلك العصر ، بل كانت مطلوبة أيضا من جانب هذه المؤسسات.

وكان واضحا فى نهاية القرن التاسع عشر ان الصحف والمجلات والكتب ، كوسائل اتصال جماهيرية ، اصبحت واسعة الانتشار فى المجتمع ، وأصبحت تقوم باحداث تغييرات هامة فى الظروف الاجتماعية. وقد توفر لها أربعة عوامل جعلتها أكثر فعالية من أى وسيلة اتصال عرفتها المجتمعات السابقة ، فقد كانت قادرة على التعبير عن أفكار ومشاعر متباينة وواسعة الانتشار ، وكانت قادرة على التغلب على الزمن باعتبارها سجلا دائما لا يغنى أو يضيع ، كما كانت قادرة على التغلب على المسافات من خلال سرعتها فى الوصول الى القارئ ، كذلك كانت قادرة على الانتشار والوصول الى جميع الطبقات[١] .

ولقد غيرت هذه العوامل الأربعة التى توفرت لوسائل الاتصال الجماهيرية فى القرن التاسع عشر الموقف العقلى لهؤلاء الذين تعاملوا معها. ويتلخص التغيير الذى أحدثته فى سمتين أساسيتين ، هما: التضخيم واثارة الاهتمام. فقد تم توسيع نطاق الاتصالات الاجتماعية من حيث المساحة والاسراع بها من حيث الزمن. وأصبحت الوحدة العقلية التى تنطوى عليها هذه الاتصالات أوسع نشاطا وأكثر

---

(١) Cooley, C. Social Organization. Boston: Scriber's Sons, 1909. P. 63.

حيوية. واتسع مجال الفرد يدخوله فـى علاقـة مـع حياة أكبر وأكثر تنوعـا. وظـل مرتبطا بتعدد المواقف المتغيرة التى أتاحتها له هذه الحياة[١].

وبذلك ، أصبح واضحا ان عصر الاتصال الجماهيرى سوف يلغى حدود العزلة بين الناس فى العالم. كما أنه سوف يحدث تغييرات هامة فى تنظيم المجتمع. بل انه سوف يمثل ، كما قـال أحد البـاحثين ، ثـورة فـى جميـع أوجـه الحيـاة ، سـواء فـى التجارة أو السياسة او التعليم أو حتـى فـى الأمـور الاجتماعيـة الشـائعة كالاحـاديث الخاصة[٢] .

خامسا : عصر الاتصال الجماهيرى والمعلومات

تزايد ايقـاع الاتصـال الانسـانى بشـدة بعـد ظهـور الصحافـة الجماهيريـة. ففـى منتصف القرن التاسع عشر أصبح التلغراف حقيقة واقعة. ورغم انـه لا يعتبر من وسائل الاتصال الجماهيرية ، الا انه كان عنصرا هاما فى تكنولوجيا الاتصال التـى أدت فى النهاية الى وسائل الاتصال الالكترونية[٣] .

وخلال العقد الاول من القرن العشرين ، أصبحت السـينما أحـد أشـكال التسـلية الأساسية. وفى العشرينات من نفس القرن ، احتل الراديو مكانته فى المـنزل. وفـى الاربعينات من هذا القرن ايضا ظهر التليفزيون. وقد اخترق الراديو حياة الناس فى إتجاهـات عديـدة ، وتزايـد عـدد أجهـزة الترانزيسـتور الصغـيرة. وفـى أواخـر الخمسينات وأوائل الستينات بدأ التليفزيون فى تحقيق نفس الأنتشـار. وظهـرت بعـد ذلك وسائل اتصال جديدة ، مثل التليفزيون الكابلى والتسجيلات على أجهزة الفيديو والفيديو تكس. وأصبحت وسـائل الاتصـال الجماهيريـة بذلـك أهم الحقـائق التـى لا غنى عنها فى أى مجتمع.

وهناك العديد مـن وسـائل الاتصـال المسـاعدة لوسـائل الاتصـال الجماهيريـة ، والتى زادت من كفاءتها وسرعة انتقالها وتغطيتها للأحداث على مستوى العالم كله.

---

[١] Ibid, P. 64.

[٢] Ibid, P. 65.

[٣] DeFleur, M. Understanding Mass Communication. Bosten: Mifflin, 1981. Pp. 6-23.

فالى جانب التلغراف ، ظهرت الطابعة عن بعد Teletypewriter والتليكس Telex والهاتف Telephone. وقامت على هذه الوسائل المساعدة وسائل مساعدة أكثر تعقيدا كوكالات الأنباء وأقمار الاتصال.

ثم دخل الكمبيوتر كوسيلة اتصال ومعلومات ليضيف المزيد من كفاءه وسائل الاتصال الجماهيرية وسرعتها من ناحية ، وليحتل مكانه كنظام اتصالى أساسى من ناحية ثانية. وبالتالى ، قام على نمطين: أولهما ، نمط تبادل المعلومات من خلال ربط الحاسبات الالكترونية بوسائل الاتصال عن بعد ، وهى الاتصالات السلكية واللاسلكية ، مثل الفاكسميلى والتليفزيون والفيديو والهاتف. وثانيهما ، نمط تبادل المعلومات بواسطة الحاسب الالكترونى ، حيث يتحول الحاسب الالكترونى الى وسيلة اتصال ترسل وتستقبل المعلومات ، من خلال الربط المباشر بين حاسبين الكترونيين أو أكثر بواسطة الكابل المحورى أو عبر خطوط الهاتف العادى أو الكوابل الصوتية والبصرية أو نظم الميكروويف والأقمار الصناعية.

ويضاف الى الكمبيوتر أنظمة اتصالية أخرى معاونة ومتصلة به ، كأنظمة البريد الالكترونى ، وأنظمة النصوص المتلفزة ، وأنظمة اللقاءات عن بعد أو أنظمة المؤتمرات عن بعد ، وما يتفرع عن هذه الأنظمة من أنظمة فرعية أو أشكال متنوعة.

* * * * * * * *

وأخيرا ، فان هذا العرض السريع لمراحل تطور الاتصال الانسانى لم يقصد به تأريخ مفصل للاتصال الانسانى ، وانما قصد به ابراز أهم التحولات فى تاريخ الاتصال الانسانى ومدى ارتباطها بالحاجة الاجتماعية اليها ومدى تأثيرها على الأفراد والجماعات والمجتمعات.

وهناك ملاحظتان أساسيتان أخيرتان: أولاهما ، أن ثورة الاتصال قد حدثت عبر مختلف مراحل الوجود الانسانى. وكل ثورة منها قدمت وسيلة أمكن من خلالها احداث تغيير كبير فى الفكر الانسانى ، وفى تنظيم المجتمع ، وفى تراكم الرصيد الحضارى للبشرية. وثانيتهما ، أن تطور وسائل الاتصال الجماهيرية

ومعاوناتها حدث فى مرحلة متـأخرة بـالفعل. فـالعديد منهـا ظهـر خـلال حيـاة جيـل واحد ، لا يزال جزء كبير منه يعيش حتى الآن.

ورغم عدم توصل الباحثين فى مجال الاتصال الى نتائج تؤكد مدى الآثار التى تخلفهـا وسـائل الاتصـال الجماهيريـة فـى كـل النواحـى النفسـية والاجتماعيـة لحيـاة الأفراد والجماعات والمجتمعات ، الا أنهم بدأوا يحـاولون تجميـع قـاعدة مـن نتـائج بحوثهم للمساعدة على فهم هذه الآثار .

ولا شك أن تاريخ الاتصال الانسانى يؤكد بوضوح على أن هذه القاعدة ينبغـى أن تنطلق من زاوية التأثير المتبادل بين المجتمع ووسائل الاتصـال المتوفـرة فيـه ، وليس فقط من زاوية تأثير وسائل الاتصال على المجتمع. فمن المعـروف أنـه لكـى تظهر وسيلة اتصال معينة ، ينبغى ان تكون هناك حاجة ماسة اليها داخل المجتمـع، وهذه الحاجة تشكلها ظروف اجتماعية معينة. واذا وجدت الوسيلة مارسـت تأثيرهـا من خلال الظروف الاجتماعية التى دعت اليها وشكلت الحاجـة اليهـا. وهـذه حقيقـة ينبغى أن تكون واضحة تماما ، اذا أردنا للبحوث العلمية ونتائجها أن تحقـق الغايـة كاملة منها.

المبحث الثانى

الوصف الإجتماعى لعملية الأتصال ومقوماتها

عرفنا أن الإتصال عملية نفسية واجتماعية ، بمعنى انه يتشكل من عناصر نفسية داخلية فى اطار بوتقة اجتماعية ، يعيش فيها الفرد منذ ولادته وحتى نهايته. ويركز علم الأجتماع أساسا على عناصر هذه البوتقه الإجتماعية ولايلجأ إلى العناصر النفسية داخلها إلا لكى يعطى تفسيرا مقبولا للعناصر الإجتماعية المستهدفة. ومن ثم فدينامية الإتصال تعتبر نت هذه الزاوية ظاهرة إجتماعية داخلة فى إهتمام علم الإجتماع.

وإذا كان علم الإجتماع يدرس الظواهر الإجتماعية المتصلة بأحوال الإجتماع الإنسانى ، والتى يقصد بها تلك النظم والقواعد والعمليات والعلاقات الإجتماعية والإتجاهات العامة التى يشترك فى إتباعها أفراد مجتمع ما ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم العامة وتنسيق العلاقات التى تربطهم ببعضهم وتربطهم بغيرهم(١) ، فإن عملية الإتصال تقع فى إطار الدراسة الإجتماعية لهذه الظواهر من ناحيتين متكاملتين أولاهما ، بإعتبارها عملية من العمليات الإجتماعية التى تحرك الظواهر الإجتماعية الأخرى نحو غاياتها ومقاصدها. وثانيتهما ، باعتبارها أساسا لأنظمة إتصال لها كيانها واستقلالها ودورها فى المجتمع ، شأنها فى ذلك شأن النظم السياسية والإقتصادية والتربوية والقضائية ، وما إلى ذلك.

وتكون عملية الإتصال فى المجتمع الإنسانى ، بهذه المفاهيم الأساسية ، وحدة أولى تقوم عليها النظم والعلاقات والمعاملات والعمليات الإجتماعية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ووحدة أولى يقوم عليها أنظمة إتصالية متخصصة ومستقلة ومنفردة بدورها. ويكون توصيف عملية الإتصال ومقوماتها ، بهذه الكيفية ، بداية أساسية فى فهم أحوالها كظاهرة إجتماعية تمثل أحد الإركان الإساسية التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى.

---

(١) دكتور على عبد الواحد وافى: علم الإجتماع. القاهرة: مكتبة نهضة مصر ، ٩٧٧، ص ٥

وعملية الإتصال ، بهذا التحديد ، تدخل ضمن اهتمامات علم الإجتماع العام ، إذا درست كعملية إجتماعية قادرة على تشكيل النظم والعلاقات والمعاملات والعمليات الإجتماعية بين الأفراد والمجتمعات ، وهو مايشكل المجال الذى نركز عليه فى هذا الفصل بمبحثيه ، بينما إذا تناولناها كنظام إتصال متخصص ومستقل ومنفرد بدوره فى المجتمع ، فإنها ضمن اهتمامات فرع النظم ، وهو أحد الفروع التى ينقسم إليها علم الإجتماع العام وتكون هنا أحد النظم التى تستقل بعلم متميز ، شأنها فى ذلك شأن النظم السياسية والإقتصادية والتربوية والقضائية ، وغيرها وهذا مايشكل المجال الآخر الذى نركز عليه فى الفصول الأخرى.

ومن ثم ، ينبغى أن نأخذ فى إعتبارنا عند دراستنا لعملية الإتصال هنا المعالم والحدود التى يلتزم بها منهج البحث فى علم الإجتماع العام[1] ، حيث يقف عند حدود التقرير لحقيقة الظاهرة الإجتماعية ولايتعداها إلى تقويمها ، وتنتمى مهمته عند الكشف عن طبائع الظواهر ومايحكمها من قوانين ، ولا يعرض مطلقا لما ينبغى عمله للتأثير عليها ، ثم هو لايكتفى بالوصف فقط ، وإنما يتجاوزه إلى الشرح والتحليل ، على أن يكون ذلك كله فى إطار الموضوعية والتجرد والبعد عن التعصب لمسلمات معينة.

وعلى ضوء هذه الإعتبارات جميعها ، نستطيع أن نوصف عملية الإتصال ومقوماتها كعملية إجتماعية أساسية فى المجتمع الإنسانى ، على أن يكون هذا التوصيف إجتماعيا وشاملا لكل ماتعنيه هذه العملية ، ولكل مايحددها من حدود ، وماتستهدفه من أبعاد وغايات.

التعريف بعملية الإتصال ودوافعها:

يلعب الإتصال دورا أساسيا فى حياة كل منا منذ حياة كل منا منذ ولادتنا إلى نهايتنا ، وسواء خلال الأنشطة التى نمارسها فى عملنا أو فى قضاء وقت فراغنا. وإذا سئل الناس عن الكيفية التى يقضون بها أوقات يقظتهم ، لكانت إجابتهم المشتركة مؤكدة على الإتصال سواء منهم أو بهم. وهى حقيقة مؤكدة ، فالإتصال

---

(١) المرجع السابق ، ص: ٣٥-٣٧.

الإنسانى ، سواء أكان من خلال الصور أ و الموسيقى ، وسواء كان لفظيا أو غير لفظى ، وسواء كان للمعلومات أو للإقناع ، وسواء كان التخويف أو التسلية والإمتاع ، وسواء كان واضحا أو غير واضح ومستهدفا أو مصادفة ، وسواء كان شخصيا أو من خلال وسائل وسيطة ، فهو الحلقة التى تصلنا بالآخرين وبالإنسانية جميعها وهو يسود كل أعمالنا.

ومن الواضح هنا أن الإتصال ليس مرادفا للتعبير عن الذات أو الحديث إلى الذات ، إنه لايعنى الإتصال من طرف واحد ، وبالتالى فهو لايعنى نقل المعلومات والأفكار والإتجاهات من شخص إلى أخر ، كما جاء فى أحد التعريفات التى أطلقت عليه(١) أنه يشترط وجود طرفين متقابلين ، يتبادلان فيما بينهما المعلومات والأفكار والإتجاهات لكى يحدث الفهم المشترك بينهما.

وبذلك ، يكون التعريف الصحيح لعملية الإتصال ، إنها عملية تحقق اشتراك الأفراد معافى المعلومات والأفكار والإتجاهات(٢). وهذا التعريف ينفى عنها أنها عملية النقل للمعلومات والأفكار والإتجاهات فى إتجاه واحد ، ولكنه يؤكد على إزدواجية الإتجاه أو تعدده بحسب الأفراد الداخلين فيها. وهذا يعنى أن التعريفات التى تستخدم كلمة " النقل " فى وصفها نتجاهل انها عملية يقوم بها أكثر من طرف واحد.

ثم أن عملية الإتصال ينبغى أن تكون عملية دائمة ومستمرة ، وأن تكون لها عناصرها المتعددة والمتفاعلة ، وأن تكون لها أيضا نتائجها المشتركة التى تحدد كمية المعلومات والأفكار والإتجاهات المشتركة ونوعيتها وآثارها. ولعل مايؤكد هذه الحقيقة ويدعمها أن كلمة الإتصال Communication تشترك فى معانيها الأصلية مع كلمة مجتمع أو جماعة محلية Community وكلمة عام أو مشترك Common. ومن خلال المعانى المشتركة بينها ، نستنتج أن الإتصال ينبغى أن

---

(١) Agee,W.& Other.Intreduction to Mass Communic Ations.New york: Harper & Row ,9th edition, 1988. P.34.

(٢) Wilson,S.Mass Media and Mass Culture. New York: Mc GrawHill, 2 ed edition, 1992. Pp. 7-8.

يكون عملية مشتركة بين عدد من الأفراد ويصفون بالقائمين بالإتصال سواء كانوا هادفين أو مستهدفين [١].

ويضاف إلى ذلك ، أن المعلومات والأفكار والإتجاهات التى تمثل مضمون عملية الإتصال ، ماهى إلا معانى تحملها رموز لفظية أو غير لفظية ، أى تحملها ألفاظ اللغة المستخدمة بين أطرافه أو الرموز غير اللغوية كالصور والموسيقى والحواس وماشابه ذلك. وهذا يعنى أن الإتصال الإنسانى هو اتصال بالرموز التى تحمل معانى مستهدفة بين أطراف الإتصال بقصد تحقيق المشاركة بينهم حول هذه المعانى المتبادلة بينهم.

أن أهمية الإتصال كعملية اجتماعية ، تكمن فى قدرتها على تبادل هذه المعانى الرمزية ، وعلى خلق فهم مشترك لها. فأنت حين تتصل بالأخرين ، تتصل بهم ذهنيا أو فكريا. وعندما يشتركون معا فى فهم معانى مشتركة من خلال أنشطة اتصالية مشتركة ، تكون قد قمت باتصال ذهنى ناجح معهم. فالهدف من الإتصال هو حدوث جماعية الفهم أو المشاركة فى المعنى من خلال الأنشطة الإتصالية بين أطرافه. ولذلك ، يكون صحيحا تماما أن نعرف عملية الإتصال بأنها تحقق اشتراك الأفراد معا فى معانى واحدة من خلال الرموز التى يتبادلونها معا.

وعملية الإتصال ، بهذا التعريف ، لها دوافعها فى المجتمع ، سواء كانت ممارستها بوعى أو بغير وعى ، أو كانت مقصودة أو مصادفة. وتتركز هذه الدوافع فى خمسة دوافع أساسية ، وهى: الإستكشاف وتكوين العلاقات والمساعدة والإقناع واللعب أو الترفيه والتسلية.

فدافع الإستكشاف ، يعنى أنك حين تتصل بالآخرين ، تعلم كثيرا عن نفسك بقدر ماتعلمه كثيرا عن الأخرين. وأنت حين تتكلم عن نفسك مع شخص آخر. فلإنك تقوم نفسك من خلال رد فعله تجاه ماتقوله له أو من خلال انعكاس ماتقوله على مشاعره وأفكاره وسلوكه تجاهك. وهذه النتائج تدعم شخصيتك ، وتؤكد

---

(١) Merrill. J.&Other. Modern Mass Media. Nw York: Harper Collins College Pub. , 2 ed editien. 1994. P.5.

صورتك عن نفسك والعكس صحيح تماما. ثم أنه من خلال هذا الدافع للإتصال تتعرف على الآخرين وعلى المجتمع من حولك وعلى العالم الذى يحيط بك. وأنت تستطيع أن تعلم من خلال الأخرين ومن خلال وسائل الإتصال فى المجتمع أضعاف ماتستطيع أن تعلمه بمجهودك الخاص.

اما تكوين العلاقات ، كدافع ثان له أهميته فى عملية الإتصال ، فأننا نجد أن الناس يريدون أن يشعروا بالحب للآخرين وأن يشعروا بحب الآخرين لهم. ومن هنا ، تأتى أهمية العلاقات والصلات الإجتماعية ، سواء جاءت على شكل صداقة أو معرفة أو زمالة ، وسواء جاءت من خلال العمل أو الدراسة أو الصدفة. ولاشك أنك تصرف وقتا طويلا فى الأتصال مع هذه النوعيات جميعها. ولكن كما أن الإتصال يستخدم فى تكوين العلاقات والصلات الإجتماعية ، فأنه يستخدم أيضا فى فضها وانهائها لأسباب عكسية تماما.

وأما المساعدة ، كدافع ثالث لعملية الإتصال ، فأنه يقصد بها أن هناك نوعيات من الناس تقدم المساعدة للآخرين من خلال الإتصال ، مثل علماء النفس العلاجى والمستشارين والمدرسين والآباء والأصدقاء وما شابه ذلك ، وأنت نفسك تستخدم عملية الإتصال لهذا الدافع ، عندما تشترك فى مواجهة مشكلة معينة تواجه جماعة من الجماعات التى تنضم إليها ، أو عندما تستمع إلى محاضرة عامة.

ويأتى الإقناع كأحد الدوافع الأساسية لديناميـة الإتصال. فمن خلاله تستهدف وسائل الإتصال الجماهيرية إقناع جماهيرها بتغيير آرائها أو اتجاهاتها أو سلوكها ، سواء من خلال مضمونها أو علاقاتها. وقس على ذلك مهن تقوم على الإقناع ، مثل المحامى والتاجر ورجل الأعمال ورجل الإدارة وغيرهم. وفى حياتك العادية تمارس الإقناع مع أخوتك أو أحد أصدقائك أو زملائك حول قضايا ومصالح مشتركة.

وأخيرا يأتى اللعب أو التسلية والإمتاع كدافع خامس وأخير ، فكل فرد فى المجتمع يقضى وقتا فى اتصال يستهدف الترويح والتسلية والمتعة ، مثل الإستماع

إلى صديق يمزح أو يقص رواية أو حدث معين ، كنوع من الإسترخاء أو الهرب من ضغوط الحياة.

ومع تأكيدنا على أن هذه الدوافع الخمسة هى أهم الدوافع التى تدفع بالناس الى الدخول فى عمليات للإتصال مع الأخرين ، إلا أن حصر دوافع الإتصال فى هذه الدوافع الخمسة ليس واقعيا ، خاصة إذا علمنا أن الناس يدخلون فى هذه الدينامية بوعى أو بغير وعى وبفرض أو بالمصادفة ، وإذا علمنا أن عملية الإتصال لها أشكال عديدة ، فهى تتعدد من الإتصال الشخصى إلى الإتصال الجماعى إلى الإتصال التنظيمى إلى الإتصال الجماهيرى وهى أشكال تؤكد على تعدد دوافعها بدرجة لايمكن حصرها باتساع المجتمع كله.

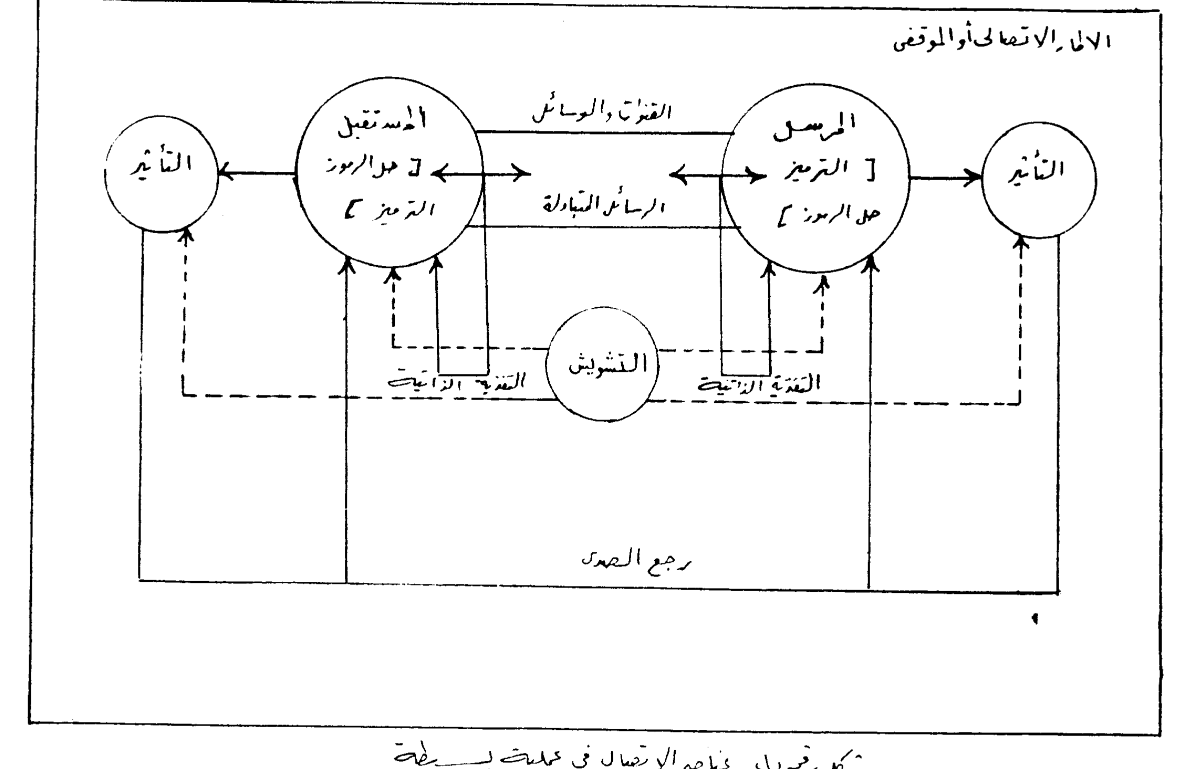
تحليل عملية الإتصال إلى عناصرها الأولية:

توصف عملية الإتصال بأنها معقدة من جوانب كثيرة. فهى معقدة بتداخل عناصرها تداخلا لا يسهل معه الفصل بينها فصلا قاطعا. وهى معقدة أيضا بتعدد المستويات التى يأخذها كل عنصر من عناصرها خلال تطبيقاتها فى الحياة الإجتماعية ، وهى معقدة كذلك بدخول مؤثرات نفسية وإجتماعية وتشابكها وتفاعلها بكيفية لايسهل تصورها أو تجريدها لتبسيط دراستها.

ويكون علينا ، فى محاولة منا لتبسيط عملية الإتصال وتحليلها إلى عناصرها الأولية ، مع عدم الإخلال بطبيعتها كعملية معقدة ، أن نعيدها إلى أبسط مستوياتها وحالاتها ، وهو المستوى الذى تحدث فيه بين شخصين حول رسالة واحدة ووسيلة واحدة ، ثم ننتقل بها بعد ذلك من البساطة إلى التركيب ثم إلى التعقيد لنوفر لها كل مضمونها وأبعادها فى كل مستوياتها المعبرة عنها كعملية اجتماعية معقدة ، وذلك كما يلى:

أ - دينامية الإتصال كعملية اجتماعية بسيطة:

تشير عملية الإتصال فى أبسط مستوياتها إلى سلوك اتصالى يمارسه شخصان. وهذا السلوك الإتصالى يعنى إرسال رسالة أو رسائل معينة ، داخل إطار اتصالى ، يحدث فيه تشويش عليها ، وتأتى بنتائج محددة. وبالتالى ، يمكن أن نتصور التفاعل بين عناصرها بالكيفية المبينة فى الشكل التوضيحى المرفق رقم (١).



شكل رقم (١) عناصر الاتصال فى عملية بسيطة

والذى نستطيع أن نتبين منه وجود خمسة عناصر مشكلة لها ومحركة لتفاعلاتها ، وهى (١):

١- لإطار الاتصالى أو الموقفى:

يضيق البعض معانى الاطار الإتصالى أو الموقفى ويقصرونه على أربعة معانى: فهو يعنى فى نظرهم الظروف المادية المتصلة بالمكان الذى جرى فيه الإتصال. وقد يعنى الظروف الثقافية المشكلة للعادات والتقاليد والقواعد المؤثرة على اتجاهات كلا الشخصين الداخلين فى عملية اتصال معينة. وقد يعنى أيضا الظروف النفسية والإجتماعية لكل منهما كالمكانة الإجتماعية التى يحتلها كا منهما ، وما يحيطها من عناصر ثقافية ، مثل روح الصداقة وىلألفة أو العداوة والنفور وروح الجدية أو الهزل التى يفرضها الموقف الذى جمعهما. وقد يعنى من ناحية ثالثة التوقيت الذى يحدث فيه الإتصال ، والذى يؤثر بدرجة واضحة على مدى استعداد كل منهما للإتصال بالآخر. وهذه المعانى الأربعة للإطار الإتصالى أو الموقفى تمثل أبسط معاينة. ويلاحظ أنها معانى متداخلة ويتأثر كل منا بالمعانى الأخرى ويؤثر فيها ، وهى جميعها تؤثر على باقى العناصر المشكلة لعملية الإتصال. ولكن هذه النظرة الضيقة لا تمثل من وجهة نظرنا الحقيقة الكاملة لمفهوم الإطار الإتصالى أو الموقفى.

فهناك من ينظر اليه نظرة واسعة تستوعب كل المتغيرات التى تتفاعل داخله وتوفر له درجة عالية من الواقعية. فهو قد يعنى الأرضية المشتركة التى تجمع بين أطراف الإتصال ، والتى تضع ميولها وخبراتها المشتركة. وقد يعنى الخلفية المشتركة لعملية الإتصال ذاتها ، مثل وجود بيئة مناسبة مكانيا وزمنيا للتعامل ، على أساس أن خلفية الحدث لاتقل أهمية عن الحدث ذاته. وقد يعنى المصالح المشتركة والتى تقرب بين أطراف الإتصال ، وقد يعنى النظام الإجتماعى أى الجماعات التى ينتمون إليها ، ولهذه الجماعات قوة تأثيرها. وقد يعنى المثيرات

---

(١) هذا الرسم التوضيحى منقول بتصرف عن المرجع التالى:

- Devite, J. Human Communication : The Basic Course. New York: Harper Collins College Pub., 6th edition . 1994.P.9.

الإجتماعية التى تشكل دوافع السلوك. وقد يعنى العمليات الإجتماعية التى تقوم بها هذه الأطراف فى مواجهة بعضها خلال عملية الإتصال بينها ، مثل عمليات التقييم، والإعتماد المتبادل والسلطة والنفوذ والأدوار الإجتماعية والمناظرة الإجتماعية وخاصة فى مجال القدرات ، وما إلى ذلك. وهذه المعانى جميعها لاتعمل فرادى ، ولكنها تتداخل خلال تأثيرها على العناصر الأخرى فى عملية الإتصال.

ويلعب الإطار الإتصالى أو الموقفى بمعاينة جميعها دورا هاما خلال عملية الإتصال. ويشترط فى كل من المصدر أو المرسل والمستقبل أن يمتلكا القدرة على فهم المعانى الداخلة فى مفهوم الإطار الإتصالى لعملية الإتصال الدائرة بينهما ومدى تأثيرها عليهما أولا ثم على رسائلهما ووسائلهما والغاية من اتصالهما ثانيا. وهما يتعلمان هذه المعانى بكل أبعادها وتأثيراتها من خلال ملاحظة كل منهما للأخر ومدى استجابته ، ومن خلال المحاولة والخطأ. وكلما كان الطرفان اكثر فهما لهذه المعانى ، كلما كان اتصالهما ناجحا وفعالا.

ولاشك أن ثقافة المجتمع الذى ينتمى اليه الطرفان لها دورها فى تشكيل المعانى التى يستهدفها الإطار الإتصالى أو الموقفى ولذلك ، فإن هذه المعانى تختلف فى مضمونها وتأثيراتها من مجتمع لآخر بحسب اختلاف ثقافة كل مجتمع عن الآخر. وامتلاك القدرة على فهم هذه المعانى يسهم فى تفسير الرسائل المتبادلة بين أطراف الإتصال.

٢ - المصدر والمستقبل:

كان فى الإمكان أن يشكل هذان الطرفان عنصرين مستقلين ، لولا أن عملية الإتصال تفرض على كل منهما أن يحتل مكانة الآخر خلال تفاعلهما معا. فالمصدر لايظل هكذا طوال عملية الإتصال ، لكنه يتحول فى مرحلة تالية إلى مستقبل ، والمستقبل يتحول إلى مصدر ، ويظلان يتبادلان مواقعهما طوال عملية الإتصال ، وإلى أن تتحقق الغاية منها.

وبالتالى ، فإنه عندما يدخل فرد فى عملية اتصال مع أخر ، يكون كل منهما مصدرا أو مرسلا ومستقبلا فى نفس الوقت. فالمصدر يتكلم والمستقبل يستمع. ثم

يتكلم المستقبل فيصبح مرسلا او مصدرا ، ويستمع المصدر أو المرسل فيصبح مستقبلا ، وهكذا. بل ان المصدر يكون مستقبلا فى وقت واحد ، عندما يتكلم ويسمع مايقول وهو يتوجه بكلامه إلى الطرف الآخر. وقبل أن يستمع إلى رده على مايقول. وبذلك ، يكون المصدر أو المرسل والمستقبل عنصرا ثانيا فى أية عملية اتصال.

ويكون على المصدر أو المرسل والمستقبل أن يقوما بعملية مزدوجة فى وقت واحد خلال عملية الإتصال بينهما. إنهما يقومان بترميز رسالتهما وفك رموزها. فالمصدر عندما يرسل رسالة ، فإنه يصيغها فى قالب رمزى يفهمه المستقبل من خلال مايقوم به من فك رموز الرسالة الموجهة اليه ، ثم يقوم هو بترميز رده كرسالة موجهة إلى الطرف الأول ليقوم بدوره بفهمها وفك رموزها ، استعدادا لترميز رسالته القادمة ، وهكذا. وهذه العملية المزدوجة يطلق عليها المصطلح

Sourse - Receiver Encoding - Decoding

٣- الرسائل والقنوات:

يتبادل القائمون بالإتصال رسائل عديدة داخل قوالب عديدة ، ويستخدمون فى نقلها بينهم قنوات ورسائل اتصال عديدة أيضا. ونادرا ما تعتمد عملية الإتصال على وسيلة واحدة ، ودائما تتعدد هذه الوسائل وتتنوع. فمثلا ، خلال الإتصال الشخصى المواجه بين فردين ، نجد أنهما يتكلمان ويستمعان فيستخدمان وسيلة لفظية ، ويتبادلان التلميحات والإشارات فيستخدمان وسيلة غير لفظية ، وهكذا.

أما الرسائل فهى كثيرة ، ولكن أهم أنواعها مايسمى بردود الأفعال Feedback والتمهيد أو التقديم Feedforward. ويقصد بردود الأفعال تلك الرسائل التى تنتقل من المستقبل إلى المرسل أو المصدر ردا على رسائله إلى المستقبل. وهنا يتوفر للمرسل أو المصدر تقويما لرسالته وتأكيدا على مدى فهمها ، وبالتالى يستطيع أن يستمر أو يغير ويعدل فيما يقول وفى كيفية مايقول ، ليصل إلى الفهم المشترك مع الطرف الأخر. وردود الأفعال قد تأتى مواتية أو متأخرة ،

وقد تأتى بطيئة أو سريعة، وقد تأتى معارضة أو مؤيدة. وقد يتداخل نوعان منها أو ثلاثة ، فتأتى مركبة وهكذا.

أما الرسائل الممهدة أو المقدمة للرسائل الأساسية ، فهى قد تأتى للفت النظر إلى الرسائل الأساسية أو للإشارة إلى مضمونها أو للتلميح إلى مغزاها أو لإعداد المستقبل لتلقيها ، وهكذا. والأمثلة عليها كثيرة ، كصفحة الفهرس فى الكتاب أو الفقرة الأولى فى أحد الفصول أو غلاف المجلة أو التقديم لخطبة عامة.

٤- التشويش:

لاتخلو عملية اتصال بين طرفين من دخول عنصر التشويش الذى يفسد الرسالة ويقلل من تأثيرها ، لأنه يعنى أن الرسالة التى ترسل تختلف عن الرسالة التى تستقبل. وقد يكون التشويش ماديا كالجلبة التى يحدثها الأخرون الموجودون معك فى مكان ما وأنت تتكلم إلى صديق. وقد يكون التشويش نفسيا ، كالأفكار المتداخلة فى ادراكك وأنت تتحدث فى موضوع معين بعيد عنها وقد يكون فى معانى الكلمات المستخدمة وناتج عن سوء فهمها.

والتشويش يعتبر عنصرا أساسيا فى كل عملية اتصال رغم تأثيره السلبى عليها. وما يمكن عمله هو التقليل من آثاره فقط. فمثلا ، إذا استطاع القائمون بالإتصال استخدام اسلوب دقيق لصياغة رسائلهم واستعمال وسائل غير لفظية بمهارة ، وتحسين قدراتهم على السمع لنقل ردود أفعال سليمة ، فإنهم يستطيعون بذلك أن يقللوا من التشويش والتخفيف من آثاره.

٥- التأثيرات الناتجة عن عملية الإتصال:

لكل عملية اتصال دوافعها ولها مقاصدها ، وبالتالى لها آثارها ونتائجها ، وهى القدر الذى يتحقق من دوافعها ومقاصدها. فقد ينتج عنها زيادة المعرفة عند القائمين بها ، أو زيادة القدرة على الحكم على الأشياء وتقويمها ، وهذه أثار ذهنية أو معرفية. أو قد ينتج عنها تغير فى الإتجاهات أو العواطف أو المشاعر ، وهذه أثار وجدانية. وقد ينتج عنها تعلم لعبة جديدة أو اكتساب مهارة جديدة ، وهذه آثار سلوكية نفسية.

تلك خمسة عناصر أساسية داخلة فى تشكيل عملية اتصال بسيطة ، لبساطة العناصر ذاتها. ولكنها لاتمثل كل الحالات أو المستويات التى تمثل تطبيقات لها فى الحياة الإجتماعية. فليست كل عمليات الإتصال تحدث بين شخصين فقط أو تستعمل عددا من الرسائل المحدودة أو الوسائل المحدودة مثلا. ولكن الظروف المعقدة للإتصال تفرض تعقد مركباته ومكوناته ، ليستطيع أن يحقق أغراضه كاملة فى الحياة الإجتماعية.

ويكون علينا الأن أن نبسط عملية الإتصال لنتعرف على الكيفية التى تتفاعل بها عناصرها لكى تحقق دوافعها ومقاصدها. ويفترض التبسيط هنا نقطة نبدأ منها وصفنا لهذه الدينامية وحركة عناصرها ، ولتكن هذه النقطة داخل ادراك المصدر الذى يبدأ عملية الإتصال مع طرف آخر يستهدفه ، وحيث تبدأ الرسالة التى يريدها المصدر محورا لهذا الإتصال.

ويحدد الباحثون لعملية الإتصال أربعة مراحل تمر بها. وتسمى المرحلة الأولى بمرحلة الإدراك عند المصدر Perception Stage والتى يختار خلالها من بين مجموعة المتغيرات المطروحة أمامه عددا من الأفكار والمشاعر التى يريد أن تحملها رسالته. وتسمى المرحلة الثانية بمراحلة الترميز Coding Stage والتى تأخذ الرسالة خلالها شكلها المادى وتتحول إلى مثير مادى إلى المستقبل عبر وسيلة يختارها المصدر. أما المرحلة الثالثة فيطلقون عليها مرحلة حل الرموز Encoding Stage وهى المرحلة التى تتم داخل إدراك المستقبل ، حيث يحول المستقبل المثير المادى الذى وصل اليه الى صيغ ذات معنى معترف به. وأما المراحلة الرابعة ، فهى تسمى بمرحلة التقويم Evaluation Stage والتى يقاوم خلالها المستقبل التناقضات التى قد تحدث داخل ادراكه بين ماتحمله الرسالة وما كان يعتقده من أفكار ومشاعر.

ويضاف إلى هذه المراحل الأربع عدد من المدخلات التى تؤثر على فكرة الرسالة داخل ادراك المصدر. كما يضاف اليها عدد من المخرجات التى تؤثر على مواجهة المستقبل للرسالة. وتتمثل المدخلات عند المصدر فى تجاربه وقيمه

وعقائده واتجاهاته وسلوكه الإتصالى. وتتمثل المخرجات عند المستقبل فى نفس نوعية المدخلات عند الصدر ، ويضاف عليها عند الطرفين المتغيرات الخاصة بالإطار الموقفى أو الإتصالى الذى يجمع بينهما خلال عملية الإتصال.

ولاتقف عملية الإتصال بين الطرفين عند نهاية هذه المراحل الأربع ، ولكنها تتكرر بين الطرفين ، بادئة تكرارها التالى من المستقبل ، ولتمر بنفس المراحل حتى تنتهى إلى المصدر وليعيد الكرة مرة أخرى. وهكذا. ويطلق على هذا التكرار بين الطرفين مصطلح الوظائف التوجيهية التى يقوم بها كل من المصدر والمستقبل خلال عملية الإتصال بينهما. وهى تعنى أن الطرفين يتحكمان فى عملية الإتصال بينهما.

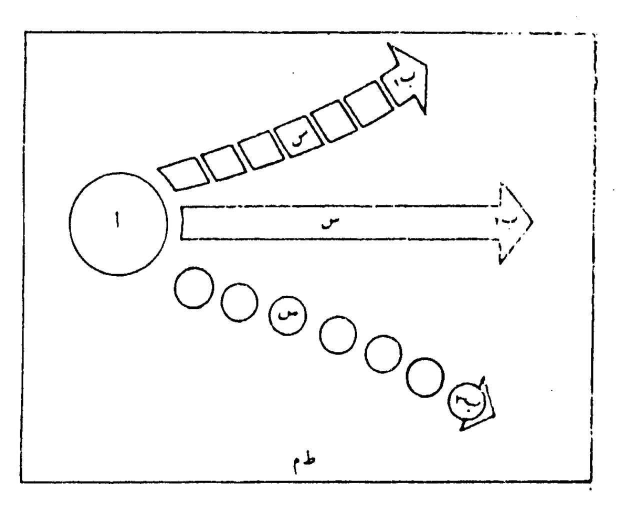
وهناك إحتمالات كثيرة لتعرض الرسالة خلال مرحلة الترميز وفك الرموز Coding - Encoding التى يقوم بها كل من المصدر والمستقبل إلى التشويش الذى يؤدى إلى احداث تشويهات تؤثر على كيفية صياغتها ، فتأتى غير ملائمة للغاية منها ، مما يؤثر سلبا على النتائج التى قد تحققها عملية الإتصال بينهما.

ب - الإتصال كعملية إجتماعية معقدة:

قلنا أن عملية الإتصال توصف بأنها عملية اجتماعية معقدة لتعدد العناصر الداخلة فى تشكيلها وتفاعلها ، كأن يكون المصدر مكونا من شخصين أو أكثر ، أو أن تكون هناك أكثر من رسالة وأكثر من مستقبل ، أو عندما تكون الوسائل التى يستخدمها المصدر والمستقبل معقدة وغير مباشرة كالجريدة والراديو و التليفزيون والكتاب وصحيفة الإستقصاء وبحوث المستمعين والمشاهدين والقراء ، وما إلى ذلك. أو دخول أكثر من معنى فى الإطار الموقفى أو الإتصالى لعملية الإتصال [انظر الشكل التوضيحى رقم ٢ / أ ، ب ، حـ ، د ، هـ ، و].

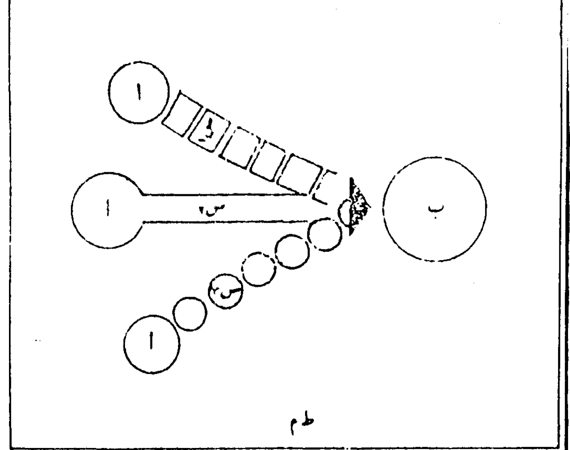


يلاحظ ما يأتي :
الرمز (أ) يمثل المصدر .
الرمز (ب) يمثل المستقبل .
الرمز (س) يمثل الرسالة
الرمز (ق) يمثل قناة الاتصال
الرمز (وغ) وسيلة اتصال غير مباشرة .
الرمز (ط م) الاطار الموقفي

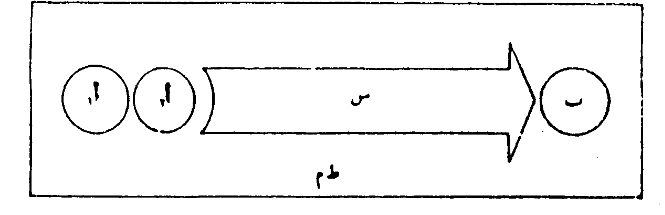


(أ) مستقبلان أو أكثر .

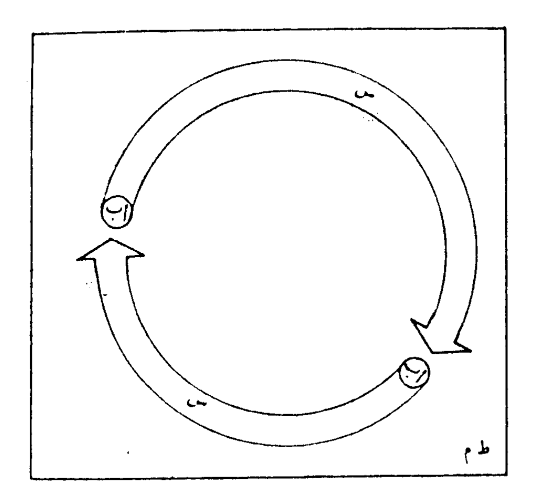
شكل رقم (٢)
يوضح ستة رسوم توضيحية لعملية اتصال معقدة في عناصرها
[أ ، ب ، جـ ، د ، هـ ، و]



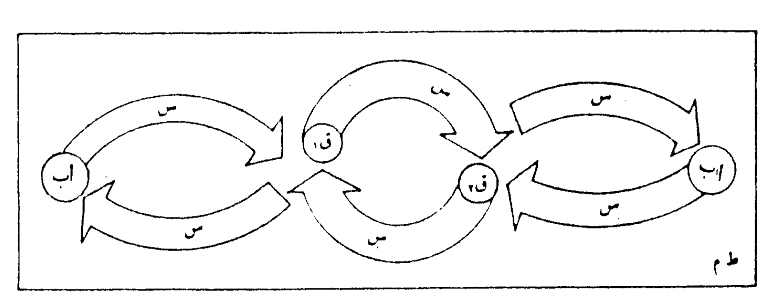
(ب) رسالتان أو أكثر .



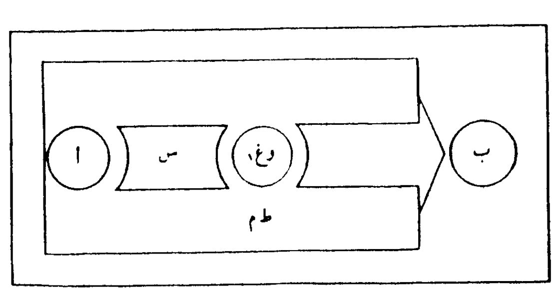
(جـ) مصدران أو أكثر .



(د) التأثير المتبادل .



(هـ) التأثير المتبادل عبر قنوات الاتصال .



(و) استعمال وسائل اتصال غير مباشرة .

ويلاحظ هنا أن استخدام رسم توضيحى مبسط لتحليل عملية اتصال معقدة لا يمكن أن يعبر عن حقيقتها مهما تعددت أشكاله المعبرة عنها. ذلك ، لأن الرسوم التوضيحية المبسطة تقوم على التبسيط الشديد والتجريد. وهاتان الصفتان تضعان حدودا كبيرة أمام إمكانية استخدام الرسوم التوضيحية المبسطة للتعبير عن عمليات معقدة. ثم أن هناك صفات أخرى قد تضاف إلى عملية الإتصال المعقدة. فالؤتمر الصحفى عبر شاشات التليفزيون خلال حملة انتخابية سياسية ، عملية اتصال معقدة لدخول عوامل أخرى بالإضافة إلى تلك العوامل التى أشرنا اليها عند تعريفنا لصفة التعقيد التى تتصف بها عملية الإتصال غالبا ، كالتعصف والتحيز والمناخ النفسى المتأزم للرأى العام ، وماشابه ذلك.

وما يحدث خلال عملية الإتصال البسيطة يصلح نقطة بداية لفهم مايحدث خلال عملية الإتصال المعقدة فالمراحل التى يمر بها الإتصال تكاد ان تكون واحدة ، وما يجرى داخل كل مرحلة يكاد أن يتشابه فى جميع الحالات. غير أن التعقيد هنا يضيف إلى عمليات الإتصال صعوبة أكبر . فالإطار الموقفى أو الإتصالى قد يحتشد بكثير من المعانى المتداخلة والمؤثرة ، كما يحدث فى المؤسسات والمنظمات المختلفة ، والمستقبل لايكون من السهل تكيفه مع عملية الإتصال لتعدد مواقفه بتعدد اعداده. وتعدد المصدر يعرض الرسالة إلى أكثر من محاولة لصياغتها ، وقد يكون هذا أحد عوامل قوتها أو أحد عوامل ضعفها. وإذا كان الإتصال شخصيا مواجهيا ، فإن الرسائل لاتعد مسبقا ، وهذا يتطلب من أطراف الإتصال توفر القدرة على الإتصال والتكيف مع استجابات الآخرين ، ثم إن استخدام وسائل الإتصال الجاهيرية غير المباشرة ، يفقد المصدر ميزة الحصول على ردود فعل مباشرة ، وهذا الوضع يفرض عليه مزيدا من الإعداد الجيد للرسالة والتقدير الجيد للإطار الموقفى والإتصالى والمستقبلين لرسائله ، وهكذا.

ولاشك أن إنتقال الإتصال من البساطة إلى التعقيد ، يعنى أن هذه العملية تتعدد **مستوياتها بتعدد العناصر المشكلة لديناميتها ، فكلما إتجهت هذه العملية إلى بساطة العناصر وقلة تعددها كلما إتجهت إلى التبسيط ، وكلما إتجهت هذه العملية إلى تعدد**

عناصرها وتداخلها كلما إتجهت إلى التعقيد ، وبين هاتين الحالتين درجات من التبسيط والتعقيد. وهذه الحقيقة يمكن إستنتاجها بسهولة من تحليلنا لعناصر عملية الإتصال.

وفى رأينا أن صفتى التبسيط والتعقيد نسبيتان تماما ، ولاتنفيان عن هذه العملية الإجتماعية أنها مركب نفسى وإجتماعى لاتسهل النظرة إليه بهذه الكيفية التجريدية الكاملة والتى نتجت صفتا التبسيط والتعقيد عنها ، والواقع يؤكد ، بما لا يقبل الجدل ، أن التجريد هنا يخدم أهدافا دراسية ولكنه لايخدم أهدافا واقعية. ومن ثم ، ينبغى قبول ما إنتهينا إليه من توصيف لدينامية الإتصال داخل إطار محدد لا يتسع لأكثر من الهدف الذى وضع من أجله ، وهو تبسيط التحليل لأغراض دراسية

الأنواع الرئيسية للإتصال:

يتجه بعض الباحثين إلى التوسع فى أنواع الإتصال لتشمل جوانبا وأبعادا متعددة ، بحيث لايسهل السيطرة عليها أو الاحاطة الكاملة بها. فمثلا ، يقسمون الإتصال إلى إتصال فعال وغير فعال ، واتصال مركز وغير مركز ، وإتصال موضوعى وغير موضوعى ، وإتصال إعلامى وأخر موضوعى ، وإتصال مباشر وغير مباشر ، وماشابه ذلك من الصفات وأضدادها. وهذه نظرة واسعة لاتكاد تنتهى إلى أنواع يمكن حصرها.

وهناك من الباحثين يرى ضرورة التركيز على الأنواع الرئيسية ، و لكنه يخلط بينها وبين الأشكال الأساسية للإتصال ، حيث أن الإتصال يمكن تقسيمه إلى إتصال لفظى وآخر غير لفظى ، واتصاللا ذاتى وآخر شخصى وإتصال جماعى وآخر جماهيرى [١].

ولكننا نرى أن التركيز هنا ينبغى أن يقتصر على نوعين رئيسين ، هما: الإتصال اللفظى والإتصال غير اللفظى ، وماعداهما أشكال أساسية للإتصال ، وليست أنواعا رئيسية له ، خاصة وأن هذا التقسيم يقوم أساسا على الرسالة

---

(١) Merrill , J. & Others. Op. Cit. P.5.

وصياغتها ، وهى جوهر عملية الإتصال وغايتها ولسوف نتناول كل منهما بشئ من التوضيح ، فيما يلى:

أ - الإتصال اللفظى:

عندما نتكلم أو نكتب ، فإننا نستخدم مفردات اللغة. والإتصال الذى يستخدم اللغة فى صياغة رسائله والتعبير عنها ، يسمى بالإتصال اللفظى. واللغة المقصودة هنا هى اللغة الشائعة فى مجتمع معين ، ويستخدمها أفراده وجماعاته. وهم يتعلمونها بين أسرهم وفى المدارس والجامعات وينمونها باستخداماتهم المختلفة.

وفى الإتصال اللفظى يكون للمعانى أهمية بالغة ، كما فى أى نوع آخر من أنواع الإتصال. ذلك لأن الإتصال ليس إلا تبادلا للمعانى. وهناك علم يهتم بمعانى الكلمات وتطورها يطلق عليه ،علم تطور معانى الكلمات ، أوعلم الدلالات

وتكمن صعوبات الإتصال اللفظى فى ألفاظه وكلماته. فهناك من الألفاظ والكلمات مايدل على أشياء مادية يمكن لمسها أو الإشارة إليها ، ومنها مايدل على أشياء معنوية غير ملموسة. وهناك كلمات أو ألفاظ تحمل أكثر من معنى وتشكل صعوبة فى الإتصال اللفظى إذا أسئ استخدامها من قبل المصدر أو المرسل أو المستقبل.

ففى اللغة العربية مثلا ، نجد كلمة "طامة" تستعمل أحيانا بمعنى الداهية أو المصيبة ويقال أحيانا أخرى: طم الماء أى غمر ، ويقال: طم فلان الإناء أى ملأه، ويقال كذلك: طم الشئ أى كثر حتى علا وغلب ولاشك أن استعمال هذه الكلمة يتطلب تحديد المعنى المقصود بها وقت الإتصال.

وهناك كلمات لاتحمل أكثر من معنى ومعناها واضح ، وهى أسماء الإعلام والجماد والنبات ، مثل على والقاهرة وكرسى وشجرة ، وما إلى ذلك من الكلمات ذات المعانى المحدده والواضحة فى أذهان الناس. ومع ذلك ، هناك كلمات تصف أشياء أو أفكارا أو مفاهيم مجردة ، مثل التعايش السلمى والحب والعدل ، وهى تحمل معان باختلاف السامعين أو القراء فى المواقف ، والتجارب الشخصية. وهى لذلك تخلق سوء فهم خطير فى الإتصال. ولتقليل الآثار الضارة لهذه المشكلة ،

يمكن الحد من استخدام الكلمات التى تصف معان مجردة ، واذا كانت هناك حاجة ماسة إلى إستعمالها ، فلابد من إستخدام شرح مبسط لها أو ضرب أمثلة بسيطة على ماتعنيه أو إستعمال الصور والرسوم التوضيحية.

وتحدد معانى الكلمات غالبا من الإطار الذى تستخدم فيه أو الوقت الذى تستعمل فيه ، وكذلك يحددها الموقف والظروف الخاصة والبيئة التى تستعمل فيها. وقد تستعمل نفس الكلمة فى موقفين ، فتحمل معنيين مختلفين تماما. ولكى يكون الإتصال أكثر وضوحا وإيجابية ، فإن ذلك يتطلب الإختيار الدقيق للكلمات التى تتفق مع الإطار العام الذى سوف يفهم المستعمل معناها داخله.

ثم أن هناك بعض الإفتراضات التى يضعها القائم بعملية الإتصال فى ذهنه ، ويجب أن تكون هذه الإفتراضات واضحة أمام المستمع ، إذا أريد أن يكون معنى الرسالة مفهوما. وأحيانا يفصح القائم بالإتصال عن هذه الإفتراضات ، ولكن فى أحيان أخرى لاتكون هذه الإفتراضات معروفة ، فتكون الرسالة غامضة.

ويضاف إلى ذلك ، مايوجد فى كل مهنة أو حرفة أو تجارة من مصطلحات فنية خاصة. وهذه المصلحات تعوق الإتصال اللفظى ، لأنها لاتكون معروفة أو مفهومة من قبل أولئك الذين لايعرفون شيئا عن هذه المهنه أو الحرفة أو التجارة أو تلك. وهذا أمر ينبغى أن يوضع فى الإعتبار.

ولكى يكون الإتصال اللفظى سليما ، ينبغى أن يختار القائمون بالإتصال الكلمات بعنايه شديدة ، وأن يستعملوا الكلمات البسيطه والشائعة الإستعمال. كما ينبغى أن يستعملوا الكلمات ذات المعانى المحددة ، وأن يتجنبوا بقدر الإمكان إستعمال الكلمات البسيطة والشائعة الإستعمال. كما أن يستعملوا الكلمات ذات المعانى المحددة ، وأن يتجنبوا بقدر الإمكان استعمال الكلمات ذات المعانى المجردة أو الكلمات الداخلة فى المصطلحات الخاصة بالمهنة أو الحرفة أو التجارة ، وإذا اضطروا إلى استعمالها ، فليكن ذلك مع الإستعانة بالصور والرسوم التوضيحية.

وكذلك ينبغى عليهم أن يستعملوا الكلمات داخل اطاراتها أو مواقفها التى تستعمل فيها عادة ، وأن يوضحوا افتراضاتهم أو مقاصدهم ، حتى يكون المعنى واضحا ، وليتأكدوا دائما أن المعنى الذى يقصدونه فهم جيدا.

ب - الإتصال غير اللفظى:

يقصد به ذلك النوع من الإتصال الذى يستخدم رموزا غير اللغة ، كالتصرفات والإشارات وتعبيرات الوجه والرسوم والصور ، وما إلى ذلك. وقد يكون استعمالها مساعدا للإتصال اللفظى أو مستقلا عنه. فالإشارات عندما تستعمل أثناء الكلام ، توضح المعنى المقصود ، وقد يكون بغيرها غير مفهوم أو قد يساء فهمه. واستعمال الوسائل السمعية والبصرية فى العمل والتعليم ونشر العقيدة الدينية أصبح أمرا معترفا بأهميتة وقوة أدائه للمعنى المقصود. وهذا مثال على الإستعمال المستقل للإتصال غير اللفظى.

ويلعب الإتصال غير اللفظى دورا هاما فى السلوك الإنسانى الإجتماعى. وقد أثبتت البحوث فى علم النفس الإجتماعى أن هذا الدور أكثر أهمية مما كان معروفا من قبل ، بحيث إذا أردنا أن نفهم السلوك الجتماعى للفرد ، كان علينا أن نفسر ما يقوم به من تعبيرات غير لفظية. وأثبتت هذه البحوث أيضا أن الحيوانات تقوم بتعبيرات غير لفظية شبيهة بما يقوم به الإنسان ، وخاصة تعبيرات الوجه وتلوين الصوت وتغيير لون البشرة وغيرها. وهذه النتائج تؤكد ما نلاحظه من التشابه بين البشر ، على اختلاف مجتمعاتهم وثقافتهم ، فى كثير من التعبيرات غير اللفظية. وهذا التشابه يجعلنا نتساءل عما إذا كانت هذه التعبيرات غير اللفظية تخضع لبناء منظم كما فى لغة الكلام؟ غير أن الإجابة على هذا التساؤل تدخل فى تخصصات علمية كثيرة ، ولاتقتصر على علم النفس الإجتماعى ، مما يجعلها بعيدة المنال فى الوقت الحاضر على الأقل [١].

ووسائل الإتصال غير اللفظى كثيرة ومتنوعة. فالتصرفات وهى من وسائل الإتصال غير اللفظى ، أحيانا تكون أكثر فعالية من الكلمات. فمثلا ، تصافح الأيدى

---

(١) Argule , M.Boedily Communication. London: Methueu Co. , 1975. Pp. 3 -5.

بحرارة ، والربت على الظهر بخفة من التصرفات التى تحمل معنى الحنان والعطف بأكثر من الكلمات التى يمكن أن نصوغها لأداء هذا المعنى ، وإنفراج الوجه بإبتسامة عريضة يحمل معنى الإخلاص والود ، وإشهار قبضة اليد والوجه العبوس وجحوظ العينين ، من التصرفات التى تحمل معنى الغضب بأكثر مما تحمله بضع كلمات مكتوبة أو مسموعة. والفشل فى تصرف ما يعتبر إتصالا غير لفظى يؤدى معنى معينا. فعندما لاتعطى شركة ما لأحد موظفيها حقه فى الترقية أو العلاوة فإن هذا يحمل إليه معنى معينا.

واستعمال الوسائل غير الحركية فى الإتصال غير اللفظى كالصور ، يعتبر من أقدم الوسائل وأكثرها فعالية. وهناك مثل صينى يقول مامعناه: " رب صورة تغنى عن ألف كلمة". والمعانى التى تعبر عنها الصور تعيش أكثر من المعانى التى تحملها الكلمات. كما أنها تعبر عن معانيها بأسرع من الكلمات. فالمعنى الذى يمكن أن يفهم من الصورة فى بضع ثوان ، يمكن أن يستغرق فهمه دقائق كثيرة من كلمات تعبر عنه. والصور تحمل معانى الحقيقة والصدق ، ويمكن تصديقها بدرجة أكبر من الكلمات ، كما أنها تلفت النظر إليها أكثر.

وهناك إتصال غير لفظى بإستعمال حاسة اللمس. ويقدر العلماء أنه يوجدأكثر من خمسة آلاف عصب حساس تتركز فى كل بوصة من طرف كل أصبع ، لإستقبال الرسائل الحسية ونقلها بسرعة البرق إلى المخ. وهناك أيضا اتصال غير لفظى باستعمال حاسة الشم ، وفى هذه الحالة يمكن الإقناع بنوع من العطور باستعمال حاسة الشم بدرجة أكبر من استعمال الكلمات. كما أن هناك اتصالا غير لفظى باستعمال حاسة التذوق.

ومعنى ذلك ، أن هناك خمسة منافذ لنقل المعانى خلال الإتصال غير اللفظى ، حيث تستعمل العين والأذن واليد والأنف والفم ، لنقل المعانى إلى الناس بشكل أسرع وأكثر تأثيراً ، وإن كان هناك بعض الناس يفهم باستعمال حاسة معينة أكثر من حاسة أخرى. فقد استعملت شركة أمريكية للتلفزيون والتلغراف طريقة برايل

فى طبع تقريرها السنوى لتوزيعه على عملائها من فاقدى البصر ، وهذه الطريقة تعتمد فى القراءة على الأصابع.

ويلاحظ هنا ، ما يحدث أحيانا لسوء الحظ ، فقد يصدر فرد ما إشارة معينة ، ولا نستطيع أن نفهم منها ما إذا كان يقصد معنى معينا وينتظر استجابة لها ، أم أنه لايقصد منها أى معنى لأنها صدرت منه بطريقة غير واعية؟! ومعيار الحكم على هذه الإشارة هو التأكد من أن هذا الشخص عدل من إشارته أو غيرها أو نوع فيها، لكى يحصل على الإستجابة التى يريدها. فإذا لم يحدث أى شئ من هذا ، فإنها لا تدخل ضمن تعبيرات الإتصال غير اللفظى ، هذا من ناحية المصدر أ. المرسل.

كما يلاحظ هنا فيما يتصل بالمستقبل ، أنه إذا لاحظ الإشارة التى قام بها المصدر أو المرسل وفهم مضمونها واستجاب هلا ، كان هذا مضمونا لعملية إتصال غير لفظى. أما إذا لم يلاحظ المستقبل هذه الإشارة ، أو أنه لم يفهمها ، أو أنه لم تحدث استجابة منه ردا عليها ، فإن هذه الإشارة لاتدخل ضمن الإتصال غير اللفظى.

ويستخدم الإتصال غير اللفظى فى حالات كثيرة. فقد يستخدم فى حالة نقص القالب الرمزى اللفظى فى أماكن معينة ، كما فى المعارض ، أو قد يستخدم فى المناطق البدائية التى لم تتطور فيها لغة الكلام ، أو فى حالات التعبير عن الشخصية كاللبس والسلوك والعلاقات الشخصية.

كما يستخدم الإتصال غير اللفظى عندما يكون أكثر قوة فى التعبير ، وخاصة فى المواقف الشخصية لأن الكلمات ليست صادقة دائما ، أو أنها لاتكفى أحيانا للتعبير عن هذه المواقف الشخصية ، أو عندما يكون التعبير بالألفاظ عن المواقف الشخصية محرجا أو مسببا للمتاعب. ولاشك أن استخدام الناس لنوعين من الإتصال يكون مفيدا جدا ، لأن هذا الإستخدام يكون أجدى وأنفع العلاقات الإنسانية الإجتماعية.

فنون الإتصال وتطبيقاتها:

هذا مجال ثان لتقسيم الإتصال من حيث مضمونه أو رسالته ، بعد أن نمثل المجال الأول فى تقسيمه إلى اتصال لفظى وغير لفظى ، كنوعين للإتصال يقومان على مضمونه أو رسالته أيضا. ثم إذا كان تقسيم الإتصال إلى نوعين ، يركز على صياغة الرسالة فى الإتصال الإنسانى ، وهى صياغة لغوية أو غير لغوية ، وهذه الصياغة تمثل الإنتاج المادى للرسالة ، فإن تقسيم الإتصال إلى فنونه وتطبيقاته يركز على المضمون الكائن داخل قوالب الصياغة ذاتها.

ورغم أن بعض الدراسات العلمية التقليدية تقسم الإتصال إلى أربعة فنون أساسية ، هى: النشر والإعلام والدعاية والتربية أو التثقيف ، إلا أن هناك فنونا تطبيقية ثلاثة تقوم على تكامل فنيين أو أكثر من هذه الفنون الأساسية ، وهى:

الدعوة والإعلان والعلاقات العامة ، بل أن هناك استخدامات عملية لهذه الفنون الأساسية والتطبيقية ، تقوم أيضا على التكامل بين الفنون الأساسية وتطبيقاتها. ونجد هذه التقسيمات جميعها أسبابا قوية للأخذ بها.

أ - الفنون الأساسية للإتصال:

إن وجود فنون أساسية للإتصال ليس معناه أنها فنون منفصلة أو تعمل مستقلة عن بعضها. فما حدث داخل المجتمعات المعاصرة وفيما بينها من تطورات وضغوط وصراعات يجعل هذا التصور ضعيفا. ويكون أقرب إلى الواقع أن تكون فنونا يستقل كل منها أحيانا بمجالات معينة ، وتتداخل أحيانا أخرى فى حالات أخرى. ثم أنه توجد مواصفات تجمع وتنظم بينها ، ومواصفات أخرى تفرق بينها بكيفية تعطى لكل منها استقلاله النسبى. وهذه الفنون الإتصالية الأساسية ، هى: النشر والإعلام والدعاية والتربية أو التثقيف.

ويقصد بالنشر Publicity الإبلاغ عن الأخبار والمعلومات الجديدة التى تهم جمهورا معينا فى مكان ووقت معين. ويشترط فى الأخبار والمعلومات الجديدة أن تتصل باهتمامات أكبر عدد من الناس. والنشر جانبان: أحدهما سئ والآخر حسن. وتتوقف هذه الصفة أو تلك على مضمون النشر وكيفية صياغته والتأثيرات

الناتجة عنه ، فإذا قصد به الإبلاغ الموضوعى بمعلومات واخبار جديدة داخلة فى دائرة الإهتمامات الواسعة لأكبر عدد من الناس ، وصف بأنه نشر حسن. وإذا حدث إنحياز أو تعصب أو توجه وجهة مقصودا بها إحداث تأثيرات معينة لخدمة مصالح معينة ، وصف بأنه نشر سئ لأنه حرم الجماهير من الإحاطة الشاملة والموضوعية بمضمونه ، والتى تحتاج إليها هذه الجماهير لمتابعة مايجرى فى بيئتها ومجتمعها وعالمها.

وأما الأعلام Information فإنه فن يستهدف التأثير على الأفراد والجماعات والمجتمعات من خلال الحوار العقلى الموضوعى المبنى على الحقائق والمعلومات الصحيحة التى تتسم بالحالية. ويوجه الى جماهير مستهدفة وموزعة على كل الأعمار. وهو يتعامل مع الإنسان على أنه عاقل ويعى مصلحته تماما.

واما الدعاية ، كفن من فنون الإتصال ، فإنها تستهدف التأثير على الأفراد والجماعات والمجتمعات بأبعاد خاصتى العقل والموضوعية ، والتركيز على العاطفة والذاتية. وهى تعتمد على المعلومات الكاذبة ، وجماهيرها المستهدفة من جميع الأعمار ، وهى تتعامل معها على أساس أن الإنسان كائن عاطفى ينساق وراء دوافعه وحاجاته الفسيولوجيه والنفسية والإجتماعية.

وإذا كان.كل من النشر والإعلام يتطلب وقتا طويلا ، لكى يحقق تأثيره المستهدف عن طريق الإبلاغ والحوار العقلى ، فإن الدعاية لاتضيع وقتا ، وإنما تصل إلىأهدافها من أقصر الطرق بالبعد عن التعامل مع العقل ، وتحييده أو شل فعاليته ، والتركيز مباشرة على العواطف والأحاسيس والإنفعالات والمشاعر ، وما يتصل بها من دوافع وحاجات.

وأما التربية أو التثقيف ، كفن من فنون الأتصال كذلك ، فإنها تعتمد كالإعلام على الحوار العقلى وتستخدم الحقائق والمعومات الصحيحة ، ولكنها حقائق ومعلومات تتصل بالتراث العلمى فى مجتمع معين أو فى زمن معين. وأطرافها المستهدفة من أعمار معينة تميل إلى فئات صغار السن عادة وهى تتعامل معها على أساس أن الإنسان كائن اجتماعى ، وأن تربيته وتثقيفه مطلب حيوى ، لكى

يستطيع أن يحقق التوافق مع الأخرين فى مجتمعه داخل اطار الحياة الإجتماعية المشتركة التى تجمع بينهم.

ويمكن القول هنا ، أنه إذا كانت الإستخدمات العلمية لهذه الفنون الأساسية الأربعة تفرق بالفعل بينها ، فإن هذه الصفات المميزة لكل منها يكون لها مغزاها ومدلولها ، ويكون لها أيضا مايبررها. لكن التفرقة النظرية شئ والواقع شئ اخر ذلك لأن الإستخدامات العملية لهذه الفنون لاتفرق بينها ، وإنما تخلط بينها ، وانما تخلط بينها لأغراض مقصودة. والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة ومتعددة.

فإذا نظرنا إلى ماتنشره أو تذيعه وسائل الإتصال الجماهيرية ، كالجرائد والمجلات والراديو والتليفزيون من أخبار ومعلومات وتعليقات ، لتبين لنا بوضوح مدى الخلط المتعمد بين النشر والإعلام والدعاية. فالكيفية التى يتم بها عرض الأخبار وتوزيعها واخراجها على صفحات الجرائد تؤكد بلاشك خروجها على الموضوعية وتوجيهها لأهداف خاصة.

وإذا نظرنا إلى المناهج الدراسية التى تدرس لجيلين مختلفين من طلبة المدارس ، لتبين لنا بوضوح الكيفية التى يلون بها كل حزب حاكم أو كل جماعة حاكمة الحقائق والمعلومات العلمية لخدمة أهداف خاصة. وتؤكد نتائج المقارنة بوضوح الخلط المتعمد والمقصود بين الدعاية والتربية أو التثقيف.

وفى دراسة نشرت حول الإعلام والدعاية والتعليم ، لم يكن الإتفاق كاملا حول التفرقة بين هذه الفنون الثلاثة ، رغم محاولات الباحث التأكيد على ذلك (١). فقد تبين من هذه الدراسة ان الإعلام نوع من المشاركة أو التفاعل بين طرفين أو جانبين ، هما المصدر أو المرسل والمستقبل ، بحيث لو تمت هذه العملية فى طرف واحد فقط لكان الإعلام فى هذه الحالة ناقصا ، وأصبح ضربا من ضروب الدعاية

---

(١) دكتور عبد اللطيف حمزه: " الإعلام والدعاية والتعليم ". المجلة المصرية للعلوم السياسية ، العدد ٢٣ بتاريخ أول فبراير سنة ١٩٦٣. ص ص: ٨٩ - ٩٧.

فهل نستطيع القول ، أن ماننشره أو نذيعه وسائل الإتصال الجماهيرية يحقق التقاء الطرفين ، فضلا عن توخيها الموضوعية فيما تنشر؟

وتبين أيضا من هذه الدراسة المشار اليها أن الدعاية محاولة للتأثير على عقول الناس ونفوسهم والسيطرة على سلوكهم لأغراض مشكوك فيها. وذلك فى مجتمع معين وزمان معين. وأن الدعاية نوع من الإستهواء ، وهى تهدف إلى تجريد الشخص من شخصيته ، وضمه إلى قضية ليست من الوضوح بحيث تفرض نفسها عليه. وللدعاية أشكالها السياسية والتجارية والإجتماعية والدينية.

وكذلك تبين من هذه الدراسة ، أن فن التعليم أو التربية يهدف إلى نقل تراث الأمة الإجتماعى من جيل إلى جيل. كما يهدف إلى تكوين شخصية الفرد وعقليته وخقه وذوقه. ومع ذلك ، لايمكن أن نتجاهل مانفرضه كل دولة وكل جماعة انسانية على أبناء المستقبل تتصف بالتحيز ، وربما كانت متعارضة مع معلومات الجيل الماضى. ولذلك من المستحيل وضع حواجز بين التعليم والدعاية.

وهناك أمثلة وشواهد كثيرة ومتعددة ، وكلها تؤكد على اختفاء الفروق بين الفنون الأساسية للإتصال بدرجة عالية. وهى تؤكد على أن الأتصال الإنسانى بكل فنونه يتعامل مع الإنسان من زاوية تكامل العقل والعاطفة معا ، وهما خاصتان متكاملتان فى تكوينه.

ب - الفنون التطبيقية للإتصال:

يقصد بالفنون التطبيقية للإتصال ، تلك الفنون التى يقوم كل منها على تكامل فنيين أو أكثر من الفنون الأساسية للإتصال عند استخدامها. وقد تبين أن أهمها ثلاثة فنون ، لكل منها مجالها واستخداماتها ، ولكل منها أسسها ومناهجها وأساليبها ، وهى: الدعوة والإعلان والعلاقات العامة.

والدعوة مستمدة من الفعل دعا ، وفاعلها داعية وجمعه دعاة. وهى تستخدم فى مجالات كثيرة كالمجالات السياسية والفكرية والدينية ، وما إلى ذلك ، وإن كان أبرزها مجال الدعوة الدينية. وهى تعتمد كفن تطبيقى على تكامل الفنون الأساسية الأربعة للإتصال جميعها ، باستثناء الدعاية التى ينبغى أن يرد معناها إلى أصولها

الصحيحة ، حيث تعتمد فى تأثيرها على العاطفة وتستخدم معلومات وحقائق صحيحة ، أما الإستخدامات الحديثة لها فهى تستخدم معلومات غير صحيحة وملفقة وكاذبة ، لإختصار الطريق والسرعة فى التأثير .

وهذا الإستثناء يكون له مايبرره عندما تستخدم الدعوة فى مجال دينى يعتمد على أسس وأصول ثابته وصحيحة ، كالدين الإسلامى مثلا ، ولايكون لـه مايبرره إذا حدث العكس وكان المجال الدينى تشوبه الشوائب ، كالأديان غير المنزلة والتى لاتجد لها سندا فى عقل أو عاطفة ، والأمثلة عليها كثيرة فى الأديان المنتشرة فى الهند .

أما الإعلان ، كفن تطبيقى ثان للإتصال ، فيلاحظ أن لـه بالإنجليزية مصطلحان ، أحدهما يطلق عليه Advertisement وهو النص الإعلانى أو الرسالة الإعلانية ، وثانيهما يطلق عليه Advertising ويقصد بـه العملية الإعلانية المعقدة التى تنتهى إلى النص الإعلانى الذى يقرأه القراء ويستمع اليه المستمعون ويراه المشاهدون.

وتعرف هذه العملية الإعلانية ، بأنها اتصال غير شخصى مدفوع ، تستخدم فيه الشركات ومؤسسات الخدمات والأشخاص كل وسائل بأنواعها ، من أجل اعلام أو اقناع جمهور معين أو جماهير معينة برسالة معينة حول سلعة معينة أو فكرة معينة أو خدمة معينة[١].

ومن الواضح أننا عندما نستخدم كلمة الإعلان فى اللغة العربية ، نقصد بها هذين المصطلحين معا لأن العملية الإعلانية تؤدى إلى النص الإعلانى ، والنص الإعلانى يؤكد على وجود عملية اعلانية كاملة انتهت به إلى هذا الشكل الذى نراه أو نسمعه أو نقرأه. ولا وجود لأحدهما بدون وجود الآخر. فالتكامل بين المصطلحين قائم كالتكامل بين وجهى العملة تماماً.

---

(١) Dunn , W.& Barban, A. Advertising: Its Role In Modern Marketing New York: Dryden Press,Press, 5th edition . 1982. P.7.

والإعلان جزء من مجموعة أنشطة يضمها حقل كبير يعرف بالتسويق Marketing. ولاتفهم الكيفية التى يعمل بها الإعلان إلا من داخل اطار التسويق الذى يضمه مع الأنشطة الأخرى فى كل متكامل ومتفاعل وهادف. والتسويق ، كمصطلح اقتصادى ، يشمل كل الأنشطة التى تسهم فى انسياب السلعة أو الخدمة ابتداء من الإنتاج أو الإستهلاك. وأهم هذه الأنشطه السعار والتعبئة والبيع الشخصى كامعارض وانشطة الترويج بما فيها النشر والإعلان ، على أساس أن الأعلان يستهدف زيادة المبيعات. ولاتتضح أهمية التسويق إلا فى المجتمعات التى تزيد فيها السلع أو الخدمات المنتجة عن حاجة الإستهلاك.

والإعلان من الفنون التطبيقية للإتصال ، لأنه يحمل الأفكار والحقائق والتأثيرات المختلفة حول السلع والخدمات والأفكار من المعلن إلى المستهلك. ويستهدف التأثير على جمهور معين أو جماهير معينة. ومن أجل أن يحقق ذلك ، يقوم على عملية اتصال معقدة ، تستخدم فيها الفنون الأساسية للإتصال ، وهى الإعلام والنشر والدعاية والتعليم ، فى تكامل بينها العوامل النفسية والإجتماعية والمادية التى تقوم عليها ، وتستخدم فيها عناصر كثيرة ومعقدة كالكلمات والصور والألوان والمؤثرات الصوتية والإيحاءات والحركات. وتحقق العملية الإتصالية للإعلان أهدافها بكفاءة أكبر عندما تدعمها فنون أساسية أخرى ، سواء كانت فنون أساسية أو تطبيقية.

وأما العلاقات العامة ، كفن اتصالى تطبيقى ، فإن كل تعريفاتها تنطلق من حقيقة هامة ، وهى أن كل فعل تمارسه المنظمات أو المؤسسات ، وكل قول يصدر عنها ، ماهو إلا عملية اتصال يمكن أن تؤثر على الكيفيية التى تراها بها جماهيرها وبالتالى ، يمكن أن تؤثر على سمعتها ، وبالتالى أيضا يمكن أن تؤدى إلى سلبيات أو إيجابيات بين جماهيرها ، قد تعرقل أدائها لوظيفتها فى المجتمع أو تساعدها على تادية وظيفتها بكفاءة وفعالية.

وعلى أساس هذه الحقيقة ، تأتى العلاقات العامة كفن اتصالى تطبيقى ، لكى تتصل كل منظمة أو مؤسسة عن طريقها مع كل جماهيرها ، سواء منها من يعمل داخلها أو يتعامل معها من خارجها. فعن طريق العلاقات العامة وأساليبها تتحدث المنظمة أو المؤسسة إلى الجماهير المرتبطة بها وتشرح لها خططها وسياستها ، والكيفية التى تضار بها ، والكيفية التى تتعامل بها ، ونوعية سلعها وخدماتها ، والكيفية التى ترى بها الأمور المؤثرة على مصالحها ومصالح مجتمعها.

وعلى أساس هذه الحقيقة أيضا ، تأتى العلاقات العامة كفن اتصالى تطبيقى ، لكى تتيح للجماهير الإتصال بالمنظمات أو المؤسسات التى ترتبط بها وتتعامل معها. فعن طريق العلاقات العامة وأساليبها ، يتم تحليل الجماهير وأرائها والتعرف على إيجابياتها وسلبياتها ، ونقل النتائج إلى الإدارة العليا لتضعها فى حساباتها وهى تخطط وتنفذ سياسة معينة أو تصدر قرارا معينا. فالمصالح التى تعبر عنها الجماهير عن طريق العلاقات العامة ، ينبغى أن تحسن الإدارة العليا تقديرها وأن تعمل على تحقيقها.

وعلى أساس هذه الحقيقة كذلك ، لاتكون العلاقات العامة كفن اتصالى تطبيقى متخصص ، مجرد ناقل لإتجاهات الإدارة العليا ، وانما هى أيضا تحرص على أن تكون الأفعال وأنماط السلوك وغيرها من العناصر المشكلة للواقع ، سواء بالنسبة للمنظمات أو المؤسسات أو بالنسبة لجماهيرها العاملة فيها والمتعاملة معها ، سليمة ومتوافقة مع الكيفية التى يتطلبها تحقيق المصالح المشتركة للطرفين معا.

ولذلك فهى تستخدم التكامل بين الفنون الأساسية للإتصال ، وهى النشر والإعلام والدعاية والتعليم أو التربية ، من أجل إقناع الطرفين بالكيفية التى تتحقق بها مصالحها المشتركة ، وبالكيفية التى تدعم بها العلاقات بين الطرفين داخل اطارمناخ نفسى واجتماعى ملائم وسليم. وينبغى أن يكون واضحا هنا ، أن التكامل بين الفنون الساسية للإتصال تكامل بين أصولها العلمية السليمة القائمة على المعلومات والحقائق السليمة الصحيحة ، طالما أن العلاقات العامة تستهدف غايات اجتماعية صحيحة وسليمة ، كما وضح من التعريف بها وبأساليبها.

الأشكال الأساسية للإتصال:

ليس هناك أيضا اتفاق بين الباحثين حول تقسيم موحد لأشكال الإتصال التى يطبق بها. فالأفراد والجماعات والمجتمعات تستخدم الإتصال بصفة مستمرة ولمرات عديدة خلال حياتها اليومية العادية ، ويمكن اعتبار كل منها شكلا أساسيا. فإذا نظرنا إلى المجتمعات ككل ، وجدنا أن الأفراد ينتظمون فى جماعات ، والجماعات تأخذ مسميات قنوية أو تنظيمية أو طبقية أو جنسية أو وظيفية ، وماشابه ذلك ، وتختلف الجماعات فى أحجامها. وكل هذه النوعيات تصلح أشكالا أساسية للإتصال.

غير أن هناك تقسيما لأشكال الإتصال الأساسية لاقى اهتماما من الباحثين. ويقوم هذا التقسيم على ثلاثة أشكال أساسية ، هى: الإتصال الشخصى أو المواجهى ، والإتصال الجماهيرى ، والإتصال المؤسسى. وهذا التقسيم يجد تبريرا مقبولا ، حيث يقوم على تجميع الأشكال المستخدمة فى الإتصال على أساس طبيعة كل منها وأهدافها. ومن ثم ، فهو يصلح أساسا للتحليل هنا.

أ – الإتصال الشخصى Interpersonal Communication

يقوم الإتصال الشخصى على التفاعل الشخصى Personal Interaction بين أطرافه. غير أن الخلاف لايزال قائما بين الباحثين حول مايقصد بالفعل بالتفاعل الشخصى كمصطلح علمى ، وكأساس يقوم عليه هذا الشكل من أشكال الإتصال[1].

وتبعا لذلك ، اتجهت الجهود العلمية إلى تعريف هذا الشكل من أشكال تطبيق الإتصال باستخدام صفات عامة ، بدلا من استخدام صفات بنائية محددة وقاطعة. وبهذه الصفات العامة ، أمكن تجميع السمات الرئيسية للإتصال الشخصى بالدرجة التى يمكن الإعتماد عليها لتحديد مايقصد بالفعل بهذا الشكل فى مواجهة الشكلين الأخرين الأساسين من أشكال الإتصال.

---

(١) Reardon. K. Persuasion: Theory and Context. London: Sage, 1981. P. 147.

فقد تبين أنه طالما أن هذا الشكل يوصف بالإتصال الشخصى المواجهى ، فإن تطبيقه يلتصق بالجماعات البسيطة أو الصغيرة Simple or Small Group التى تعتبر أصغر التجمعات البشرية داخل كل مجتمع وقد أثبتت الدراسات التجريبية أن كل جماعة من هذه الجماعات تبدأ بفردين ولاتتجاوز عشرين فردا. ويمثل الحد الأقصى أكبر عدد يسمح بتوفر الصفات الأساسية لهذه الجماعات ، وأهمها حدوث الإتصال المواجهى بين الأعضاء[1].

ويتطلب حدوث الإتصال الشخصى المواجهى بين أعضاء جماعة معينة منها ، أن تعمل ديناميته على أن يحدث التفاعل الشخصى بين أعضاء الجماعة. ولكى تعمل هذه الدينامية ينبغى أن يمتلك أطرافها الإحساس بحتمية الإتصال بينهم وضرورته. بمعنى أن تكون الحاجه إلى الإتصال مشتركة. ذلك لأن التاعل الشحصى نشاط اجتماعى يتطلب الفعل ورد الفعل والأخذ والعطاء. كما يتطلب الإهتمام المشترك والمستمر من جميع الأطراف وفى جميع الحالات ، لأن أيا منهم لايملك التحكم فى الظروف التى يحدث فيها التفاعل الشخصى بينهم. فإذا كان المصدر أو المرسل يتحكم فى رسالته ، فإن المستقبل لايتحكم فى سمعه لأسباب قد تعود اليه أو إلى المصدر أو المرسل أو هما معا.

ويشترط لحدوث الإتصال الشخصى المواجهى أن تكون الأطراف حاضرة فى مواجهة بعضها ، وأن يعرف كل طرف دوره كمرسل أو مستقبل للرسالة التى هى مضمون الإتصال ، لأن التفاعل الشخصى بين الأطراف يتطلب تكيفا حاليا وتوافقا مستمرا بينها بما يتناسب مع متطلباته. فالشخص المرسل لرسالة معينة يختار رموزها على أساس خبراته وقدراته الخاصة والعوامل الكامنة فى إدراكه ، والتى تتصل بالشخص الأخر لرسالته وللعلاقة التى تجمعهما معا وللبيئة التى تضمهما. كما أن الشخص المستقبل يبنى استجابته على معرفته بالمرسل وعلى خبراته الخاصة وأوجه التشابه بينهما ودافعه. لكن هذه الإستجابة قد تحمل معنى لايتوافق

---

(١) Acuff , F & Others Form Man To Society Hinsdale , Illinois: The Dryden Press , 1973 , PP 149-150

مع المعنى الذى يقصده المرسل ، ونادرا مايتوافق المعنيان. ومن هنا كانت محاولات الطرفين للتكيف والتوافق هامة وضرورية للتفاعل الشخصى بينهما[١] .

ومن المفيد أن نكرر هنا أن كلا من المرسل والمستقبل يعتمد على الآخر. ولذلك تتداخل أنماط سلوكهما بكيفية يصعب معها تحديد أيهما المرسل وأيهما المستقبل؟ ذلك لأن دينامية الإتصال الشخصى تعنى أنه إذا كان المرسل يترجم رسالته إلى رموز لفظية وغير لفظية ، فإن المستقبل يترجم استجابته أيضا إلى رموز لفظية وغير لفظية. وهذه الإستجابة تؤثر على الرسالة التالية للمرسل ، حيث يترجم هذا التأثير إلى رموز لفظية وغير لفظية ، إلى أن يحقق الإتصال الشخصى بينهما غايته.

ومن الواضح هنا ، أن الإعتماد المتبادل بين المرسل والمستقبل يقوم على السلوك الظاهرى وليس على النوايا أو العمليات النفسية داخل كل منهما. فإستجابة كل منهما للأخر تكون ظاهرة ومترجمة إلى رموز لفظية وغير لفظية وعلنية ، سواء كانت هذه العلانية مخالفة الباطن أم مطابقة له. ومع ذلك ، يمكن القول أن التفاعل الشخصى بين أطرافه يعتبر القنطرة التى تصل بينها ، وقدرة كل منها على التأثير على الآخر تكمن فى قدرته على ترجمة مابداخله إلى أنماط سلوكية معبرة من ناحية ، وعلى قدرته على توقع التأثير المحتمل أن يحدث داخل الآخر بعد وصول رسالته إليه وقبل أن يترجمها إلى رد فعل ظاهرى ، من ناحية أخرى.

ولذلك ، يتعرض التفاعل الشخصى لكثير من الأخطاء التى تقع فيها أطرافه. وسواء كان أحد الأطراف ينقل رسالته أو كان طرف أخر يترجم هذه الرسالة ويفسرها ، فإن هناك كثيرا من العوامل النفسية والثقافية التى تحول دون صياغة الرسالة والتعبير عنها وتفسيرها بكيفية دقيقة. ومن هذه المعوقات ما يسمى بأخطاء الإدراك والتصورات السابقة والحالة العاطفية. ومع ذلك ، يمكن أن تقلل من تأثير هذه العوامل المعوقة وتسهل تحقيق الإتصال لغايته.

---

[١] Patton, B. and Giffin, K. Interpersonal Communication In action. New York: Harper & Row , 2ed edition , 1977.P

ونضيف هنا ، أنه إذا كان لايمكن أن ننكر دخول بعض العوامل الخارجية إلى عمليات التفاعل الشخصى بين أعضاء جماعة ما ، إلا أنها تعتمد أساسا على عوامل ذاتية من داخل هذه الجماعة. وهذا يعنى أن تطور التفاعل الشخصى تدفعه عوامل ذاتية باكثر مما تدفعه عوامل خارجية. وهذا يتطلب التمييز بين أنماط السلوك الوافدة إلى الجماعة وأنماط السلوك التى تنبثق من داخل الجماعة ، إذا أردنا أن نصف هذا الشكل من أشكال الإتصال بأنه يعتمد أساسا على سلوك طبيعى نابع من الفطرة التى جبل عليها أعضاء الجماعة ، وليس على سلوك مفروض عليهم من خارجها. ومع ذلك لاتنفى هذه الصفة قوة تأثير العوامل الخارجية الناتجة عن الموقف الإجتماعى المحيط بالجماعة وأعضائها ، أو مايسمى بالإطار الإتصالى أو الموقفى كما عرفناه عند العناصر الأولية لدينامية الإتصال.

ولقد اعتبر الباحثون هذه الصفة التى تصف الإتصال الشخصى أو المواجهى بين أعضاء تحركهم عوامل داخلية أساسا من الصفات الهامة ، لدرجة أن باقى الصفات التى تميز هذا الشكل من أشكال الإتصال تنبثق منها وتعود اليها. فهذه الصفة تؤدى بأعضاء كل جماعة إلى أن يشتركوا معا فى أنماط سلوكية مشتركة ، وتدفعهم إلى أن يمدلوا من أنماط سلوكية معينة والتكيف بينهم بالكيفية التى تحقق مزيدا من التفاعل الشخصى. ومن هنا يمكن وصف أطراف الإتصال الشخصى بأنهم جميعهم قائمون بالإتصال مؤثرين ومتأثرين.

ب - الإتصال الجماهيرى MassCommunication

يقف الإتصال الجماهيرى ، بكل سماته المميزة ، كشكل رئيسى فى مواجهة الإتصال الشخصى أو المواجهى ، كشكل رئيسى آخر ، يمثل نوعية متباينة تماما مع نوعية الإتصال الجماهيرى. وهماك تعريفات عديدة وهامة للإتصال الجماهيرى حاولت التمييز بينه وبين أشكال الإتصال الأخرى[1]. وهى كلها تجمع على أن

---

(١) من أهم المراجع التى ذكرت هذه التعريفات الهامة مايلى:

- Janowitz, M. " The Study of Mass Communication ". International Encyclopedia of Social Sciences. New York: Macmillan and Frea Press , 1968. Vol.3.PP.41-53.
- Gamble , S.Mass Media and Mass Culture. N.Y.: McGraw Hill, 1989. P.9.
- Wilson , S.Mass Media and Mass culture. N.Y.: McGraw Hill, 1992.P.14.

الإتصــال الجمـاهيرى يعنـى تلـك المؤسسـات والتقنيـات التـى عـن طريقهـا تسـتخدم جماعـات مهنيــة متخصصــة وســائل تكنولوجيــة كــالجرائد والمجــلات والراديــو والتليفزيون والفيلم وغيرها. لنشر محتوى رمزى بين جماهير كبيرة العدد ومنتشرة وغير متجانسة.

ويلاحظ هنا أن وجود وسائل الإتصال الجماهيرى فى هذا التعريف ، لا يعنى أن دينامية الاتصال الجمـاهيرى ، كعمليـة إجتماعيـة ، مرادفـة فـى معناهـا لوسـائل الاتصال الجماهيلرى. بل أن وجود هذه الوسائل ذاتهـا لا يعنـى بـالضرورة حـدوث الاتصـال الجماهيرى كعملية اجتماعيـة. ولنضـرب مثـلاً توضيحيـاً ، فـإذا أذاع أحـد السياسيين خطابا قوميا بالتلفزيون ، فهـذه حالـة توصـف بأنهـا إتصـال جمـاهيرى ، بينما اذا وجه أحد المهندسـين شـرحاً لعمليـة فنيـه إلـى بعـض العـاملين فـى خطـوط الانتـاج باستخدام قنـاة تليفزيونيـة مغلقـة ، فهـذه الحالـة لاتوصـف بأنهـا اتصـال جماهيرى.

أن هذه الأمثلة وغيرها كثير فى الحياة اليومية. وهى تؤكد علـى أن الإتصـال الجماهيرى شكل من الإتصـال لـه سماته المميزة لـه. وهـى سمات تتصـل أساسـا بالعنـاصر المشـكلة لــه كعمليــة اجتماعيــة. وليسـت الوسـائل الجماهيريــة Mass Media الا أحد هذه العناصر ، ولكنها ليست هـى الصانعـة الوحيدة لهذه العمليـة الإجتماعيـة التـى نصفهـا بالإتصـال الجمـاهيرى. وتتنـوع هـذه السـمات الأساسـية للإتصال الجماهيرى على أربعة عنـاصر اساسـية تصنـع مـع الوسـائل الجماهيريـة عناصر الإتصال الجماهيرى كعملية اجتماعية. ومن الملاحظ هنا أن هذه العنـاصر تتكامل معا بكل سماتها المميزة لتوفر للإتصال الجماهيرى كل سماته المميزة له.

ويتصل العنصر الثانى بعد الوسائل الجماهيرية بطبيعة الجماهير ، حيث يوجـه الإتصال الجمـاهيرى إلـى جمـاهير كبـيرة العدد وغير متجانسـة ولامحـددة. وهـذه الصفات الثلاث للجماهير نسبية. فجماهير التليفزيون تعد بالملايين ، بينمـا جمـاهير الجريدة أو المجلة أو الكتاب أقل عددا. وبالتـالى ، فـإن كـبر العـدد صفـة نسبية ،

ولكن يشترط فيه عدم امكانية حدوث الإتصال المباشر بينه وبين القائم بالإتصال الجماهيرى.

وصفة عدم التجانس هنا أيضا نسبية. ذلك لأن الإتصال الجماهيرى يوجه إلى جماهير من الجنسين وتشغل مراكز اجتماعية متفاوتة داخل المجتمع الذى تنتمى اليه ، وتتوزع على أعمار متفاوته ومستوياتتعليمية متباينة وتنتشر فى مناطق جغرافية متعددة. ولذلك ، فهى جماهير غير متجانسة ن ولكن عدم التجانس هنا تتفاوت درجته ونوعيته وشدته.

ثم أن هذه الجماهير غير محددة ولامعروفة. فأفراد هذه الجماهير لايعرفها القائم بالإتصال. ولكن هذه الصفة لاتعنى أن هؤلاء الأفراد معزولون اجتماعيا. بل انه ثبت أن كثيرا من حالات التعرض للإتصال الجماهيرى تتم داخل مواقف اجتماعية تضم جماعات صغيرة. ثم إن كل عضو من أعضائها ينتمى إلى جماعات أولية وثانوية. وهذه الجماعات جميعها تملك التأثير على رد فعل كل عضو من أعضائها تجاه الرسالة التى يتضمنها الإتصال الجماهيرى. ومن ثم ، فإن هذه الصفة تتصل بالعلاقة بين الجماهير من ناحية والقائم بعملية الإتصال الجماهيرى من ناحية ثانية[١].

ويضيف دنيس مكوايل Denis McQuail بعض الجوانب الأخرى التى تزيد هذه الصفة الأخيرة وضوحا. فهو يرى أن الصفات التى تميز جماهير الإتصال الجماهيرى ماهى إلا انعكاس لطبيعة المجتمع الحديث. فهى مجموعات من الأفراد قد يوجد بينها تركيز مشترك على المصالح وأنماط متعارف عليها من السلوك واستعداد للعمل من أجل غايات مشتركة. ولكنهم مع ذلك غير معروفين لبعضهم البعض ، ولايحدث بينهم إلا قدر محدود من التفاعل ، كما انهم يفتقرون إلى التنظيم ويتعرضون للتغيير[٢].

---

(١) Wright , C. Mass Communication: A Sociological perspective. N.Y: Reandom House , 2 ed Edition, 1975. P.6.

(٢) McQuail , D.. Towards A Sociology of Mass Communication. London: Collier & Macmillan pub., 1969. PP. 9 - 10.

أما العنصر الثالث ، فإنه يتصل بطبيعة مضمون الإتصال الجماهيرى. فهذا المضمون يتصف بالعمومية والسرعة والوقتية. وهو مضمون عام لأنه ليس موجها إلى شخص معين ، وكل أعضاء جماهير الإتصال الجماهيرى يعرفون أن هناك من يشترك معهم فى التعرض للرسائل التى يتعرضون لها ، لأنها ليست رسائل خاصة وإنما هى رسائل عامة.

ومضمون الإتصال الجماهيرى يتصف بالسرعة ، لأنه يستهدف الوصول إلى عدد أكبر من الجماهير فى وقت قصير نسبيا أو فى الحال. كما يتصف بالوقتية ، لأنه يعد ليستهلك فى الحال ، وليس ليبقى مدة طويلة. ويستثنى من ذلك الكتب والإفلام التسجيلية للمكتبات وتسجيلات الفيديو. ولكن الوقتية هى الغالبة على مضمون الإتصال الجماهيرى بصفة عامة.

وأما العنصر الرابع ، فإنه يتصل بالقائم بالإتصال الجماهيرى ، حيث أصبح اتصالا منظما. فالقائم بالإتصال الجماهيرى يعمل من خلال تنظيم معقد يقوم على تقسيم متخصص للعمل ، ويتطلب نفقات باهظة. وانعكست هذه الصفات على عملية الإتصال الجماهيرى ، فالكاتب أو الفنان بفصله عن رسالته مراحل كثيرة ، ولم يعد من الممكن لكل من يرغب فى الإتصال الجماهيرى أن يقوم بذلك.

وأصبح الإتجاه الواحد سمة مميزة للإتصال الجماهيرى. وعلى الرغم من المحاولات التى تبذل للتعرف على استجابة الجماهير ، مثل بحوث المستمعين والمشاهدين والقراء ومؤشرات البيع وعائدات التوزيع ، وماشابه ذلك ، إلا أنها كلها محاولات لاتوفر للإتصال الجماهيرى طريقا منظما ودائما ومضمونا فى نتائجه.

وهذه النقطة تنقلنا إلى العنصر الخامس الذى يتصل برد فعل جماهير الإتصال الجماهيرى Feedback ، وهو يتصف بالبطء الشديد. وهذه الصفة تقلل من قدرة المرسل فى عملية الإتصال الجماهيرى على التعرف على ما إذا كانت رسالته وصلت إلى المستقبل بنفس الكيفية المستهدفة ، أم لا؟!

ورغم أن هذه الصفات أو السمات الخاصة بالإتصال الجماهيرى تكاد أن تتناقض تماما مع صفات أو سمات الإتصال الشخصى المواجهى ، إلا أن مضمون الإتصال الجماهيرى يعتبر فى كثير من الحالات خلفية هامة للإتصال الشخصى المواجهى ومدعما له. كما أن الإتصال الجماهيرى يصيغ كثيرا من علاقات الأفراد والجماعات بمجتمعاتها.

جـ - الإتصال المؤسسى Institutional Communication

يرتبط الإتصال المؤسسى ، كأحد الشكال الساسية للإتصال ، بالمنظمات والمؤسسات المعاصرة. وهذه المنظمات والمؤسسات المعاصرة أحد الأنواع التى تتفرع إليها التنظيمات فى المجتمعات الحديثة. وقد حاول علماء الإجتماع وضع تقسيمات عديدة لهذه التنظيمات الإجتماعية ، من أجل الوصول إلى طريقة أسهل لدراستها وتحليلها. وما يهمنا هنا ، هو ذلك النوع الذى يتصف بالثبات النسبى والإستمرارية بدرجة أكثر تعقيدا من مجرد وجود أهداف وتوقعات وخيارات مشتركة تقوم عليها. وهذا النوع يطلق عليه علماء الإجتماع مصطلح المنظمات الرسمية Formal Organizations وهو الذى يرتبط بالإتصال المؤسسى ارتباطا وظيفيا أساسيا.

ويعرف علماء الإدارة هذا النوع من التنظيمات الإجتماعية ، بانه كل تنظيم اجتماعى هادف لجماعة من الناس ، ويقصد منه تحقيق أغراض واضحة ومحددة ، بالتنسيق بين أنشطتهم وبتقسيم الوظائف والمسئوليات بينهم. ولهذا التنظيم بنيان رسمى يعبر عن سلوك عاقل[١]. وتعتبر الأجهزةالحكومية والمشروعات الإقتصادية والإتحادات العمالية والأحزاب السياسية والمنظمات الإجتماعية وغيرها ، أمثلة للتنظيمات التى يطلق عليها مصطلح المنظمات أو المؤسات المعاصرة. وهى تنتشر وتتنوع باتساع الانشطة الانسانية كلها.

---

(١) Selznick, P. " Foundations of the Theory of Organizations ". American Seciological Review, Vol. 13, No.1, February, 1948. P.25.

ويتطلب التنظيم الرسمى للمنظمة نوعا من التنسيق بين مراكز الأفراد وادوارهم ووظائفهم على شكل حلقات متتابعة ، تشكل تسلسلا رئيسيا ، وتجعل من الممكن تحقيق تكامل وظيفى بين التخصصات المختلفة. ويشد الفراد إلى بعضهم نوع من العلاقات النمطية البعيدة عن الميول والصفات الشخصية لكل منهم ، والهادفة إلى تحقيق التفاعل بينهم ، والضامنة للإنتقال الأمن من جيل إلى جيل ، دون الإعتماد القاصر على جيل بعينه. ومن هنا كان الإستمرار لكيانها المنظم بطريقة عاقلة جامدة ، ليحقق دائما أهدافه ووظائفه المحددة له سلفا.

وهذا التنظيم الجامد للمنظمة لا يأخذ فى إعتباره العوامل الأخرى التى ليس لها صفة التعقل ، سواء فى حدوثها أو تفاعلها أو تأثيرها على المنظمة وأهدافها ووظائفها. فالمنظمات تقوم على أفراد قد يتصرفون أحيانا بوحى من مراكزهم وأدوارهم ووظائفهم ، ولكنهم يتصرفون دائما ككيانات انسانية كاملة. ثم إن المنظمة تعمل وتتحرك داخل بيئة اجتماعية ، منها تستمد عناصر حياتها واستمرارها. وتفاعلها مع هذه البيئة لا يخضع لجمود العقل ، ولكنه يمس جوانب انسانية كثيرة ومتنوعة ، كالعواطف والمشاعر والأحاسيس. ولذلك ، يوجد هذا التنظيم الجامد مغمورا داخل قالب انسانى واجتماعى ، ومن المستحيل تصور وقوف التفاعل بينهما عند حدودج معينة أو درجة معينة.

ويحاول الإتصال المؤسسى ، بكل أساليبه ، أن يحدث توافقا أو تكييفا بين المنظمة ككيان اعتبارى ممثل فى ادارتها العليا وبيئة العمل من ناحية والبيئة الإجتماعية من ناحية أخرى. ذلك ، لأن أحداث هذا التوافق والتكيف يؤدى إلى خلق مناخ نفسى ملائم لتطور المنظمة ونموها باتزان وإطراد ، وملائم أيضا لتحقيق أغراضها ووظائفها فى المجتمع بأمان واستقرار.

وتستخدم المنظمات المعاصرة وسائل اتصال متعددة من أجل تحقيق أغراض الإتصال المؤسسى ، منها خطابات الإدارة العليا إلى العاملين ، والإجتماعات والمؤتمرات والزيارات الميدانية وصحف المؤسسة ومجلاتها House Organs والمنشورات والكتيبات والنشرات والصور المتحركة والإعلانات والتقارير المالية

والأفلام والمجلات العامة والراديو والتليفزيون والإذاعات الداخلية وقنوات التليفزيون المغلقة وغيرها.

ومن الواضح هنا ، أن هذه الوسائل تجمع تلك التى تنتمى إلى الإتصال الشخصى وتلك التى تنتمى إلى الإتصال الجماهيرى. ومن هنا ، يمكن القول ان الإتصال المؤسسى الذى يمارس من داخل المنظمات يقوم على تكامل الشكلين السابقين معا ، أى على تكامل الإتصال الشخصى والاتصال الجماهيرى. فالظروف المحيطة باستخدام كل منها داخل هذه المنظمات تفرض تكاملها بالدرجة التى تصنع من الإتصال المؤسسى شكلا قائما بذاته فى مواجهة الشكلين الاخرين ، كل على حده

ويمارس الإتصال المؤسسى فى المنظمات المعاصرة جهتان أساسيتان ، هما: الإدارة العليا والعلاقات العامة. وانن كانت أغراض الإتصال المؤسسى واحدة أمام هاتين الجهتين ، متمثلة فى أحداث التوافق والتكيف بين المنظمة والجماعات المنتمية اليها والمتعاملة معها ، سواء داخل بيئة العمل أو داخل البيئة الإجتماعية ، إلا أن لكل وجهة منهما مفاهيمها. ومع ذلك ، لانستطيع أن ننكر حقيقة هامة ، وهى أن الإدارة العليا ، بمكانتها وسلطاتها ، تعتبر العلاقات العامة جهة مساعدة ، بل أنه يمكن القول أنها جزء من كل ، بكل ماتعنيه هذه العلاقة من أبعاد وأثار .

د – طبيعة العلاقة بين الأشكال الأساسية للإتصال:

تعتبر العلاقة بين الأشكال الأساسية للإتصال علاقة بنائية. فعلى هذه الأشكال الثلاثة تقوم ستة مستويات لعملية الإتصال. وإذا كانت هذه المستويات الستة تمثل تطورا لعملية الإتصال بتطور الظروف الخاصة بعناصرها الأولية ، الا أن عملية الإتصال ذاتها تعتبر الوحدة الأولى فى بنيانها جميعها.

وهناك دراسات علمية تصف هذه المستويات الستة للإتصال بأنها مجالات للإتصال الإنسانى. وهذا الوصف ، فى تقديرنا ، لايعطى لمضمون العلاقة بينها وضوحا كافيا ، لأن وصفها بمجالات الإتصال لايؤكد على ما بينها من علاقة بنائية أساسية. كما أن هذه الدراسات تجعل ماتسميه بالإتصال الذاتى ، والذى يقصد به مايجرى بين الإنسان ونفسه من حوار ومناقشة ، مجالا أوليا أو بمفهومنا تجعله

مستوى أوليا. وهذا مالانتفق فيه معها ، لأن الإتصال عملية اجتماعية أساسا ، وليس عملية فردية أو شخصية أو ذاتية(١).

وعلى ذلك تتحدد هذه المستويات الستة لعملية الإتصال فى الإتصال الشخصى بين فردين Interpersonal Communication والإتصال فى الجماعات الصغيرة والتى لايزيد عدد كل منها عن عشرين عضوا Small Group Communication والإتصال العام الذى يحدث عندما يوجه خطيب ما خطابا أو خطبة مباشرة ومواجهية إلى جماهير عديدة Public Communication والإتصال الجماهيرى الذى تمارسه وسائل الإتصال الجماهيرى Mass Communication والإتصال المؤسسى الذى تمارسه المنظمات المعاصرة Institutional Communication والإتصال بين الثقافات الذى يحدث بين أشخاص من ثقافات مختلفة Intercultural Communication. وهذه المستويات السته تثبت أننا لسنا أمام أشكال منفصلة ، وإنما نحن أمام عملية اتصال واحدة ذات مستويات تتعدد بتعدد الظروف المحيطة بكل منها.

المعوقات النفسية والإجتماعية لعمليات الإتصال:

يقصد بها تلك المعوقات التى تحول دون حدوث عملية اتصال ايجابية وفعالة. وهى تحدث خلال كل مستويات الإتصال السته. وهى ، فى جوهرها ، عوامل تؤدى إلى تجميد عملية الإتصال أو اعاقتها أو ايقافها. انها تحول دون وصول عملية الإتصال إلى تطوير الفهم المشترك بين أطرافها.

ولهذه المعوقات أنواع تتوزع على كل من المرسل والمستقبل والرسالة والوسيلة ، أى إنها تتوزع على كل العناصر الأولية لكل عمليات الإتصال الإنسانى وبكل مستوياتها. وهى تحدث بطريقة فردية أو جماعية.

فإذا اعتبرنا المرسل والمستقبل طرفين يتبادلان مواقعهما خلال عملية الإتصال ، فإننا نجد المعوقات التى تحول دون حدوث اتصال فعال بينهما تتمثل فى

---

(١) Devite, J.Human Communication: The Basic Course. N. Y.: Harper Collins Collage Pub., 6th edition, 1994.PP.6-8.

قلة الإهتمام أو قلة الرغبة في الإتصال ، أو في التعصب لفكرة معينة أو رأى معين أو عقيدة معينة ، أو في ضعف القدرة على ترميز الرسالة أو فك رموزها ، أو في الإجهاد الذهني والجسمي ، وفيما شابه ذلك من المعوقات التي تجعل أحدهما أو كلاهما يتجاهل الآخر . ثم أن اختلاف الثقافات التي ينتمي اليها الطرفان ، يمكن أن يجعل الإتصال بينهما صعبا ، لأن الثقافات لها تأثيرها على اتجاهات الأفراد والجماعات وأنماط سلوكها.

ويضاف هنا ، تلك المعوقات التي تعود إلى عوامل شخصية ، كالإختلاف في الذكاء والتعليم والتخصص والخبرة. وهي معوقات أساسية تعود إلى الإطار الموقفي والإتصالي لعملية الإتصال ، ويمكن أن تعوق وصولها إلى غاياتها ، لأن هذه الخلافات الشخصية تؤثر على قدرة كل من المرسل والمستقبل أو هما معا على ترميز الرساله أو فك رموزها.

أما بالنسبة للرسالة ، فإن معوقاتها لفظية وغير لفظية ، وهي كثيرة ومتعددة ، وأهمها ضعف القدرة على فهم دلالات الألفاظ أو الأساليب غير اللفظية ومعناها ، وضعف السلوب ، وضعف التركيز العقلي الذي يؤثر على اللغة المستخدمة ومشتقاتها. وهذه كلها معوقات لاتنكر آثارها المدمرة لعملية الإتصال وغاياتها.

وأما بالنسبة للوسيلة ، فإن معوقاتها كثيرة ومتعددة أيضا ، مثل التشويش الميكانيكي ، وضعف الإرسال ، وضعف الطاقة والإمكانيات ، وضعف الإمكانيات المهنية والتخصصية ، وما إلى ذلك. وهي كلها أيضا معوقات لها تأثيراتها الخطيرة على كل عمليات الإتصال ، خاصة مايتصل منها بالإتصال العام والإتصال الجماهيري.

إن مغزى هذه المعوقات جميعها ، أنها تستطيع أن تفقد الرسالة مضمونها أو ما إصطلح على تسميته بالإنجليزية Message Entropy واستعيرت كلمة Entropy من علم الحركة أو الديناميكا الحرارية Thermodynamics وهي تعني اتجاه النظام إلى الفوضى أو التشويش.أما في الإتصال ، فإنها تعني اتجاه

الرسالة إلى التشتت ، فتفقد قوتها ، وتصبح رسالة ضعيفة وفاقدة لمضمونها خلال مرحلة انتقالها من طرف إلى آخر .

ولكى يحدد الباحثون المكان الذى تفقد فيه الرسالة قوتها خلال عملية الإتصال، استطاع أحدهم ، ويدعى هارولد لاسويل Harold Lasswell سنة ١٩٤٨م أن يضع نموذجا لفظيا يقوم على خمسة أسئلة تغطى عناصر عملية الإتصال ، وهى: من يتصل بمن؟ وماذا يقول؟ وفى أى وسيلة؟ وماالتأثير الذى أحدثه؟ ومن الواضح هنا أن هذه الأسئلة تغطى المرسل والمستقبل والرسالة والوسيلة والتأثير ، وهى العناصر الأولية لأى عملية اتصال انسانى[١]

ولنضرب مثالا تطبيقيا لهذا النموذج الذى قدمه هارولد لاسويل Harold Lasswell. ففى الصحيفة يقوم المخبر الصحفى بتغطية حادثة وقعت ، ولتكن حادثة تصادم بين سيارتين. وهنا نجد أن هذه الحادثة تتكون من حقائق ومعلومات كثيرة تقدمها مصادر متعددة ، ويكون عمل المخبر الصحفى فى موقع الحادثة أن يختار من بين الحقائق والمعلومات المتاحة ، بالكيفية التى تتناسب مع رؤيته فى تغطية مثل هذه الحادثة. وهنا يأتى السؤال: من؟ ليحدد بداية فقدان الرسالة لقوتها، وهى العملية التى أطلق عليها بالإنجليزية Message Entropy ليعرفها ويدل عليها.

ثم تأتى مرحلة أخرى ، عندما يجلس المخبر الصحفى الى مكتبه ، ليختار من بين الحقائق والمعلومات التى جمعها مايتناسب مع صياغة الخبر التى حددها. ولاشك أن ماجمعه المخبر الصحفى يزيد كثيرا عما يضعه عند صياغته القصة الخبرية ، وهنا يأتى السؤال: ماذا؟ لكى يزيد من فقد الرسالة لقوتها ، خاصة إذا علمنا أن سكرتارية التحرير قد تتدخل بالحذف من القصة ، إذا كان حجمها لايناسب المساحة المخصصة لها ، أو قد تضعها فى مكان غير ملائم ، أو قد تحذفها كلية ، وهذه كلها عوامل تعود إلى طبيعة الرسالة وظروفها. وهنا يمثل السؤال عن الوسيلة مرحلة ثالثة من مراحل فقد الرسالة لقوتها.

---

(١) Merrill.J.& Other. Modern Mass Media. N.Y. Harper Cellins College Pub..2ed edition. 1994 PP. 17 - 19

وإذا إفترضنا نشر القصة الخبرية بعد حذف أجزاء منها فى أحسن الحالات ، فإنها تتعرض لعملية اختيار Selection Process من خلال إدراك القارئ ، إلى جانب أنه قد يسئ قراءتها أو فهمها أو قراءة أجزاء منها ، أو عدم قدرته على تذكر أجزاء منها ، وهكذا. وهنا يأتى السؤال:لمن؟ ليضيف مرحلة أخرى من مراحل فقد الرسالة لقوتها.

ولايستطيع أى باحث علمى أن يتجاهل عملية فقد الرسالة لقوتها فى وسائل الإتصال الجماهيرى كلها. بصفة عامة، وليس فقط فى الوسائل الصحفية المطبوعة. ولاشك أن الأفراد والجماعات تحاول خلال اتصالها أن تقلل من نسبة الفاقد فى الرسائل التى تتبادلها حتى تستطيع أن تحقق الغاية من الاتصال بدرجة يمكن الإعتماد عليها.

أخلاقيات الإتصال فى المجتمع

طالما أن الإتصال له نتائج وآثار ، مهما كان حجمها وأبعادها ، فإنه لابد أن تكون له أخلاقيات. فدائما يوجد الصواب فى مواجهة الخطأ ، كجانبين متلازمين لكل عملية اتصالية. فمثلا ، قد يكون مؤثرا خلال عملية اتصالية لبيع سلعة ما أو لإنتخاب مرشح ما ، ان يبالغ البائع أو المرشح ، أوقد يكذب ، وهذا السلوك يكون لاأخلاقيا.

والبعد الأخلاقى للاتصال معقد الغاية ، لأنه يغلف فلسفة الإنسان فى الحياة. ومن الصعب أن نضع خطوطا عامة لهذه الفلسفة ، ليتبعها كل إنسان. ومع ذلك ، فإن هذا البعد الإخلاقى مكمل لأى عملية اتصالية ، حيث يحكمها قرار الفرد الذى يحدد فيه ماهو الصحيح وماهو الخطأ فيما يعتبره فعالا ومؤثرا خلال سلوكه الإتصالى.

وبالتالى ، فإن اعتبار عملية اتصال معينة أخلاقية أو غير أخلاقية ، يعتمد على مبدأ حرية الإختيار عند الناس. ويكون الإتصال ، بالتالى ، لا أخلاقيا،عندما يحرم أطرافه من حرية الإختيار ، يمنعهم من المعلومات التى تساعد على حرية الإختيار ، والعكس صحيح تماما. وعلى ذلك ، يكون الإتصال اللاأخلاقى ، هو ذلك الإتصال الذى يجبر أطرافه على قبول خيارات لايقتنعون بها فى الأوقات

العادية ، أو التقليل من خيارات يقبلونها فى الأوقات العادية. فإذا بالغ مثلا فى مزايا سلعة معينة ليشجعك على شرائها ، بدون أن يترك لك حرية تقرير ذلك ، فقد أجبرك على خيار لاتقبله وضيع عليك خيارا تقبله.

وعلى عكس ذلك تماما ، نجد أن الإتصال الأخلاقى يوفر لك المعلومات الصحيحة الكافية التى تساعدك على تقرير خيارك الذى ترضاه. غير أن هذه القاعدة تتطلب أن يكون أطراف الإتصال على درجة من النضج تمكنهم من ممارسة حرية الإختيار بوعى. بينما إذا كانوا صغار السن أو أطفالا أو غير ناضجين ، فإنهم لا يستطيعون أن يمارسوا هذه الحرية ، وبالتالى ، يحتاجون إلى من يساعدهم على ذلك حتى يظل الإتصال أخلاقيا بهذا المفهوم الذى أوضحناه.

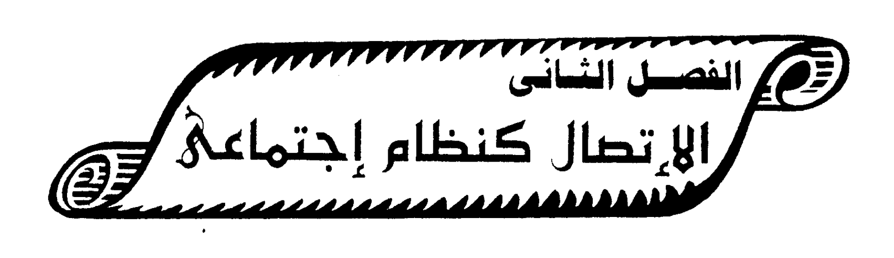
✍✍✍✍✍✍✍✍

وبذلك ، نجد أنفسنا فى مواجهة عملية الإتصال الإنسانى ، نتعامل مع عملية نفسية وإجتماعية معقدة ، حتى فى أبسط حالاتها. ومن الصعب أن نفصل بين ماهو نفسى فيها وما هو اجتماعى ، حيث تتداخل العوامل النفسية والإجتماعية بشكل معقد فى تشكيلها والوصول بها إلى غاياتها. ومع ذلك ، من السهل أن نحدد ماهو نفسى وماهو إجتماعى ، رغم عدم القدرة على فصل العوامل الإجتماعية ، على أساس أنها تشكل أسس المدخل الإجتماعى لعمليات الإتصال ، وبدون أن نتجاهل العوامل النفسية ، حتى نوفر لهذه العملية مضمونها الحقيقى. وعمليات الإتصال الإنسانى ، بهذا التوصيف الإجتماعى تجد دوافعها فى كل الأنشطة الإنسانية التى تمارسها الأفراد والجماعات والمجتمعات.

ولعل ما يؤكد هذا الإستنتاج ، ما لاحظناه خلال عرضنا لمراحل التطور التى مر بها الإتصال الإنسانى عبر التاريخ ، والتى أكدت أنه يقوم على دوافع نفسية لإشباع حاجات إجتماعية داخل اطار ظروف تتهيأ لها. وهذه المدخلات جميعها أساسية فى قيام الإتصال الإنسانى وتطورها. ومن هنا جاءت ضرورة تشعب الدراسات العلمية المتخصصة فى مواجهة الإتصال الإنسانى. ومن هنا أيضا تأتى

ضرورة أحداث التكامل بينها ، حتى لاتتبعثر نتائجها ، طالما أنها جميعها تتناول ظاهرة نفسية واجتماعية واحدة ، تحتاج إلى شمول النظرة وعمقها ، حتى يسهل التعامل معها من الناحيتين العلمية والتطبيقية.




الفصل الثانى
الإتصال كنظام إجتماعى

إذا تتبعنا الأشكال الأساسية للاتصال ، كما عرضناها ، تبين لنا أن هناك شكلين رئيسيين ، هما: الإتصال الشخصى والإتصال الجماهيرى. أما الإتصال التنظيمى أو المؤسسى فأنه مركب منهما. وإذا تتبعنا المستويات الإتصالية المتفرعة عن هذه الأشكال ، لوجدنا أن أغلبها يميل فى مواصفاته إلى الإتصال الشخصى بدرجات متفاوتة ، وبعضها يميل إلى الإتصال الجماهيرى بدرجات متفاوتة.

وتقوم التفرقة بين هذه الأشكال الإتصالية ومستوياتها على مدى توفر الصفات الأساسية للإتصال الشخصى فى الأشكال التالية ومستوياتها. فكلما كانت هذه الصفات متوفرة وبدرجات متفاوتة ، نشأت مستويات أقرب إلى الإتصال الشخصى ، كاتصال الجماعات الصغيرة والإتصال. وعندما اختفت هذه الصفات ، نشأت مستويات أخرى مخالفة تماما للإتصال الشخصى ، كالاتصال الجماهيرى والإتصال عبر الثقافات.

ويمكن القول ، من زاوية أخرى ، أن التفرقة بين هذه الأشكال الإتصالية ومستوياتها ، تعود إلى النظم الإجتماعية التى تعمل من داخلها. والنظام الإجتماعى Social System هو مجموعة مرتبة من العناصر التى تعمل معا داخل حدود واضحة ، والتى تقبل ندخلات من نظم أخرى ، وتصب مخرجات فى نظم أخرى[1] والصفات الأساسية لكل شكل اتصالى أو مستوى اتصالى تشكل فيها بينها ، بهذا المعنى ، نظاما اجتماعيا ، بحيث لا يمكن تصور أى شكل اتصالى أو مستوى اتصالى ، الا من داخل النظام الإجتماعى الذى يعمل من داخله.

وهذه الحقيقة تؤكد على وجود علاقة عضوية ووظيفية بين الأشكال الإتصالية ومستوياتها ، بحيث لا تبدو وكأنها تعمل فرادى أو متفرقة داخل المجتمع ، الذى يعتبر النظام الإجتماعى الأكبر الذى تتفرع عنه وتتفاعل داخله.

---

[1] انظر دراسة لنا ، بعنوان:
المدخل إلى الاقناع فى المؤسسات المعاصرة جدة: مكتبة مصباح ، سنة ١٩٨٩. ص٨٩.

ويجد المجتمع ، كنظام أكبر ، وحدته الأولى فى الجماعة الأولية أو الصغيرة وتنتظم العديد من الجماعات ، التى قد تقترب من هذه الوحدة الأولى أو تبتعد عنها ، كأنظمة اجتماعية لها كياناتها ومواصفاتها. وتتداخل العلاقات بينها جميعها . ليتشكل منها فى النهاية النظام الإجتماعى للمجتمع الكبير .

وإذا كان من أهم التعريفات للجماعة ، أنها مجموعة من الناس ، لهم بناء معين ، وارتباط منظم ، وبينهم اتصال منظم [١] . فانه من السهل علينا أن نتصور هنا أنه لا اتصال بدون نظام إجتماعى يحكمه ويوجهه. وهذا النظام الإجتماعى يتمثل فى الجماعة التى تمارسه لغايات تستهدفها.

ولتصنيف الجماعات إلى أنماط مختلفة ، وضع زاندن W.Zanden مقياسا يتكون من ثلاث صفات ، يقوم على توفرها أو عدم توفرها بدرجات متفاوته ، تقسيم الجماعات فى المجتمع إلى أنواع عديدة ، وهى:

١- الوعى بالنوع ، أى وعى الأفراد بوجود اخرين يشاركونهم فى بعض الخصائص.

٢- وجود خصائص اجتماعية بين أفراد ، بمعنى وجود تأثيرات متبادلة بين فردين أو أكثر كالمشاعر والإتجاهات.

٣- وجود هدف معين ومشترك بين أفراد الجماعة ، ويمثل دافعا لوجودها واستمرارها.

وبناء على ذلك يقسم زاندن W.Zanden الجماعات فى المجتمع إلى أربعة أنواع ، حيث يتمثل النوع الأول فى الجماعات الإحصائية Statistical Categories وهى جماعات يكونها العلماء بقصد الدراسة والتحليل ، ولايتصف أعضاؤها بأى صفة من الصفات الثلاث التى يتكون منها هذا المقياس. ومن أمثلتها

---

(١) طلعت إبراهيم لطفى: مدخل إلى علم الإجتماع. القاهرة: مكتبة غريب ، سنة ١٩٧٧ ص ٨٤.

فئات العاملين والأطفال فى سن معينة أو فى أعمار معينة ، والطلبة ، وماشابه ذلك.

ويتمثل النوع الثانى فى الجماعات الفئوية ، كالرجال والنساء والأطفال ، وماشابه ذلك. وهى جماعات تتميز بوجود وعى بالنوع بين أعضائها فقط ، وتفتقد الصفتين التاليتين. وبالتالى ، فهى لاتتصف بالإنتظام أو الشعور بالإنتماء.

ويتمثل النوع الثالث فى الجماعات الإجتماعية Social Groups وهى جماعات يتميز أعضاؤها بالوعى بالنوع ، ويوجد بينهم تفاعل مستمر ، وهدف محدد ، وأن كان لايضمهم تنظيم رسمى. ويعتبر الإتصال هنا سمة أساسية ، ومن خلاله يتوفر التفاعل المستمر بين أعضائها. ومن أمثلتها جماعات الأصدقاء والأقارب والجيران.

أما النوع الرابع ، فإنه يتمثل فى الجماعات الرسمية Formal Groups وهى جماعات تتوفر فيها الصفات الثلاث ، وهى الوعى بالنوع والتفاعل المستمر والهدف الواحد. ويطلق على هذه الجماعات مصطلح المنظمات الرسمية ، وهى تظهر عندما ينشئ الأفراد عن وعى تنظيما اجتماعيا معلنا لتحقيق أهداف محددة. ومن أمثلتها المنظمات الإقتصادية والحكومية والجمعيات والإتحادات والجماعات ، وغيرها [١].

ولاشك أن مايهمنا هنا من هذه الجماعات المختلفة ، النوعين الآخيرين منها فقط ، وهى الجماعات الإجتماعية والجماعات الرسمية ، لوجود الصفات الثلاث التى تشكل جماعات دائمة ومستمرة ، والتى يقوم بين أعضائها اتصال دائم وتفاعل هادف. وبالتالى فإنها تمثل أنظمة اجتماعية للإتصال ، وهى المستهدفة بالدراسة والتحليل هنا. ويمكن تناولها فى مبحثين متتاليين ، هما:

المبحث الأول: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الإجتماعية.

المبحث الثانى: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الرسمية.

⪢⪢⪢⪡⪡⪡

---

(١) Zanden. W.V.Sociology. New York: Wiley.1979.PP.150-153.

المبحث الأول

النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الإجتماعية

عرفنا أن مستويات الإتصال تتعدد داخل الجماعات الإجتماعية. ويبدأ المستوى الأول بين فردين فيما يسمى بالإتصال الشخصى Interpersonal Communication. ويتكون المستوى الثانى من الجماعات الصغيرة Small Group Communication. ويأتى المستوى الثالث ليقوم على الجمهور أو الحشد ، وهو أكبر من الجماعات الصغيرة ، فيما يسمى بالإتصال العام Public Communication.

لكن الإتصال الشخصى والإتصال فى الجماعات الصغيرة تجمعهما وحدة واحدة ، تتمثل فى تعريف الجماعة الصغيرة عند علماء الإجتماع. ومن ثم ، فإن هذين المستويين يجمع بينهما نظام اجتماعى واحد يتمثل فى الجماعات الصغيرة بحدودها المتعارف عليها. وينفرد مستوى الإتصال العام بنظام اجتماعى مستقل ومتميز ، لخروجه على هذه الحدود مع إحتفاظه ببعض الصفات التى تدخله فى تعريف الجماعات الإجتماعية.

وبالتالى ، فإننا سوف نتناول النظام الإجتماعى للإتصال وكيفية عمله داخل الجماعات الإجتماعية على مرحلتين: أحداهما ، للجماعات الصغيرة. والأخرى للجماعات الكبيرة.

أولا: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الصغيرة:

تمثل الجماعات الصغيرة الخلايا الأولى فى كل مجتمع. وكل منها تمثل حياة اجتماعية مشتركة مصغرة تقوم عليها الحياة الإجتماعية على مستوى المجتمع كله، وإن كانت تختلف عنها فى بساطة صفاتها وتركيبها ، تماما كما تحمل الخلية الحية كل صفات الكائن الحى ، ويقوم بنيان الكائن الحى عليها. ومن هنا ، تكمن أهميتها داخل النظام البنائى للمجتمع كله.

والجماعة الصغيرة جماعة أولية لها صفات أساسية فهى صغيرة الحجم ، تبدأ بفردين ، وقد تمتد إلى عشرين فردا. ويمثل حدها الأقصى أكبر عدد يسمح بتوفر

الأعضاء داخل الجماعة مناخا نفسيا عاطفيا ، أذا كان هناك قبول مشترك بين الأعضاء. بمعنى أن يقبل كل منهم الآخر ، ويحترم احتياجاته وأراءه ودوره داخل الجماعه. وهذا المناخ النفسى الصحى له أهميته فى تحقيق القوة لرابطة الولاء للجماعة ككل ويدعم تماسكها وتألفها. كما أن له أهميته فى المحافظة على التوازن بين الأعضاء وتخطى الآثار السلبية للصراع بينهم. ويضاف إلى ذلك أن صفة الولاء بشقيها لها انعكاسات ايجابية على ماتحققه الجماعة من استقرار نسبى. ولهذا كله ، اعتبرنا النظام الإجتماعى للجماعة اطارا اتصاليا وموقفيا لعملية الإتصال.

وتبقى صفة أساسية تعطى الجماعة حيويتها وقوتها وايجابياتها ، كنظام اجتماعى متحرك نحو أهدافه ومتفاعل مع الأنظمة الإجتماعية للجماعات الأخرى ، داخل اطار النظام الإجتماعى الأكبر للمجتمع كله. وهذه الصفة الأساسية مقصود بها ماينبغى أن يتوفر للجماعة الصغيرة من دينامية. ودينامية الجماعة لاينعكس عليها كل الصفات الأساسية للنظام الإجتماعى للجماعة فقط ، وانما تشكل هذه الصفات ايضا عناصر رئيسية فى تكوينها والوصول بها إلى غاياتها لصالح الجماعة وأعضائها.

وجوهر هذه الدينامية يتمثل فيما تقوم عليه الجماعة الصغيرة من اتصال مباشر وصريح. فكل عضو فيها يعترف بالآخرين. وتجرى بينهم عمليات اتصال شخصى وجها لوجه. ولذلك انتهى الباحثون إلى أن حجم الجماعة لايجوز أن يزيد على عشرين عضوا ، لأن حجمها إذا زاد عن ذلك يمكن أن يؤثر على قوة الإتصال الشخصى المباشر بين أعضائها. وهذا يعنى ، من زاوية أخرى ، أنه كلما نقص حجم الجماعة الصغيرة ، كلما كانت ديناميتها أقوى ، لأن مضمونها المتمثل فى الإتصال الشخصى المباشر سوف يكون أقوى ، والعكس صحيح لأن الحجم الكبير لايسمح لكل عضو بالإشتراك فى الإتصال كطرف قوى داخل الجماعة.

والجماعة الصغيرة ، بهذه الدينامية ، تعتبر نظاما وظيفيا داخل النظام الاجتماعى للمجتمع كله. وهى ليست نظاما وظيفيا حبيسا داخل نفسه ، ولكنها

تتفاعل مع الجماعات الأخرى بشتى ألوان التفاعل. ولذلك ، فإن كثيرا مما تنتهى اليه ديناميتها يمتد إلى الجماعات الخرى ، وقد يتبلور إلى دوائر تأثيرية تتسع بالتدريج لتشمل المجتمع كله فى حالات معينة.

وهذه الجماعات الصغيرة ليست كيانات جامدة بلا حدود ، ولكنها أنظمة إجتماعية متفاعلة ، ولها تركيبها البنائى والنفسى الذى يحكم حركتها وتفاعلها داخليا بين أعضائها ، وخارجيا مع الجماعات الخرى. ويقصد بهذا التركيب البنائى والنفسى وصف العلاقة بين أعضائها. وهذه العلاقة لها حدود اجتماعية تتحرك داخلها العلاقات النفسية بين أعضاء الجماعة وتتفاعل. وتوجد صلة وثيقة بين التركيبين ، حيث نجد التركيب النفسى داخلا فى اطار التركيب البنائى. وإذا كان التركيب النفسى بحكم طبيعته يخلق التفاعل بين أعضاء الجماعة. فإن التركيب البنائى يمثل اطارا يحكم هذا التفاعل داخل حدود اجتماعية مادية ملموسة.

أ - التركيب البنائى للجماعة:

ان رسم خريطة التركيب البنائى للجماعة لايعنى الجماعة ذاتها. فالواقع شئ والتخطيط النظرى شئ آخر ، وإن كان التخطيط النظرى لاغنى عنه. ذلك لأن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الخريطة الجغرافية والبلد الذى تمثله. فهناك حقائق هامة يمكن الإستفادة بها من الخريطة الجغرافية ، ولكن واقع البلد الذى تمثله يضم حقائق لها أبعاد أكبر. ومع ذلك لاغنى عن الخريطة الجغرافية لأنها توجه وترشد بما تتضمنه من خطوط عامة.

ويقوم التركيب البنائى للجماعة على اطارين متداخلين: أحدهما ، الإطار الخارجى ، وهو الذى يفصل بين الجماعة ككل والبيئة الإجتماعية المحيطة بها ، أو هو الذى يفصل بين أعضاء الجماعة المنتمين اليها والأشخاص الخارجين عنها وغير المنتمين اليها. أما الاخر فهو اطار داخلى يفصل بين الأعضاء الأكثر نشاطا وتأثيرا ، وهم الذين يطلق عليهم زعماء الرأى أو قادة الرأى ، والأعضاء

ولاشك أن الإتفاق والتضامن وروح الجماعة ، كلها صفات أساسية للحياة الإجتماعية السليمة. إنها تعنى أن هناك تألفا يجمع أعضاء الجماعة داخل اطار مشترك. ومن ناحية أخرى ، نجد أن عدم توفر صفة من هذه الصفات أو بعض منها ، يعنى الفرقة والفوضى وفقدان الثقة. وشتان بين الحالتين. وهناك من العوامل المؤثرة التى تؤدى إلى كل حالة منهما وتدعمها ، وهى عوامل تصف العلاقات النفسية بين أعضاء الجماعة وتحكمها.

فوجود عادات وقيم مشتركة ومتشابهة يؤدى إلى التالف ، وغيابها يعنى التمزق والأنشقاق. ثم أن روح الجماعة وما تعنيه من صفات الولاء والإنتماء ، تعتبر أساسية لفعالية الجماعة ، وغيابها يعنى سيطرة مشاعر التحفظ والإغتراب والعزلة ، وهى بدورها تؤدى إلى الإنشقاق. ويعتبر الإنجذاب والحب المشترك بين أعضاء الجماعة مظاهر دالة على وجود روح الجماعة بينهم. ويعنى الإنجذاب وجود التفاعل الوجدانى والعقلى بينهم ، وهذا يعنى أن الأعضاء يستجيبون لبعضهم استجابات ايجابية ، وكلما زادت درجتها ، كلما زادت العلاقات المتفاعلة وجدانيا وعقليا ، وكلما زادت المشاعر والأحاسيس والإتجاهات المشتركة ، وكلما زادت وحدة الجماعة وتدعمت أهدافها.

وعلى ذلك ، يتبين أن الجماعات الصغيرة ليست فى مضمونها أو جوهرها إلا علاقات نفسية متبادلة ومتداخلة ومتفاعلة داخل الإطارات التى يقوم عليها التركيب البنائى لكل جماعة منها. وهذا يعنى التداخل بين التركيبين البنائى والنفسى والتأثير المتبادل بينهما. وتأثير التركيب البنائى للجماعة قد يؤدى إلى علاقات نفسية متوازنة ، فيكون التألف بكل مايعنيه من ايجابية وفعالية ، وبكل مايعنيه من إتصال قوى. وقد يؤدى التركيب البنائى إلى علاقات نفسية غير متوازنة ، فيكون التمزق ، ويضعف الإتصال. ومن هنا ، يمكن القول أن النظام الإجتماعى للجماعة الصغيرة، بتركيبه البنائى والنفسى ، يحكم حركة الإتصال ويوجهها.

حـ - العوامل التى تزيد فعالية الإتصال داخل النظام الإجتماعى للجماعة الصغيرة:

انتهت الدراسات العلمية إلى عدد من النتائج التى تثبت وجود عدد من العوامل التى تفسر الكيفية التى تزداد بها فعالية الإتصال بين أعضاء الجماعة الصغيرة. وقد تبلورت النتائج فى أربع نظريات عامة ، يمكن ايجازها هنا لبيان أهمية هذه العوامل ومدى تاثيرها على فعالية الإتصال داخل النظام الإجتماعى لكل جماعة صغيرة ، وهى:

١ - نظرية الإختراق الإجتماعى: Social Penetration Theory

تركز هذه النظرية على أهمية العلاقات النفسية والإجتماعية التى تقوم على عناصر شخصية بين الأعضاء. وهى لاتهتم بالكيفية التى تتطور بها هذه العلاقات، ولكنها تهتم بما يحدث بعد تطورها. ويقوم مضمون هذه النظرية على أنه كلما زادت عدد الموضوعات الخاصة وتنوعها ، وكلما زاد اتساعها وعمقها ، كلما زادت العلاقات بين الأعضاء قوة ، وزادت بالتالى فعالية الإتصال بينهم ، وزادت أهمية النتائج التى تتحقق. وسميت بنظرية الإختراق الإجتماعى ، على أساس ما يحدث بين الأعضاء من اختراق مشترك لما يدخل فى صميم الخصوصية عندهم.

ويكون لنا أن نستنتج الجانب الآخر لهذه النظرية ، وهو أنه كلما قلت عدد الموضوعات الخاصة وقل تنوعها وضاق مجالها واتجهت إلى السطحية فى تناولها ، كلما ضعفت العلاقات بين الأعضاء وضعفت دينامية الإتصال بينهم ، وقلت أهمية النتائج التى تحققها. وكلما انعدمت هذه الموضوعات الخاصة ، كلما كانت العلاقات أكثر رسمية وأكثر شكلية ، وكان الإتصال هامشيا ، وهكذا.

٢ - نظرية الجاذبية Attraction Theory

ثبت أن هناك درجات متفاوته من الجاذبية بين أعضاء الجماعة الصغيرة. وتلعب الدرجات العالية من الجاذبية دورا فى زيادة فعالية الإتصال بين الأعضاء ، وفى زيادة تقبلهم للدرجات العالية من الصراع بروح ودية ، وفى زيادة الألفة بينهم ، والعكس صحيح. وهذا هومضمون هذه النظرية.

وقد حددت هذه النظرية عددا من المعانى التى تستهدفها الجاذبية فى مضمونها ، كالمظهر المادى والشخصية والقرب المكانى والدعم والتشابه والتكامل والصلة الروحية. ولاشك أن لكل معنى منها أهمية فى تحقيق الجاذبية بين أعضاء الجماعة الصغيرة.

فالمظهر المادى ، سواء فى المظهر أو السلوك ، ملفت للنظر ، فقد يكون ايجابيا محببا ، وقد يكون سلبيا منفرا. ولكل حالة نتائجها على مدى تقبل الأعضاء لبعضهم البعض أو نفورهم من بعضهم البعض. والشخصية أوسع مفهوما وأبعد مضمونا من مجرد المظهر المادى ، لأنها تشمل الفكر والسلوك معا ، وتكاملهما يعنى شخصية متزنة ومحببة ، ونقص هذا التكامل يعنى شخصية مهزوزة ومنفرة وغير واضحة.

والقرب المكانى يزيد الألفة بين الأعضاء ، والتباعد يؤدى تأثيرا عكسيا بدرجات متفاوته. وإتجاه الأعضاء إلى دعم مواقف زميلهم وآرائه ، يزيدمن تعلقه بهم وحبه لهم والعكس صحيح أيضا. وكلما كان الأعضاء أكثر تماثلا وتشابها فى خبراتهم وأفكارهم وإتجاهاتهم ، كلما كانوا أكثر تآلفا ، والعكس صحيجح.

وتؤدى الصلة الروحية وعلاقة التكامل بين الأعضاء إلى نفس الآثار الإيجابية فى حالة تواجدهما. وكل هذه المعانى تدخل فى مضمون الجاذبية ، كأساس تقوم عليه هذه النظرية. وهى تفسر بدرجة ما الأسباب الكامنة وراء زيادة فعالية الإتصال بين الأعضاء داخل النظام الإجتماعى لجماعة ما فى حالات كثيرة.

٣ – نظرية التبادل الإجتماعى Social Exchange Theory

تدعى هذه النظرية أن كل عضو داخل النظام افجتماعى لجماعة ما يطور علاقاته بالآخرين ، بالكيفية التى تحقق له فائدة أكبر. وتبنى مضمونها على النموذج الإقتصادى للأرباح والخسائر ، حيث تساوى الأرباح الفرق بين العائد والتكلفة. فكل عضو عليه أن يعمل لكى يحصل على حب الآخرين. وأن يحقق المكانة بينهم. ليكسب الأمان الإجتماعى بينهم ، وماشابه ذلك. فالعمل هو التكلفة والنتائج المعنوية والمادية المترتبة عليه هى العائد. وكلما زاد العمل زاد العائد ،

وهكذا. وطبيعى أن يبحث كل عضو عن تحقيق أكبر عائد بأقل تكلفة ممكنة. وهذا الوضع يحقق أفضل العلاقات بناء على مفهوم هذه النظرية. ولاشك ان لها تطبيقات واقعية فى الحياة العملية تؤيدها وتدعمها.

٤ – نظرية المساواة Equity Theory

تسير هذه النظرية خطوة ابعد من نظرية التبادل الإجتماعى. فهى تدعى أن كل عضو يطور علاقاته بالآخرين ويحتفظ بها ، عندما تحقق تعادلا تقريبيا بين نسبة التكاليف والعائد عنده ونسبة التكاليف والعائد عند الأخرين. ولاشك أن هذه النسبة تتزايد أو تتناقص ، كلما زاد أو قل طرفا المعادلة.

ويترتب على هذه النظرية نتائج عديدة فإذا كانت زيادة الجهد الذى يبذله عضو ، تؤدى الى زيادة العائد عند عضو اخر ، وليس عنده هو ، اختلت المعادلة وكانت العلاقات سلبية . واذا بذل العضو جهدا أكبر وكان العائد ثابتا او متناقصا ، فان هذا الوضع يؤدى الى تدهور العلاقات مع الأخرين. وهذا يعنى أن العضو يكون راضيا عن علاقاته بالأخرين ، كلما كان العائد مجزيا ، ويحدث العكس تماما عندما يتناقص العائد بدرجة لاتوازى الجهد المبذول.

ولا شك أن كل نظرية من النظريات الأربع تفسر حالات معينة لدينامية الإتصال داخل نظامها الإجتماعى ، وأن التكامل بين نتائج هذه النظريات جميعها يزيد من مجالات تفسير الكيفية التى تعمل بها هذه الدينامية داخل الجماعات الصغيرة ، والأسباب الكامنة وراء فعاليتها أو تناقصها.

وبذلك يقدم النظام الإجتماعى للإتصال داخل الجماعات الصغيرة تصورا نظريا وعمليا لمكانة دينامية الإتصال واهميتها وكيفية عملها والعوامل التى تدعمها أو تقلصها ، بحيث لا يمكن تصور مضمون هذه الدينامية وجوهرها وأبعادها إلا داخل النظام الإجتماعى الذى تجرى داخله.

ثانيا: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الكبيرة

حددنا حجم الجماعات الصغيرة بما لايقل عن فردين ولايزيد عن عشرين فردا. وقلنا أن هذا الحجم يسمح بعلاقات شخصية ودينامية اتصال شخصية

مواجهية وتفاعلا شخصيا ، بكل مايترتب على ذلك من مواصفات تجعل الإتصال الشخصى يجرى داخل نظام اجتماعى قوى وفعال.

وبالتالى فإن الجماعات الكبيرة تعنى الجماعات التى يزيد حجم كل منها على الحد الأقصى الذى يصل اليه حجم الجماعة الصغيرة ، ولاتتمتع تمتعا كاملا بكل المواصفات التى يقوم عليها النظام الإجتماعى للجماعة الصغيرة. وتنتفى تبعا لذلك وبدرجات متفاوته ، العلاقات الشخصية والأتصال الشخصى المواجهى والتفاعل الشخصى.

فمثلا نجدأن خطبة الجمعة فى المسجد أو المحاضرة فى مكان عام ، قد يتوفر فيها الإتصال الشخصى ، ولكن لايتوفر فيها العلاقات الشخصية بين الخطيب وجمهور المستمعين ، ولايتوفر فيها أيضا التفاعل الشخصى بينهم ، ذلك لأن الخطبة أو المحاضرة تلقى فى مكان ما وفى وقت ما ثم ينصرف الجميع إلى شئونهم الخاصة ، وقد لايتلاقون فى نفس المناسبة مرة ثانية. وطبيعى أننا نقصد هنا انتشار هذه المواصفات وليس اقتصارها على جماعات معينة داخل هذا الجمهور أو ذلك.

وعلى ذلك يكون لهذا الجمهور ، كنظام اجتماعى ، صفات مختلفة تماما عن الصفات التى يتصف بها النظام الإجتماعى للجماعات الصغيرة ، وهذا ما جعله يختص بمستوى أخر للإتصال ، أطلق عليه مصطلح افتصال العام ، والذى أعطته الدراسات العلمية الإجتماعية إهتماما مستقلا.

وقد انتهت هذه الدراسات العلمية افجتماعية إلى أن النظام الإجتماعى للإتصال العام ينقسم إلى أربعة عناصر متكاملة بحيث إذا نقص أى عنصر منها يكون افتصال غير فعال. وتتحقق نفس النتيجة إذا لم يتوفر لأى عنصر منها مواصفاته المطلوبة. وهذه العناصر الربعة ، وهى: المتحدث والرسالة والجمهور Audience والإطار الموقفى الذى يجمع بينهم. ويمكن تناولها بشئ من التفصيل فيما يلى[١].

---

[١] devito , J. Human Communication: The basic Course. N.Y.: Harper Collins College Pub., 6th edition , 1994. PP. 389 - 417.

أ - المتحدث:

قد يكون المتحدث خطيبا دينيا أو سياسيا أو مديرا ، وقد يكون مدرسا أو أستاذا ، أو محاميا أو وزيرا. وكل هؤلاء يتحدثون إلى جماهيرهم. وهذه الجماهير تجمعت فى مكان ما لتستمع اليهم. والهدف من الحديث قد يكون اعلاميا أو اقناعيا. وتعتبر الندوات والمؤتمرات والمحاضرات والإجتماعات بكل مستوياتها أشكالا للإتصال العام.

وإذا اراد المتحدث ان يكون عنصرا ناجحا وفعالا داخل النظام الإجتماعى للإتصال العام فىأى شكل من اشكاله ، يكون عليه أن يوفر لنفسه عددا من العوامل النفسية والإجتماعية التى تتشكل منها قدراته كعنصر مؤثر. وتتوزع هذه العوامل النفسية والإجتماعية على قسمين أساسيين: أولهما يضم مايعرف بالمواصفات الخاصة. وثانيهما ، يضم مايعرف بالإعتبارات التى ينبغى توافرها أو مراعاتها. وقد اثبتت الدراسات العلمية أهمية هذه العوامل جميعها. وكلما ملك المتحدث عددا أكبر منها ، كلما كان أكثر نجاحا وفعالية وتأثيرا.

القسم الأول: المواصفات الخاصة:

تؤكد النتائج العلمية أن مهارات الإتصال من الأساسيات التى ينبغى توافرها كالقدرة على الكلام والقدرة على الكتابة ، والقدرة على الأستماع ، والقدرة على التفكير والقدرة على استخدام الإشارات والتلميحات وتعبيرات الوجه واليدين وغيرها لتأكيد معان معينة أو نفيها. وكذلك القدرة على التعبير بالرسم أو غيره من قوالب التعبير الأخرى. وهذه القدرات الإتصالية تحدد صلاحية المتحدث من ناحيتين: أولاهما ، أنها تحدد قدرته على تحليل أغراضه ونواياه والتعبير عنها عند قيامه بعملية اتصال معينة. ثم هى من ناحية أخرى ، تحدد قدرته على صياغة رسالته التى تعبر عن هذه النوايا والأغراض ، والكيفية المناسبة لهذه الصياغة. وتقف القدرة على التفكير السليم وراء هذه المهارات الإتصالية جميعها.

واكدت هذه النتائج العلمية أيضا أن الإتجاهات النفسية للمتحدث هامة. وتعنى هذه الإتجاهات النفسية الميول نحو السلوك بطريقة ايجابية أو سلبية ، ولها معان

ثلاثة: فهى قد تكون اتجاها نحو النفس ، بمعنى الثقة فى النفس. وقد تكون اتجاها نحو الرسالة ، بمعنى الإقتناع بها والإيمان بمضمونها. وقد تعنى أخيرا اتجاها نحو الجمهور ، بمعنى الإتجاه الودى الذى يعنى افحترام والتقدير. وتوفر هذه المعانى يعطى المتحدث قدرات أكبر على الإتصال الفعال. وفقدانها يحدث العكس تماما.

واكدت هذه النتائج العلمية كذلك أهمية مستوى المعرفة عند المتحدث. ويقصد بمستوى المعرفة أكثر من معنى. فهو يعنى كمية المعلومات عند المتحدث. ويعنى مدى فهم المتحدث لموضوعه. ويعنى كذلك قدرة المتحدث على افهام الاخرين. وهذه المعانى جميعها لازمة وضرورية.

ويأتى مدى تصديق الجمهور للمتحدث كأحد العوامل الهامة أيضا. وهو يتشكل من عوامل اخرى كثيرة كالمكانة الإجتماعية والدور افجتماعى والمقدرة والخبرة وما إلى ذلك. وكلما زادت درجة تواجد هذه العوامل ، ارتفعت درجة التصديق والعكس صحيح أيضا.

ثم ان التشابه بين المتحدث والجمهور الذى يتحدث اليه بحسب الشكل الذى يجرى فيه الإتصال العام ، من حيث الخبرات والإتجاهات النفسية والتعليم والعمر والجنس يعتبر هاما كذلك. ووكلما زادت درحة هذا التشابه ، كلما كان الإتصال فعالا وايجابيا. وكلما قلت درجة التشابه قلت فعالية الإتصال.

ويضاف إلى ذلك درجة فهم المتحدث للاطار الموقفى الذى يجرى فيه اتصاله بالجمهور ، وفهمه الكيفية التى يتعامل بها معه. ولاشك أن هذه العوامل جميعها تعمل مجتمعة على توفير مواصفات اساسية المتحدث الناحجح خلال عمليات افتصال العام.

القسم الثانى: الإعتبارات التى ينبغى مراعاتها:

تؤكد النتائج العلمية أن المتحدث عندما يريد أن يتحدث فى مناسبة ما داخل اطار شكل من أشكال الإتصال العام ، فان عليه أن يحدد أغراضه تحديدا دقيقا ، وأن يختار موضوعه بعناية ، وأن يقيم علاقة وثيقة مع جمهوره ، وأن يربط بين

موضوعه واهتمامات هذا الجمهور ، وأن يستخدم كلمات دقيقة داخل قوالبها المحددة لعاينها تحديدا لالبس فيه ، وأن يستعين بالأمثلة والإستشهادات والصور التوضيحية ، وماشابه ذلك لتاكيد المعانى التى يستهدفها ن ولإثبات اهمية ما يريد اثباته وان يستعين بمصادر موثوق بها بدرجة عالية. وهذه الإعتبارات جميعهخا تتصل بتوفير الإستعدادات التنفسية وافجتماعية التى تحقق للمتحدث قدرات عالية على التأثير ، كأحد العناصر الهامة فى النظام افجتماعى للإتصال العام.

وينبغى أن تتوفر هذه الإعتبارات جميعها على ضوء معرفة المتحدث الكاملة بالجمهور الذى سوف ياتقى به من خلال شكل من أشكالافتصال العام. بل ان معرفة المتحدث بجمهوره تمثل الخطوة الأولى التى ينبغى عليه أن يخطوها. وتعنى هذه المعرفة تحليل المواصفات النفسية و الإجتماعية للجمهور لأن المعلومات الدقيقة والمفصلة أساسية عند تحديد الإعتبارات التى يقيم عليها حديثه ، حتى تحدث استجابة ايجابية مع مايقول.

ب - الحديث:

الحديث هنا يعنى الرسالة التى يوجهها المتحدث إلى جمهوره. وهى تاخذ أشكالا كثيرة: فقد تكون خطبة أو حوارا أو مناقشة ، بحسب الشكل الذى يجرى فيه الإتصال العام. ولعل الخطبة أهم هذه الأشكال وأكثرها بنيانا وتنظيما. وتاخذ الأشكال الاخرى عناصر من بنيانها لكى تتشكل منها كيانات لها مواصفات خاصة. ومن ثم ، فإننا يمكن أن نركز هنا على بناء الخطبة الذى تبين أنه يتكون من ثلاثة اجزاء متكاملة ، هى: المقدمة وجسم الموضوع والخاتمة ، كما يلى:

- مقدمة الموضوع:

تخدم المقدمة ثلاثة اغراض هامة ، هى: جذب انتباه الجمهور ، وربط الجمهور بالموضوع الذى سوف يتحدث فيه الخطيب ، وتوجيه اهتمام الجمهور إلى ماسوف يقال فى الخطبة. وهى أغراض أساسية بدونها يمكن أن ينصرف الجمهور إلى أشياء اخرى تقلل أو تنفى فعالية الخطبة ، وتعوق تحقيق الهدف منها.

وهناك أساليب كثيرة تستخدم لتحقيق الأغراض التى تستهدفها المقدمة كاستخدام الأسئلة المصاغة بطريقة مثيرة ، أو تلخيص بعض الحقائق الهامة المتصلة باهتمامات الجمهور والداخلة فى الموضوع وبطريقة تشعر الجمهور بأهمية ما سوف يقال فى موضوع الخطبة ، أو دعوة الجمهور إلى التركيز على بعض النقاط الهامة أو الإحصائيات الهامة فى الموضوع ، أو استخدام الإقتباسات، وكذلك استخدام الحقائق الجديدة والمثيرة ، وماشابه ذلك. ولايعدم المتحدث البليغ الموهوب أسلوبا مستحدثا يقيم عليه مقدمته ، لكى تحقق اغراضها تماما كجزء أساسى تستهل به الخطبة.

- **جسم الموضوع:**

ان أهم جزء فى جسم الموضوع هو جوهره الذى يدور حوله ، والذى يريد المتحدث أن يفهمه الجمهور ويستوعبه. فإذا كان الهدف من الخطبة اعلاميا ، كان هذا الجوهر ممثلا فى الفكرة الرئيسية التى يريد المتحدث أن يعيها جمهوره جيدا وإذا كان الهدف منها اقناعيا ، كان هذا الجوهر متمثلا فى الفكرة المركزية التى يريد المتحدث أن يقبلها جمهوره ، أو أن يتمثلوها فى آرائهم واتجاهاتهم وسلوكهم.

وعندما يصيغ المتحدث جوهر موضوعه ، عليه أن يسأل نفسه نفس الأسئلة التى يسالها جمهوره. فإذا كانت الخطبة اعلامية ، يكون السؤلان: ماذا؟ وكيف؟ هما الأهم. وعندما تكون الخطبة اقناعية ، يكون السؤال: لماذا؟ هو الأهم.

ثم يبنى جسم الموضوع كله بطريقة منطقية وتتابعية ومترابطة ، على أن تقسم الحقائق إلى أقسام رئيسية ، مع أحداث التوازن بين الأهمية النسبية لهذه الأقسام ، ومع توفير لكل قسم استشهاداته وأدلته ومع تحقيق التكامل بين هذه القسام جميعها بطريقة تخدم جوهر الموضوع لأنه يعتبر العقدة التى تستهدف الخطبة مواجهتها وابرازها.

خاتمة الموضوع:

تتمتع الخاتمة باهمية خاصة ، لأنها الجزء من الخطبة الذى يتذكره الجمهور جيدا ، وهى التى تحدد الصورة الباقية فى أذهان الجمهور. ومن ثم ، فهى

تستخدم أساليب ثلاثة: أولها ايجاز ماقيل. وهذا الإيجاز هام جدا فى الخطب التى تستهدف الإعلام ، ويقل أهمية فى الخطب التى تستهدف الإقناع. وقد يحدث الإيجاز لجوهر الموضوع أو بالتأكيد على اهميته اوببلورة الحقائق الأساسية.

وثانيها: انها تعطى للجمهور دافعا لكى يسلك بالطريقة التى حددها جوهر الموضوع ودلت عليها حقائقه واستشهاداته. وهذا النوع من الخاتمة صالح جدا فى الخطب التى تستهدف الاقناع ، حيث يحث المتحدث الجمهور على الأخذ بما انتهى اليه باستخدام دافع عاطفى. وهى تبدو أكثر اهمية فى الخطب الدينية. ولكنها تبدو ذات أهمية فى المحاضرات الدراسية.

وثالثها ، انها تستخدم لإنهاء الموضوع. وعندما يوفق المتحدث إلى عبارة بليغة أو سؤال مثير أو جملة حاسمة ، فإنه يكون قد وضع نهاية حاسمة ومؤثرة لخطبته وبالتالى ، يكون قد نجح فى الوصول بها إلى ذروتها.

ولاشك ان ماقيل هنا حول الخطبة يعتبر خطوطا عامة ، لأننا لانستهدف تناولها بالتفصيل ، وإنما نستهدف بيان مضمونها ، كأحد الأشكال الهامة للحديث الذى يعتبر عنصرا اساسيا من عناصر النظام الإجتماعى للإتصال العام.

جـ - الجمهور:

قلنا أن معرفة الجمهور بدقة تعتبر الخطوة الأولى التى يجب على المتحدث ان يخطوها ، لكى يعرف إلى من يوجه حديثه. فالإتجاهات والعقائد والقيم هى القاعدة التى يقيم عليها حديثه. لكن تناولنا للجمهور هنا كعنصر اساس فى النظام الإجتماعى للإتصال العام ، يستهدف تحليل بنيانه الإجتماعى والنفسى ، لإستكمال تصور مدى فعاليته داخل هذا النظام.

١ - البنيان الإجتماعى للجمهور:

تؤكد الدراسات العلمية أن الجمهور له بنيانه الإجتماعى الذى يتشكل من عدة عوامل أساسية ، هى: العمر والجنس والثقافة ومستوى التعليم والذكاء ومستوى التعليم ومستوى المهنة والدخل والمكانة والدين. وهى كلها عوامل توصف بأنها

متغيرات ، لأن مضمونها يتغير من شكل إلى آخر ، بحسب طبيعة الإتصال العام واستخداماته فى المجتمع.

فالجمهور الذى يتكون من أفراد ذوى أعمار مختلفة ، يعنى أنه جمهور تتنوع وتتعدد داخله الإتجاهات والعقائد والقيم ، لإختلاف خبراتهم فى الحياة. وهذا يتطلب وضع هذه الإختلافات فى الحسبان عند اعداد الحديث الذى سيوجه اليهم.

ويعتبر الجنس من المتغيرات التى يصعب تحديد تاثيرها فى البنيان الإجتماعى للجمهور. وإذا كنا نقسمه بطريقة سطحية إلى ذكور واناث ، فإن اختلاف الأدوار النفسية التى يلعبها كل نوع منهما فى المجتمع ذو مغزى عميق ، يزيد فى أهميته عن اختلافهما من الناحية البيولوجية. وتؤكد الدراسات العلمية على عدد من التساؤلات التى تفيد الإجابة عنها فى الوصول إلى حقاءق تهم المتحدث ، وهى تدور حول مدى وجود إختلافات فى القيم بين النوعين ، ومدى وجود اختلافات فى الإتجاهات والعقائد ، ومدى علاقة هذه الإختلافات جميعها بموضوع الحديث ، واستجابة كل نوع منهما لما يستهدفه الحديث من أغراض.

أما العناصر الثقافية التى تتصل بالوطنية والعنصرية والشخصية وغيرها ، فإنها عوامل هامة فى البنيان الإجتماعى للجمهور ، لما تؤدى اليه من اختلافات فى الخبرة والإهتمامات والقيم والأهداف. وهذه الإختلافات لها تأثيراتها على الحديث والمتحدث معا.

ثم أن الإختلافات بين أفراد الجمهور من حيث العلم والذكاء ، تعنى اختلافات فى درجات النضج التى يتمتع بها الجمهور. ولاتقترن المتغيرات ببعضها دائما ، فلايشترط أن يكون الذكى متعلما ، ولا أن يكون المتعلم شديد الذكاء. وهناك حالات تقترن فيها هذه المتغيرات ببعضها. وهذه الحالات جميعها تؤثر على درجة استقبال الجمهور للحديث والمتحدث. ويهم المتحدث هنا أن يعرف مدى تاثير هذين المتغيرين على اهتمامات جمهوره ، ومدى المامه بموضوع حديثه.

وكذلك نجد تأثيرات مماثلة بين أفراد الجمهور من حيث المهنة والدخل والمكانة. ورغم أن هذه المتغيرات الثلاثة ليست لها معان واحدة ، الا أنها تتصل

ببعضها اتصالا ايجابيا. ويهم المتحدث أن يتعرف هنا على تأثير حديثه على مدى الأمان والإعتزاز المهنى ، وعلى مدى طاقة الجمهور على تحمل الحديث والإهتمام به.

أما الدين ، فإنه عامل له خطورته وحيويته . خاصة إذا علمنا أن الإختلافات بين الأديان بصفة عامة لها حسلسبتها ، وأن الإختلافات حول الدين الواحد لها واقعها وتأثيراتها. وتتنوع مواقف الناس من الدين مابين متعصب ومتسامح ومتحررا واتصال موضوع الحديث بجانب من الجوانب الدينية يتطلب تناولا حذرا ومتأنيا ومقنعا.

ويضيف البعض إلى هذه العوامل التى يقوم عليها البيان الإجتماعى للجمهور ، عوامل اخرى لها أهميتها أيضا ، كالتوقعات والإهتمامات والإنتماءات السياسية والتنظيمية ، وغيرها. وهى جميعها تعطى لهذا البنيان اتساعه وشموله فى مواجهة عنصر له خطورته وحيويته داخل النظام الإجتماعى للإتصال العام.

٢- البنيان النفسى للجمهور

إذا كان البنيان الإجتماعى للجمهور يقوم على متغيرات تؤكد على اختلاف هذا البنيان من جمهور إلى جمهور ، فإن البنيان النفسى للجمهور يقوم على متغيرات تزيد التأكيد على اختلاف هذا البنيان باختلاف الجماهير التى يتعامل معها المتحدثون داخل الأشكال المتعددة للإتصال العام.

ومن هذه المتغيرات النفسية ، مدى الإستعداد النفسى عند الجمهور لسماع الحديث الذى يوجهه متحدث معين فى موضوع معين داخل شكل معين من أشكال الإتصال العام. وهناك تنوع فى درجات هذا افستعداد النفسى. فالبعض داخل الجمهور قد يكون مشتاقا لسماع الحديث ، والبض قد يكون مهتما فقط ، أو جاء لمجرد اشباع حب الأستطلاع عنده. والبعض مستعد أن يدفع لكى يستمع. والبعض قد لايعير الموضوع أدنى اهتمام لأنه مرغم على الحضور. وتفاوت درجات الإستعداد يجعل مهمة المتحدث بالغة الصعوبة ، عندما يريد أن يربط اهتمام جمهوره بموضوع حديثه.

ومن هذه المتغيرات النفسية ايضا مدى تقبل الجمهور لحديث المتحدث. فبعض أفراد الجمهور قد لايتفقون مع المتحدث فى وجهة نظره ، وبعضهم قد يكون مؤيدا له ، والبعض قد يملك شعورا ايجابيا تجاه المتحدث وحديثه ، والبعض قد لايملك نفس الشعور. وقد لايكون هذا الإختلاف فى الشعور والقبول منصبا على شخص المتحدث ، بقدر ماهو منصب على بعض صفاته. ومن ثم ، قد يكون نفس الحديث مقبولا من متجدث آخر له مواصفات أخرى. وهذا الإستنتاج يكون أكثر وضوحا فى المجالات العنصرية والدينية والسياسية.

ومن هذه المتغيرات النفسية كذلك ، مستوى المعرفة بموضوع الحديث عند الجمهور. فقد يكون الجمهور علىعلم واسع بموضوع الحديث ، وقد يكون جاهلا به. وبين هاتين الحالتين درجات متفاوته من الجهل والمعرفة. وهذا المتغير يفرض على المتحدث أن يعلم مستوى المعرفة عند جمهوره ، حتى يعلم النقاط التى يؤكد عليها والنقاط التى يتجاهلها ، لكى لاينصرف الجمهور عنه.

وتضاف الىهذه المتغيرات النفسية ، درجة التوافق والتجانس بين أعضاء الجمهور. فكلما زاد التوافق والتجانس فى الإتجاهات والقيم والنعرفة والإستعداد ، زادت درجة االتشابه بينهم ، وزادت فعالية الإتصال تبعا لذلك. وكلما قلت درجات التوافق والتجانس ، كان الإتصال ضعيفا ومتعثرا.

وبذلك يتكامل البنيان النفسى والإجتماعى للجمهور بكل متغيراته ، لكى يعطى للجمهور كعنصر من العناصر الأساسية فى النظام الإجتماعى للإتصال العام أهميته ، وليصبح فهم هذا الجمهور قاعدة اساسية لفهم هذا النظام كله ، إذا اردنا أن نوفر له كل مضمونه وأبعاده فى الإتصال العام.

د - الإطار الموقفى

تمثل الجماعات الصغيرة أطرا موقفية لعمليات الإتصال الشخصى التى تجرى داخلها ، لأنها تعتبر نظما اجتماعية ذاتية ، بمعنى أن العوامل الشخصية تلعب دورا أساسيا فى تكوينها. لكن الوضع يختلف بدرجة كبيرة فيما يتعلق بالإتصال العام ، حيث لاتوجد مثل هذه العوامل الشخصية ، فالمتحدث والجمهور غالبا

مالايعرف احدهما الأخر ، والمناسبة هى التى جمعتهما معا. ومن ثم ، يكون الإطار الموقفى خارجا عنهما ، وتصبح العناصر المشكلة للنظام افجتماعى كلها عناصر خارجية التأثير ، وإن كانت متداخلة ومتكاملة ، لتصنع لهذا النظام الإجتماعى كيانه وسماته المتميزة.

ومن هنا كانت قدرة المتحدث على فهم الإطار الموقفى والتعامل معه ، من القدرات والمهارات الإتصالية المؤثرة على كفاءته وفعاليته خلال حديثه إلى جمهوره. ويتشكل هذا الإطار الموقفى من متغيرات لها أهميتها ، مثل حجم الجمهور والمكان الذى يجرى فيه الحديث والمناسبة والتوقيت والحدث المتصل بالخطبة إن وجد.

فمن المعروف انه كلما كبر حجم الجمهور ، كلما كان الحديث أقرب إلى أن يكون رسميا منظما. وكلما قل حجم الجمهور ، كلما كان الحديث عفويا وغير رسمى. ولكن هذا المتغير يرتبط بالمتغيرات الخرى للوصول إلى كل تاثيره على الحديث.

ومن المعروف أيضا ، أن ظروف المكان من حيث السعة والإستعداد والإمكانات ، وظروف التوقيت من حيث كفاية الزمن المسموح به للحديث ، ومدى ملاءمته جسميا وذهنيا ونفسيا للمتحدث وجمهوره ، وكذلك المناسبة ومدى اهميتها للمتحدث ولجمهوره وما قد يدعمهما من أحداث ، وكلها متغيرات تتعاون مع حجم الجمهور لإعطاء الإطار الموقفى كل مضمونه وأبعاده وتاثيراته ، كأحد العناصر الأساسية المشكلة للنظام افجتماعى للإتصال العام.

ꕥꕥꕥꕥꕥꕥꕥꕥ

وبذلك نكون أمام نظامين من الأنظمة الإجتماعية للإتصال ، وهما: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الصغيرة ، والنظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الكبيرة. وكلاهما يقوم على الإتصال الشخصى بدرجات متفاوته.

وفيما عدا هذا القاسم المشترك بين النظامين ، وجدنا إختلافات كثيرة ، سواء فيما يتعلق بطبيعة العناصر المشكلة لكل منهما ، أو بطبيعة المتغيرات التى يتفرع

اليها كل عنصر منها ، أو بطبيعة العلاقة بين هذه العناصر ومتغيراتها. ونتج عن هذه الإختلافات جميعها سمات مميزة لكل نظام منهما ، لعل أهمها أن النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الصغيرة يمكن اعتباره نظاما داخليا ويتمتع بقدر كبير من الإستقرار والإستمرار. بينما يمكن أن نصف النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الكبيرة بانه نظام خارجى لأنه يقوم على عناصر مستقلة تتكامل معا فى وقت معين وفى مكان ما وفى مناسبة معينة لتصنع النظام الاجتماعى لهذا الإتصال. بينما التكامل بين عناصر النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الصغيرة ، تكامل بين عناصر داخلية بينها اعتماد متبادل.

وهذا يعنى أن النظام الإجتماعى للإتصال يرتبط اجتماعيا ونفسيا بطبيعة الجماعة التى يحدث داخلها أو معها. كما أنه يعنى أن الإنتقال من مستوى اتصالى إلى آخر ، ماهو إلا إنتقال من جماعة لها طبيعة معينة إلى جماعة لها طبيعة مختلفة ، بكل مايعنيه هذا الإختلاف من نظام اجتماعى مختلف كذلك.

ويبرز هنا تساؤل هام حول ألوان الإتصال الشخصى التى يقوم بها الأفراد لتحقيق غايات شخصية ، كالشراء والبيع وقضاء المصالح وتبادل حديث عابر خلال لقاء عابر ، وهل هى تجرى داخل نظام اجتماعى أيضا؟ ! والى أى النظم الإجتماعية تنتمى؟!

وإذا راجعنا مواصفات هذه الألوان من الإتصال ، لوجدنا أنها تنطبق بدرجات متفاوته على النظام الإجتماعى للإتصال العام إذا وسعنا من مفهوم صفة العمومية التى التصقت حتى الأن فى تحليلنا السابق بالجماعات الكبيرة ، لكى يصبح النظام الإجتماعى للإتصال العام صالحا للتطبيق على هذه الألوان جميعها ايضا.

ꕥꕥꕥꕥꕥꕥꕥꕥ

المبحث الثانى
النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الرسمية

يختلف علماء الإجتماع فيما بينهم حول مفهوم الجماعات الإنسانية بصفة عامة ، وحول تقسيمها إلى أنواع متمايزة بصفة خاصة. ونحن هنا ، لايهمنا الدخول فى متاهات هذه الإختلافات ، وإنما يهمنا أن نأخذ من النتائج التى توصلوا اليها بالقدر وبالكيفية ، مايخدم الأغراض المستهدفة من دراستنا هنا.

وعلى ذلك ، يكون علينا أن نحدد العلاقة بين الجماعات الإنسانية من ناحية ، وبينها والمجتمع من ناحية أخرى ، كمدخل إلى تحليل الأنظمة الإجتماعية فى الجماعات الرسمية ، وهى أنواع من الجماعات الإنسانية ، للوصول إلى درجة مقبولة من التكامل بين الأنظمة الإجتماعية للإتصال على مستوى المجتمع كله.

ففى دراسة علمية ، قام بها أرنولد جرين A.Green قدم تعريفا للمجتمع وجماعاته ، قال فيه [١]: إن المجتمع هو عبارة عن جماعة من الأفراد ، لها تنظيم سلوكى دائم ، ويحدث بينها تفاعل مستمر. والمجتمع هو الجماعة الأكبر نسبيا ، والتى لها مصالح مشتركة وأرض مشتركة ونمط للحياة مميز ومشترك ، ولها أيضا انتماء مشترك. وهذه السمات المشتركة تميز المجتمع ككل فى مواجهة المجتمعات الأخرى.

ويضيف أرنولد جرين A. Green أن الجماعة الأكبر نسبيا ، والتى يقوم عليها المجتمع الإنسانى ، تضم كل الجماعات الأخرى المتفرعة عنها ، وتجمع بينها ، وتوحد بين مشاعرها ، بما يشدها جميعها من معانى الإنتماء المشترك ، وإن كان هذا لايتعارض مع وجود مصالح مشتركة لكل جماعة منها ، أو مع وجود نظام بنائى لها ، له تفاعلاته وثقافاته المشتركة التى تنتظم سلوك أعضائها وتحكمه.

---

(١) Green.A.Sociology : An Analysis of life In Modern Society. New York: McGraw -Hill. 1952.Pp. 29 - 43.

ويضيف هذا الباحث أيضا ، أن هذه الجماعات التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى كجماعة أكبر نسبيا ، تقسم إلى جماعات أولية وجماعات ثانوية. ويقصد بالجماعات الأولية ، تلك الجماعات الصغيرة التى يتوفر لأعضائها اتصالا شخصيا مباشرا ، ويكون صغر حجمها إلى الدرجة التى تسمح بالتقارب العاطفى والمكانى والتعارف وانكار الذات ، وكلما كان الحجم أقل ، كانت هذه الصفات أقوى. أما الجماعات الثانوية فلا يجمع كل منها مكان واحد ، ولايقوم بين أعضائها اتصال مباشر ، وتحكمها قواعد منظمة ومقننة. وتمثل المؤسسات او المنظمات بكافة أنواعها هذه الجماعات الثانوية. وتستطيع هذه الجماعات الثانوية أن تبقى وأن تستمر بسبب قيام كل منها على عدد من الجماعات الأولية المتداخلة.

وهناك تقسيم أخر قدمه ثلاثة باحثين ، وهو يؤكد على هذا التقسيم ، وأن كان يختلف عنه فى المسميات ، حيث يطلق على الجماعات الأولية مصطلح الجماعات النفسية ، ويطلق على الجماعات الثانوية مسمى المؤسسات الاجتماعية، وبدون اختلاف حول الصفات المميزة لكل نوع [١].

وفى دراسة أخرى قام بها أكوف F. Acuff وأخرون ، نجد أنهم يحددون عددا من الصفات التى تقوم عليها الجماعات الإنسانية بكل أنواعها. ويتفقون على أن التنوع بينها ماهو إلا تنوع فى درجات توفر هذه الصفات. وهذه الصفات التى يجب توفرها فى كل جماعة انسانية بدرجة ما ، هى [٢]:

- أن تكون لها وحدة تميزها ككل ، وتميز أعضاءها فى مواجهة الجماعات الأخرى.
- أن يكون لها بناء إجتماعى. (وصف البناء هنا بأنه اجتماعى يقصد به حالته وهو فى وضع دينامى).

---

(١) Krech , D.& Others. Individual In Society. New York: McGraw-Hill, 1962. Pp. 383- 384.

(٢) Acuff,F. & Others. From Man To Soociety. Hinsdale , Illinois: The Dryden Press, 1973. Pp. 149-150

- أن تكون أدوار أعضائها محددة تحديدا واضحا.
- أن يتوفر لها قواعد سلوكية متعارف أو منصوص عليها.
- أن يكون لها مصالح مشتركة وقيم مشتركة.
- أن تعرف طريقها إلى أهدافها.
- أن يتوفر لها استقرار نسبى واستمرار نسبى.

وبناء على هذه الصفات الموحدة تختلف الجماعات فى أحجامها ومدى استمرارها وبقائها داخل النظام البنائى للمجتمع كله ، وهو الجماعة الأكبر التى تضم الجماعات المتفرعة عنها وتنظم بينها. وما ينطبق على هذه الجماعات ، ينطبق على المجتمع الذى تنتمى اليه.

وبذلك ، يتبين ان هناك وحدة تجمع بين كل الجماعات وبكل أنواعها من ناحية ، وبينها والمجتمع كجماعة من ناحية ثانية. وهذه الوحدة تتمثل فى الصفات المشتركة بينها ، والتى لابد من وجودها بدرجات متفاوته فى هذه الجماعات جميعها.

كما يتبين أن الإنتقال من الجماعات الإجتماعية ، التى تناولناها ، إلى الجماعات الرسمية ، وهو المسمى الذى اختاره بعض علماء الإجتماع للجماعات الثانوية أو المؤسسات افجتماعية ، يعنى انتقالا من جماعات لها طبيعة خاصة إلى جماعات ذات طبيعة مختلفة ، وإن كانت جميعها تقوم عليها ، وبدون تجاهل للصفات المشتركة التى توحد بينها.

واخيرا ، يتبين أن الجماعات تتداخل فيما بينها. وبالتالى ، فإن الأنظمة الإجتماعية للإتصال تتداخل فيما بينها أيضا داخل المجتمع الواحد ، مشكلة النظام الإجتماعى للإتصال فى كل مجتمع ، والذى يتداخل بدوره مع الأنظمة افجتماعية للإتصال فى المجتمعات الخرى على مستوى العالم كله.

ونظرا لصعوبة تناول هذه الأنظمة جميعها ، فإن التعميم يصبح أسلوبا مناسبا لإعطاء صورة عامة ، يتحقق بها الغرض من دراستنا هنا. وعلى ذلك ، نستطيع

أن نحدد نظامين اجتماعيين للإتصال يتوزعان على جماعتين رسميتين ، ويختص كل منهما بشكل من أشكال الإتصال.

ويمكن أن نطلق على النظام الأول مصطلح النظام افجتماعى للإتصال فى الجماعات الرسمية العامة ، وهى المنظمات أو المؤسسات التى تستهدف أهدافا عامة تتوزع على كل مجالات الحياة ، كالمنظمات الإقتصادية والمالية والإجتماعية والحكومية ، وما شابه ذلك. وتمارس هذه المنظمات جميعها الإتصال المؤسسى الذى يعتبر شكلا رئيسيا من اشكال الإتصال ، ويقوم على أحداث التكامل بين الإتصال الشخصى والإتصال الجماهيرى كشكلين أخرين.

أما النظام الثانى ، فيمكن أن نطلق عليه مصطلح النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الرسمية المتخصصة ، وهى المنظمات أو المؤسسات الاتصالية الجماهيرية ، كالمؤسسات الصحفية والاذاعية ودور النشر. وتمارس هذه المؤسسات جميعها الإتصال الجماهيرى من خلال وسيلة أو أكثر من وسائله ، وهو شكل يقف بمواصفاته متميزا عن الأشكال الأخرى.

أولا: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الرسمية العامة

تجمع الدراسات العلمية الإجتماعية على أن هذه الجماعات الرسمية العامة ، يقصد بها تلك المؤسسات والمنظمات المعاصرة ، التى تقوم على تنظيمات اجتماعية متعمدة وهادفة لجماعات من الناس ، تستهدف تحقيق أغراض واضحة ومحددة. ولكل تنظيم اجتماعى منها بنيان رسمى يعبر عن سلوك عقلانى. وهى تتوزع وتنتشر وتتنوع باتساع الأنشطة الإنسانية وتنوعها ، والتى تتطلبها الحياة الإجتماعية المشتركة للأفراد والجماعات فى كل مجتمع. وأهم هذه المؤسسات والمنظمات المعاصرة مايعرف بالمؤسسات الحكومية والإقتصادية والإجتماعية. وهى الأنواع التى تعنينا هنا ، والتى ينطبق عليها مفهوم الجماعات الرسمية العامة

وتتصف هذه الأنواع الثلاثة من المؤسسات المعاصرة بعدد من الصفات العتى تميزها عن غيرها. فهى تتميز بعدم وضوح حدودها نظرا لوجود تداخل بينها وبين العناصر المشكلة لها. وتتميز بوجود طبيعة خاصة لكل منها. وتتميز بقيامها على

التنظيم والتخطيط. وتتميز بعدم اعتمادها على أعضاء محددين ، أى أن أعضائها يتغيرون تدريجيا. كما تتميز بالأداء غير المتغير نسبيا ، أى أنها تتميز بالثبات النسبى لأسلوبها فى العمل. وأخيرا تتميز بثبات العناصر الساسية التى يقوم عليها النظام الذى يحكم بيئة العمل. وهذه كلها صفات مشتركة بين الجماعات الرسمية العامة جميعها.

ويرتبط الأتصال بهذه المؤسسات الرسمية العامة ارتباطا عضويا ووظيفيا. فعندما تبدأ مؤسسة منها ، يصبح الإتصال ضروريا وحيويا على كل المستويات وفى كل الإتجاهات. ويطلق عليه مصطلحات كثيرة ، منها الإتصال الإدراى والإتصال التنظيمى والإتصال المؤسسى أو التأسيسى ، وغيرها.

ونستطيع هنا أن نتناول الإتصال فى هذه المؤسسات من زاويتين: أحداهما ، تصف النظام الإجتماعى لهذا الإتصال ، والأخرى تصف الوظائف التى يؤديها. والزاويتان تتكاملان معا فى تصوير هذا الإتصال على أنه جزء لايتجزأ من كل مؤسسة ، على إعتبار أنها نظام إجتماعى كامل يحكمه ويوجهه.

أ – وصف النظام الإجتماعى للإتصال المؤسسى

وضع العلماء نماذج عديدة لوصف النظام الإجتماعى للإتصال المؤسسى. ويمكن أن نختار منها مايتفق من الغراض المستهدفة هنا ، على أن نضع فى الإعتبار على أن هذه النماذج جميعها ، ماهى إلا تصورات نظرية ، ولهذا يضعون أمامها عددا من التحفظات عند الأخذ بها أو بأحداها فى مجال التطبيق.

ولقد أخذنا هنا النموذج الذى قدمه سانفورد A.SANFORD وزملاؤه فى دراسة علمية لهم حول السلوك الإتصالى فى المؤسسات المعاصرة. ويقوم هذا النموذج على عدد من المتغيرات الداخلية والخارجية التى يتشكل منها النظام الإجتماعى لهذا الإتصال. وتتوزع هذه المتغيرات على أربعة أقسام ، يختص كل قسم منها بجزء من أجزاء هذا النظام الإجتماعى: أولها ، يختص بالمتغيرات الخاصة بفعالية المؤسسة. وثانيها يختص بمتغيرات البيئة الخارجية. وثالثها ، يختص بالمتغيرات الداخلية. ورابعها يختص بالكيفية التى تتحول بها هذه المتغيرات

جميعهـا إلـى نظـام اتصـالى قـد يـؤدى أو لايـؤدى إلـى فعاليـة المؤسسـة. (انظر شكل ١)(١).

١ – المتغيرات الخاصة بفعالية المؤسسة:

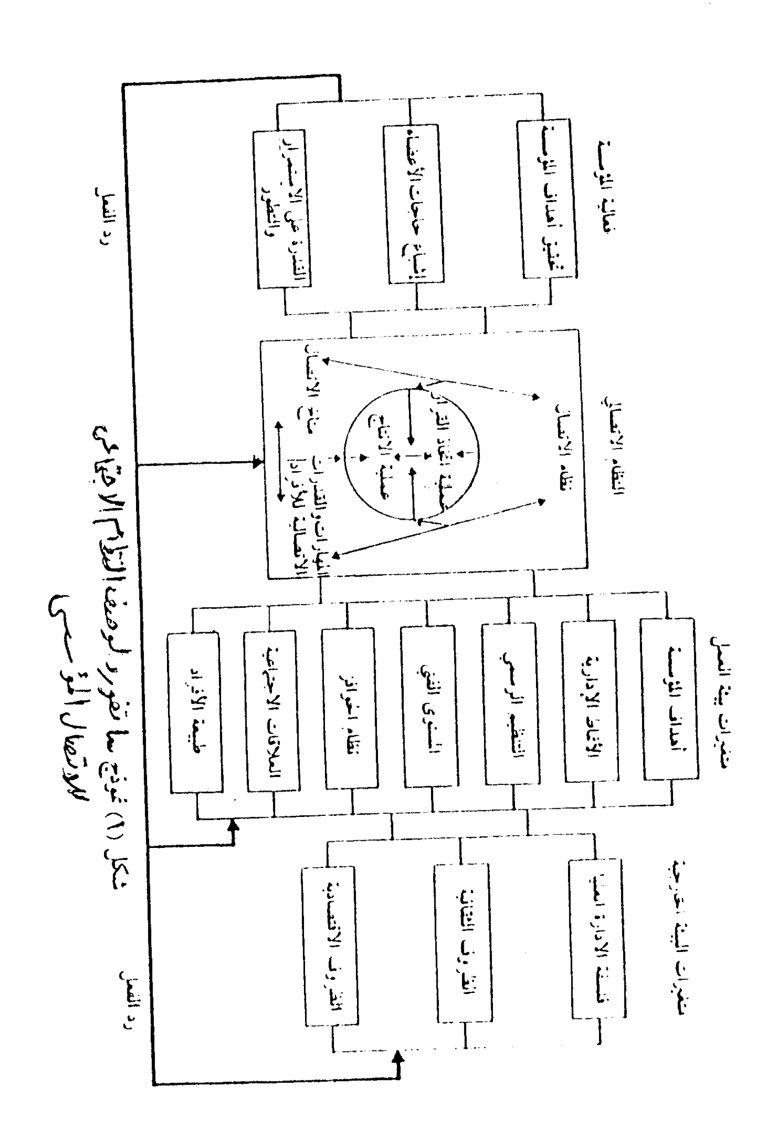
إن فعالية أى مؤسسة هى التى تحدد تحديدا أساسيا نوعية الحياة التى يحياها الناس فى المجتمع الذى تنتمى اليه هذه المؤسسة أوتلك. ذلك ، لأن الناس يعتمدون على المؤسسات فى مجتمعاتهم ، ليس فقط لإمدادهم بما يحتاجون اليه من سلع وخدمات ، ولكن أيضا كمصدر لأرزاقهم. ولذلك ، تمارس المؤسسات تأثيرا مباشرا وغير مباشر على حياة الناس فى كل مجتمع.

لكن الباحثين لايتفقون تماما حول القياس الذى يمكن أن يكون قاعدة للحكم على فاعلية مؤسسة ما ، وإن كان هناك اتفاق بينهم حول بعض العموميات التى تصلح بصفة عامة للفصل بين فعالية مؤسسة معينة أو عدم فعاليتها. ومن هذه العموميات مايتصل بدرجة ماتحققه كل مؤسسة من أهداف بأقل تكاليف ممكنة ، ومايتصل منها بدرجة اشباع لحاجات أعضائها ، وما يتصل منها بمدى نمو قدرتها على افستمرار فى تحقيق نمومطرد للدرجتين السابقتين. ولاشك أن هذه العموميات الثلاث لها مغزاها ، سواء بالنسبة للمؤسسة ، أو بالنسبة للعاملين بها ، أو بالنسبة للمتعاملين معها من خارجها.

ولاشك أن فعالية كل مؤسسة ، والتى تتحدد بهذه العموميات الثلاث ، تتأثر بعوامل كثيرة ، منها ما ينتمى إلى نظام الاتصال الناتج عن المتغيرات الداخلية والخارجية وما ينتمى إلى المتغيرات الداخلية والخارجية أو هى جميعها ، والتى تؤثر كل منها فى الأخرى وتتأثر بها. وهذا يعنى أن فعالية المؤسسة نتاج لكل المتغيرات الداخلة فى الأقسام الثلاثة الأخرى التى يتكون منها جميعها النظام الإجتماعى للإتصال المؤسسى.

---

(١) Sanford , A.& Others Communications Behavior In Organizations. Columbus , Ohio: Merrill. 1976. PP. 14- 25



شكل (١) نموذج سما تصوره لوصف النظام الاجتماعي للاتصال المؤسسي

٢- المتغيرات الخاصة بالبيئة الخارجية:

لاتعمل المؤسسات فى فراغ ، وانما تعمل داخل بيئات اجتماعيـة تحيط بها ، وعليها أن تتفاعل مع هذه البيئات تأثيرا وتاثرا. ولاشك أن معرفـة المتغيرات فـى البيئة الإجتماعية وتأثيراتهـا ، تـؤدى إلـى فهـم المؤسسـات التـى توجد فيهـا. فمن الأقوال المأثورة ، أنك إذا أردت أن تفهم شيئا ، فعليك أن تفهم مايحيط به.

وبحسب النموذج الإتصالى الذى نستشهد به ، نجد ثلاثة متغيرات تشكل البيئة الإجتماعيـة وتأثيراتهـا. هـى: فلسـفة الإدارة العليـا والظـروف الثقافيـة والظـروف الإقتصادية. وهى ثلاثة متغيرات تجد جذورها فى البيئة الإجتماعية ، وتؤثر علـى كل مؤسسة توجدفيها ، بدرجة تجعلها جزءا أساسيا من هذا النموذج الإتصالى.

ويلاحظ هنا أن هذه المتغيرات الخارجية جميعها لاتؤثر على المؤسسة فرادى، ولكنهـا تتداخـل معـا فـى تاثيراتهـا. فالفلسـفة الإداريـة تتـأثر بكـل الظـروف الثقافيـة والإقتصادية والظروف الثقافية تتأثر بالقيم الإقتصادية وتؤثر فيهـا. بمعنـى أن هذه المتغيرات جميعها تتصل معا وتتفاعل معا ، لتصنع إطارا يحيط بكـل مؤسسـة ، ومن تأثيراته يتحدد البناء الداخلى لكل مؤسسة.

٣- المتغيرات الخاصة ببيئة العمل:

تتحدد المتغيرات الداخلية هنا بتلك المتغيرات التى تتأثر بالمتغيرات الخارجيـة، وتؤثر فى النظام الإتصالى. وتعتبر أهداف المؤسسة وطبيعة الأفـراد العـاملين فيهـا والتنظيم الرسمى لها ومستواها الفنى ، أهم هذه المتغـيرات. وهـى لاتعمـل فـرادى أيضا ، وإنما تتداخل تأثيراتها فـى الواقـع. ويجئ الفصـل بينهـا فـى هـذا النمـوذج استجابة لمتطلبات الدراسة والتحليل. وتنعكس خلاصة تأثيراتها جميعها على فعاليـة النظام الإتصالى فى كل مؤسسة ، والذى ينعكس بدوره على فعالية المؤسسة.

٤- المتغيرات الخاصة بالنظام الإتصالى

يتكون كل نظام اتصالى فى كل مؤسسة مـن ثـلاث متغيرات أساسـية ، هـى: الكيفيـة التـى ينظـم بهـا الإتصـال ، ومنـاخ الإتصـال ، والمهـارات والقـدرات الإتصالية للأفراد. وهذه المتغيرات تتفاعل معا بالكيفية التى تتحدد بها مدى فعاليـة

النظام الإتصالى لمؤسسة معينة. وفعالية النظام افتصالى تؤثر بدورها على عمليتين اساسيتين ، هما: عملية إتخاذ القرارات وعملية الإنتاج ، وهاتان العمليتان تؤثران تبعا لذلك على فعالية المؤسسة كلها.

فكل مؤسسة لها طريقة رسمية تنظم بها الإتصال بالكيفية التى تخدم حاجتها إلى المعلومات. وهذه الطريقة الرسمية تحدد الأفراد الذين يرسلون المعلومات ، وتحدد الأفراد الذين يتلقون هذه المعلومات ، وتحدد وقت إرسالها واستقبالها.وقد تكون الطريقة الرسمية غير مكتوبة أو منصوص عليها ، ولكنها بالتأكيد تمثل تقليدا متبعا ومعترفا به ضمنيا.

وتجد هذه الطريقة الرسمية لتنظيم الاتصال أسسها وقواعدها فى التنظيم الرسمى لكل مؤسسة. فالتسلسل الرئاسى وتفويض السلطة وعلاقاتهما ، تمثل جزءا رئيسيا فى نظام الإتصال. والى جانب هذه القنوات الرأسية للإتصال ، هناك قنوات أخرى تستخدم فى نقل المعلومات إلى العاملين ، بالكيفية التى تتناسب مع أداء العمل. وهذه القنوات جميعها تشكل النظام الإتصالى فى كل مؤسسة.

ولكل مؤسسة ايضا مناخها الإتصالى ، بمعنى أن لكل مؤسسة مناخا يجرى الاتصال داخله ويشكل اتجاهات الأفراد نحوه. وهذا المناخ نتاج لمستوى الثقة المتبادلة بين العاملين من ناحية وبينهم وبين المستويات الإدارية من ناحية أخرى ونتاج أيضا لمدى تأييد العاملين وانتمائهم ، ونتاج كذلك امدى الإحترام المتبادل بينهم من ناحية ، وبينهم وبين المستويات الإدارية من ناحية ثانية. وكلما ارتفعت درجة هذه العوامل جميعها ، نتجت عنها اتجاهات إيجابية نحو الإتصال ، والعكس صحيح. وبالتالى ، يمكن القول أن مناخ الاتصال فى هذه المؤسسة أو تلك مناسب أو غير مناسب.

أما المهارات والقدرات الإتصالية الخاصة بالأفراد فأنها تعتبر من المتغيرات الأساسية فى كل عملية اتصال بصفة عامة ، وفى النظام الإتصالى لكل مؤسسة بصفة خاصة. فالإتصال ، كعملية اجتماعية ، يعتمد اعتمادا أساسيا على المهارات والقدرات التى تتوفر للأطراف القائمين به ، والإتصال كنظام لايكتمل

ولايؤدى بفاعلية إلا إذا توفرت مهارات وقدرات معينة فيمن يمارسه داخل كل مؤسسة. ومن أهم القدرات الإتصالية: القدرة على التفكير ، والقدرة على التعبير ، والقدرة على الإستجابة المناسبة ، والقدرة على الإستماع والأستيعاب ، والقدرة على الفهم والإفهام. وهذه كلها قدرات لايمكن تصورقيام الإتصال ذاته بدونها.

تلك كانت المتغيرات التى ضمتها الأقسام الأربعة الرئيسية التى يتكون منها النموذج الذى قدمه سانفورد A.Sanford وزملاؤه للنظام الاجتماعى للإتصال فى المنظمات والمؤسسات الرسمية المعاصرة. ويرى أصحاب هذا النموذج ، ان فعاليته تعتمد على نوعية الأجزاء المكونة له ومتغيراتها وعلى درجة التفاعل بينها. وكلما كانت هذه الأقسام أو الأجزاء الأربعة ايجابية لإيجابية متغيراتها ، كان النظام الإتصالى ايجابيا ، والعكس صحيح.

وبناء على هذا النموذج ، نستطيع ان نستنتج أن الإتصال المؤسسى جزء لا يتجزأ من النظام الإجتماعى المؤسسة كلها ، ويرتبط معه بعلاقة عضوية ووظيفية، فهو يتاثر به ويؤثر فيه ، بمعنى أن المؤسسة ، بكل متغيراتها الداخلية والخارجية، تشكل نظاما اجتماعيا للإتصال المؤسسى ، على أن تأخذ فى الإعتبار مابين المؤسسات المعاصرة من إختلاف فى طبيعتها وظروفها وامكاناتها وفلسفتها، وهذه الإختلافات جميعها تشكل واقعها وواقع النظام الإجتماعى للإتصال بها

ب – الوظائف التى يؤديها الاتصال المؤسسى داخل نظامه الإجتماعى

يقوم الإتصال المؤسسى بعدد من الوظائف داخل نظامه الإجتماعى وفى مواجهة المؤسسة التى يقوم عليها وتستخدمه. ولكل وظيفة من هذه الوظائف اسهامها فى تطور كل مؤسسة. وقد استطاع الباحثان مكدونالد D.McDonald وفاراس R.Faras تحديد هذه الوظائف فى دراسة لهما ، كما يلى [١]:

---

(١) McDonald , D.& R.Farace, " New Directions In Organizatioal Communication", personal Psychdology , 1974.Pp. 1-11.

١ – وظيفة التكامل

التكامل أبعد معنى من التنسيق وأشمل منه ، على الرغم من أنهما يتصلان ببعضهما اتصالا وثيقا. فعند استخدامنا التنسيق لانحتاج الا أن يكون الأعضاء فى مؤسسة معينة على علم ووعى بما يقوم به الأخرون. بينما يعنى التكامل ان تتوحد الأفكار والمنتجات ومساهمات الأعضاء داخل اطار عمل واحد. فالتكامل يتحقق من خلال عمل الأعضاء جميعهم داخل اطار من الإعتماد المتبادل. ولابد أن يتكامل كل عمل فردى داخل اطار العمل الكلى الذى يؤدى إلى زيادة فعهالية كل مؤسسة. ولكن هذا لايعنى انفصال التنسيق عن التكامل ، وإنما الواقع يؤكد على وجود مستويات لكل منهما داخل كل مؤسسة. ولايمكن تصور قيام أى منهما بدون الإتصال الفعال.

٢ – وظيفة المحافظة على المؤسسة

ان المؤسسات ، كالكائنات الحية ، ينبغى أن تحافظ على نفسها داخل بيئتها المحددة الإمكانيات. والمعلومات التى تصلها من البيئة لها أهميتها ، لكى تستطيع أن تتوافق مع الظروف المتغيرة فى البيئة. وهذه المعلومات ينبغى أن تصل إلى الإدارة العليا فى وقت مناسب ، لإتخاذ ماتراه مناسبا من اجراءات عملية تحقق بها التوافق مع ما يواجهها من تغيرات. وغذا لم تملك المؤسسة القدرة على أن تتلقى هذه المعلومات من خلال نظامها افتصالى فى الوقت المناسب ، وأن تتوافق مع متطلباتها فى الوقت المناسب أيضا ، فإنها لاتعيش.

٣– وظيفة التوجيه

ويقصد بهذه الوظيفة توجيه العاملين ، بما تصدره الإدارة العليا والمستويات الإدارية المتفرعة عنها من معلومات تتصل بسير العمل ، ومن المعروف انه بدون توفر قدر من هذه المعلومات لدى كل فرد ، فإنه لايستطيع أن يمارس عمله. وغالبا مايكون هناك برامج توجيهيه ، تترجم إلى اجراءات عملية داخل كل مؤسسة. **ومع ذلك ، فالحاجة إلى** التوجيه دائمة ومستمرة داخل كل **مؤسسة** ،

طالما أن هناك إستعدادات دائمة لمواجهة التغيرات فى الأعمال القائمة أو المتطلبات التى تفرضها الأعمال الجديدة.

٤- وظيفة تنمية العضوية

يقصد بها تنمية المهارات والقدرات الخاصة باعضاء المؤسسة طوال فترة انتمائهم اليها. وهذه الوظيفة ينعكس تاثيرها على المؤسسة ككل وعلى كل عضو فيها. وتتحقق هذه الوظيفة من خلال معرفة كل عضو بفرص التطور المتاحة أمامه واقتناعه بأهميتها.

٥- وظيفة اتخاذ القرار

يعتمد القرار الصحيح على توافر المعلومات الصحيحة ، والعكس صحيح. وكل إدارة عليا فى كل مؤسسة تحتاج إلى اتخاذ العديد من القرارات الصحيحة لمواجهة التغيرات والصراعات والتحديات. وإذا كان الموقف غامضا ، صعب عليها اتخاذ مثل هذه القرارات الصحيحة. ويوفر الإتصال الفعال لها المعلومات الصحيحة التى تجعل الموقف أمامها واضحا ، وبالتالى ، يسهل عليها اتخاذ القرار الصحيح المناسب.

ومن الواضح أن هذه الوظائف جميعها ، تعنى أن الإتصال يوفر لكل مؤسسة دينامية فعالة وهادفة ، سواء داخل بيئة العمل أو داخل البيئة الإجتماعية المحيطة بها. وهى بهذه الدينامية الفعالة الهادفة تحقق التوافق لنفسها ، والتوافق مع أعضائها ، والتوافق مع المتغيرات خارجها. وهى جميعها تمثل ضرورة للحياة السليمة ، وضرورة للإستمرار المتوازن المطرد.

ومن الواضح أيضا ان هذه الوظائف جميعها يؤديها الإتصال لكل مؤسسة من خلال إستخداماته العملية. وتقسم الدراسات العلمية هذه الإستخدامات إلى استخدامات داخلية وإستخدامات خارجية. غير أنها لم تتفق حول مضمون كل منها،

ولاتفصل بينها فصلا حادا ، وأن كانت تعترف بالإعتماد المتبادل بين هذه الإستخدامات ، كما تعترف بالتاثير المتبادل بينها [١].

وقد انتهينا فى دراسة لنا حول إتصال المؤسسى إلى أنه من الإفضل أن تقسم هذه الإستخدامات العملية إلى نوعين: أولهما الإستخدامات الرئيسية ، ويقصد بها مايسمى بالإستخدامات الداخلية بكل مضمونها واتجاهاتها ، والتى تتركز على مجالى الإنتاج والخدمات وتخدم أساسا تلك الوظائف والأهداف التى قامت المؤسسة من اجلها. ومن أهم هذه الإستخدامات: اتخاذ القرارات وإدارة الصراع وأحداث التغيير وتطوير الأفراد والجماعات داخل المؤسسة.

وثانيهما ، الإستخدامات المساعدة ، ويقصد بها مايسمى بالإستخدامات الخارجية بكل مضمونها وإتجاهاتها أيضا والتى تساعد كل مؤسسة على أن تقوم بعملياتها الرئيسية فى ظروف أفضل ، أو تساعد على أن تصل هذه العمليات الرئيسية إلى هدف محدد. ومن اهم هذه الإستخدامات المساعدة التسويق والترويج والإعلان والعلاقات العامة. ويقوم هذا التقسيم الذى وصلنا اليه على تخطى الخلاف بين الباحثين ، مع مراعاة طبيعة هذه الإستخدامات وعلاقاتها [٢].

ثانيا: النظام الإجتماعى للإتصال فى الجماعات الرسمية المتخصصة

يقصد بالجماعات الرسمية المتخصصة تلك المؤسسات المتخصصة فى الإتصال الجماهيرى ، كالمؤسسات الصحفية والإذاعية ودور النشر والإنتاج السينمائى. وهذا يعنى أن القائم بالاتصال الجماهيرى لايعمل مباشرة فى مواجهة جماهيره ، ولكنه يعمل من خلال مؤسسة متخصصة يقوم بالعمل بها فريق متكامل من تخصصات عديدة. وهى تشكل مع باقى العناصر الأخرى نظاما إجتماعيا للإتصال الجماهيرى داخل كل مجتمع. والمؤسسة ككل ، تعتبر هى المحركة لهذا

---

(١) Allen . R. Organizational Mangement Through Communication.new York: Harper & Row . 1977. Pp. 232 - 333.

(٢) انظر دراسة لنا بعنوان: " المدخل إلى الإقناع فى المؤسسات المعاصرة: دراسة تطبيقية على الإتصال الإدارى.جدة: مكتبة مصباح ، سنة ١٩٨٩. ص ص: ٢١ - ٢٣.

النظام الإجتماعى ، حيث تنتج الرسائل وتستهلك لتحقق الأغراض التى تستهدفها فى المجتمع[1] .

وليس معنى قولنا أن المؤسسة تعمل كفريق عمل متكامل ، وأن القائمين بالإتصال محرومون من حريتهم ، أو أنهم أدوات تعمل أليا داخل المؤسسة. ولكن الحقيقة أن كل فرد فيها له قدرمن الحرية التى تمكنه من أداء عمله بالكيفية التى يراها مناسبة ، داخل اطار السياسة التى يحددها أصحابها أو مجلس اداراتها ، والتى قد تحكمها بعض الاعتبارات الإقتصادية والسياسية والعقائدية إلى جانب ظروف المنافسة بين المؤسسات المماثلة.

ورغم أن لكل مؤسسة طبيعتها الخاصة ، إلا أنه لدواعى تبسيط التحليل هنا ، سوف نركز على العناصر المشتركة التى يتشكل منها النظام الاجتماعى للإتصال الجماهيرى بصفة عامة ، على أن نتجاوز بدرجة ما عن اختلاف الوسائل التى يقوم عليها داخل كل مؤسسة متخصصة.

وهنا نستطيع أن نحدد خمسة عناصر أساسية ، يتشكل منها النظام الإجتماعى للإتصال الجماهيرى ، وهى: الممولون والمنتجون والموزعون ، والمعلنون ، والهيئات الرقابية ، والجمهور المستهدف والإطار الإتصالى أو الوقفى. وهذه العناصر جميعها تتداخل معا ونتبادل التأثير داخل نظام اجتماعى دينامى هادف. وفيما يلى ، نتناول هذه العناصر بشئ من التفصيل:

١ - الممولون والمنتجون والموزعون

تحولت مؤسسات الإتصال الجماهيرى إلى صناعات معقدة ، تنتج سلعا تتحكم فيها اعتبارات اقتصادية كثيرة ومتعددة ، بفضل التطور التكنولوجى. فالصحيفة والمجلة والكتاب والفيلم والإنتاج الإذاعى ، سواء المسموع منه أو المرئى المسموع من خلال الراديو والتليفزيون ، كلها سلع غالبية تنتجها صناعات متقدمة

---

[1] Merrill . J.& Other. Modern Mass Media. N. Y.: Harper Cellins College Pub. , 2 ed editien , 1994. P. 27.

ومتطورة. ولقد زادت ثورة تكنولوجيا الإتصالات والمعلومات هذه الصناعات تطورا وتعقيدا

وإذا كان قارئ الكتاب يدفع تكاليف صناعته بالكامل ، فإن قارئ الصحيفة أو المجلة أو مستمع الراديو أو مشاهد التليفزيون والفيلم لايتحمل إلا نسبة ضئيلة من التكاليف ، ويتحمل المعلنون الغالبية العظمى من تكاليف الإنتاج. ومن هنا تأتى أهمية الممولين والمنتجين فى توفير المقومات الأساسية لهذه الصناعات.

ويعتبر المنتجون عنصرا أساسيا فى النظام الإجتماعى للإتصال الجماهيرى إلى جانب الممولين والموزعين الذين يحصلون منهم على المال اللازم لإنتاج المحتوى المطلوب بالنوعية المستهدفة. ويحكم الجميع نظام وظيفى متخصص ويتنوع بتنوع الوسائل والوسائط المنتجة ، ويتنوع أيضا بتنوع المضمون فى كل منها. ومن أهم الوظائف المتخصصة التى يشملها النظام: الممثلون والمخرجون ومنتجو الأفلام والإذاعيون والفنيون والمراسلون والمندوبون ورؤساء الأقسام الإخبارية العالمية فى وكالات الأنباء ومنتجو الأفلام ورؤساء النقابات المهنية المتخصصة والناشرون ومحررو أقسام الأصول الصحفية وموظفو السكرتارية ، وغيرهم كثيرون.

٢- المعلنون

إذا كان العنصر الأول مهمته أن يقدم لجمهوره ومعلنيه سلعة جديرة بالإستهلاك وقادرة على الوصول بالإعلان إلى مستهلكيه ، فإن المعلنين يعتبرون دعامة اقتصادية لكل وسيلة جماهيرية ، وان كانت أهميتهم تتفاوت من وسيلة إلى أخرى. وإذا كانت وسائل الإتصال الجماهيرية تحاول دائما أن تدعى بأنها مستقلة عن ضغط المعلنين عليها ، فإنها لاتستطيع أن تدعى قدرتها على الإستغناء عنهم.

٣- الهيئات الرقابية والتنظيمية

هناك نظم رقابية تقوم بالرقابة على وسائل الإتصال الجماهيرية ومحتواها ، حيث توجد هيئات تشريعية على المستوى الحكومى والشعبى ، مهمتها وضع اللوائح التنظيمية لهذه الوسائل. وتوجد هيئات تنظيمية رسمية تقوم على تخطيط

السياسة المحددة لكل وسيلة وتنفيذها. وتعتبر العلاقة بين جماهير هذه الوسائل وهذه الهيئات الرقابية والتنظيمية اطارا يحكم حركة هذه الهيئات فى مواجهة هذه الوسائل وإن كانت حدود الحركة تختلف من مجتمع إلى أخر ، بحسب النظام السياسى ودرجة النضج والإمكانات المادية والفنية المتاحة فى كل مجتمع ، وغيرها من الإعتبارات الإجتماعية الهامة.

٤- الجمهور المستهدف

يعتبر الجمهور العنصر الأساسى الأول فى النظام الإجتماعى للإتصال الجماهيرى. فمن أجله أنتج مضمونه وصنعت وسائله. والجمهور عنصر معقد للغاية ، فهو ينقسم إلى طبقات اجتماعية متمايزة بينها علاقات اجتماعية متشابكة فى مجالات عديدة ، جعلت علماء الاجتماع يدرسونها لسنوات طويلة. وهناك متغيرات عديدة تحكم سلوك الجمهور كعنصر أساسى فى النظام الإجتماعى للإتصال الجماهيرى ، منها الحاجات والدوافع والإهتمامات الفردية والجماعية ، ومنها الطبقات الإجتماعية التى يتكون منها وطبيعة العلاقات بينها. وهذه المتغيرات تؤكد على أن الجمهور ليس عنصرا ساكنا. ولكنه عنصر دينامى ، وسلوكه يحدد أنماط اهتماماته وقدراته على تفسير محتوى الإتصال الجماهيرى ونوعية الاستجابة له.

ونظرا لأن جماهير الإتصال الجماهيرى تتسم بالإنتشار الواسع وعدم التجانس والتنوع والتعدد وكبر الحجم ، كما أنها غير مرئية ، فإنه ليس من السهل أن نعرف الكثير عن تكوينها وبنيانها. وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الباحثون لتحليل هذه الجماهير ، لإلا أن البديهية لعبت الدور الأكبر فى توفير الإحساس بهذه الجماهير والتعرف على قدر من المعلومات التى تفيد فى تحديد مكوناتها وسماتها وأماكنها واهتماماتها.

ولقد حاولت دراسات علمية كثيرة أن تصل إلى تقسيمات لهذه الجماهير ، تفيد فى التعامل الإيجابى معها من خلال وسائل الإتصال الجماهيرى: منها على سبيل المثال ، تقسيمها إلى جماهير عامة وجماهير متخصصة. ويقصد بالجماهير العامة

General, Public Audience تلك الجماهير التى تتسم بالسعة والإنتشار والتعقيد وعدم التجانس والفردية ، وهى تتعرض لوسائل الإتصال الجماهيرى وتستجيب لها بطريقة فردية. واما الجماهير المتخصصة The Specialized Audience فإنها على الرغم من أنها غير محددة ولامتجانسة بدرجة ما ، فإنها تتكون من أفراد تجمعهم بعض الإهتمامات المشتركة ، كالإتجاهات السياسية والعقائدية ، والتى تجعلهم يبحثون عن وسائل متشابهة ، وقد تجمعهم أيضا بعض الجوانب النفسية ، كالحاجة إلى الحرية والتخلص من السلطة ، ولايشترط فى الأفراد الداخلين فى هذا النوع من الجماهير والذين تجمعهم هذه الجوانب النفسية ، ألا يكونوا متجمعين فى مكان واحد ، وانما يشترط فقط أن يشتركوا فى نفس الدافع ، كما أن الذين يشتركون معا فى اهتمامات اقتصادية ، نجدهم يتابعون معا الموضوعات المتصلة بالإقتصاد فى كل وسائل الاتصال الجماهيرى ، ولكنهم لا يعرفون بعضهم البعض ، وإن كانوا يشكلون تالفا ثقافيا أو عقليا فيما بينهم.

ومن الطبيعى أن تكون الجماهير المتخصصة داخلة فى تكوين الجماهير العامة كجزء لايتجزأ منها. ومن الطبيعى أيضا ان يجرى تقسيم هذه الجماهير المتخصصة طبقا لمقاييس مختلفة. فهناك مثلا ، من يرى أنها يمكن تقسيمها ثلاثيا على أساس اتجاهات أعضائها وقيمهم واهتماماتهم وفلسفتهم فى الحياة. ويميل القائمون بالإتصال الجماهيرى بصفة عامة إلى التمييز بين الحاجات الداخلة فى اهتمامات الجماهير العامة على أساس هذه المقاييس ، للتركيز عليها من خلال المضمون الذى يعرضونه فنرى مثلا ، صفحات أو برامج كاملة للسياسة والإقتصاد والرياضة والفنون والأدب ، وماشابه ذلك.

ومع ذلك ، لايمكن القول بإمكانية تحديد مواصفات محددة لهذه الجماهير غير المحددة ، وان كانت هذه الحقيقة لاتقلل من قيمة هذه الجماهير وأهميتها وضرورة دراستها وتحليلها. وإذا كانت الدراسات العلمية تتجه عند تحليلها للإتصال الجماهيرى إلى القائم بالإتصال لوضوح عمله ودوره ، فإن اى جهد علمى لدراسة

هذه الجماهير له مايبرره ، خاصة إذا علمنا أن تحليل الآثار والنتائج التى يصل اليها الإتصال الجماهيرى ينبغى أن تكون متوازنة ، والتركيز على الجماهير هو الذى يحقق مثل هذا التوازن.

٥- الإطار الإتصالى أو الموقفى

يمكن أن يعتبر المجتمع بكل قطاعاته إطارا اتصاليا أو موقفيا ، رغم اختلاف وسائل الإتصال الجماهيرى فى طبيعتها وقدراتها وحدودها فالصحيفة العامة قد تستهدف كل الجماهير داخل مجتمعها ، الا أنها لاتصل إلا إلى جماهير محدودة تعد بالألاف أو بضعة ملايين. بينما التليفزيون أكثر قدرة على الوصول إلى جماهير أوسع ، والراديو يفوق الوسيلتين فى ذلك ، وهكذا. والإتصال الجماهرى يستطيع من خلال وظائفه أن يؤثر فى المجتمع كما يتأثر بالمجتمع. فهناك علاقة تأثير بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومحتمعاتها. فمثلا إذا كانت هذه الوسائل تؤثر على الظروف الإقتصادية فى مجتمعاتها ، فإن الظروف الإقتصادية نفسها تؤثر على هذه الوسائل. وبنفس الكيفية نجد العلاقة بين الظروف السياسية ووسائل الإتصال الجماهيرى فى مجتمع ما. وقس على هذا وذلك الظروف التعليمية والثقافية ودرجة النضج بين الجماهير واللغات المستخدمة والإتجاهات الدينية والعقائدية ، وغيرها. وإذا كان هناك قول مأثور يقول أن الصحافة مرآة لمجتمعها ، فإن هذا القول يمتد أيضا إلى وسائل الإتصال الجماهيرى كلها ، ويعبر يصدق عن أهمية المجتمع كأطار اتصالى أو موقفى لهذه الوسائل جميعها.

وبهذه العناصر الخمسة يتشكل النظام الإجتماعى للإتصال الجماهيرى. ومن الواضح أنها عناصر متداخلة ويقوم بينها اعتماد متبادل ، سواء فى الأدوار أو التأثيرات ، لكى تعطى لهذا النظام الإجتماعى ديناميته وفعاليته ، وتتحقق له غاياته ومقاصده وأغراضه ووظائفه.

وعلى الرغم من أن كل مؤسسات الإتصال الجاهيرى تدرج داخل هذا النظام الإجتماعى بدرجات متفاوته ، بحيث يمكن القول أن الإختلافات بينها تؤدى الىوجود نظام اجتماعى فرعى لكل نوعية من الأنواع التى تضمها هذه المؤسسات

كأن نقول أن هناك نظاما اجتماعيا للمؤسسات الصحفية ، ونظاما اجتماعيا للمؤسسات الإذاعية ، ونظاما اجتماعيا لدور النشر ، وهكذا ، الا أن المواصفات المشتركة بينها من حيث التنظيم والتصنيف تجعل فى الإمكان القول أن لكل مؤسسات الإتصال الجماهيرى داخل كل مجتمع نظاما اجتماعيا متميزا ، فنقول مثلا بوجود النظام الإجتماعى للإتصال الجماهيرى فى مصر أو فى فرنسا أو فى إنجلترا ، وهكذا.

ولئن كانت كفاءة النظم الإجتماعية للإتصال الجماهيرى ، تختلف من نظام اجتماعى إلى أخر فى مواجهة الوظائف التى تؤديها داخل كل مجتمع ، إلا أن نوعية هذه الوظائف متماثلة فى كل الأنظمة الإجتماعية للإتصال الجماهيرى على مستوى العالم كله.

فكل وسائل الإتصال الجماهيرى داخل أنظمتها الإجتماعية تؤدى نوعيات من الوظائف المتماثلة وهذه الوظائف ، هى: الإعلام والأخبار ، والتفسير والتوجيه ، ونقل التراث الثقافى ، والترفيه ، والتسويق. ويعود الإختلاف بين وسائل الإتصال الجماهيرى فى تاديتها لهذه الوظائف إلى طبيعة كل منها ومدى قدراتها على التركيز على وظيفة أو اكثر أو عليها جميعها بدرجات متفاوته.

وتتصل وظيفة الاعلام أو الأخبار بمتابعة هذه الوسائل لكل مايحدث داخل المجتمع الذى تنتمى اليه وخارجه. وتكون الأخبار هى المادة الساسية التى تقوم عليها هذه الوظيفة.وهذه الأخبار تتوزع على كل مجالات الأنشطة والإهتمامات الإنسانية. واما وظيفة التفسير والتوجيه ، فإنها تتصل بتفسير مايعلم به ، وتوجيهه وجهة معينة ، بهدف الربط بين أجزاء المجتمع من ناحية وبينها وبين المجتمع كله من ناحية ثانية ، والربط بين المجتمع كله والمجتمعات الأخرى من ناحية ثالثة.

وأما وظيفة نقل التراث من جيل إلى آخر ، فإنها تكتسب أهميتها من حاجة كل مجتمع اليها فى إحداث تطور متوازن وآمن لكل أجياله المتعاقبة. ووسائل الاتصال الجماهيرى تشترك مع جهات ووسائل أخرى فى المجتمع فى هذه الوظيفة ، وليست مسئوليتها وحدها ، وان كانت مهمتها هنا رئيسية وأساسية.

واما وظيفة الترفيه والإمتاع ، فإنها تساعد الفرد على قضاء وقت فراغه بطريقة مفيدة له ولمجتمعه. واخيرا تاتى وظيفة التسويق لكى تربط بين المعلنين عن منتجاتهم وخدماتهم والمستهلكين لها. وتنعكس طبيعة كل وسيلة وقدراتها على الكيفية التى تصمم بها الاعلانات التسويقية والمدى الذى تغطيه من جماهيرها المستهدفة.

وبهذا النظام افجتماعى للإتصال الجماهيرى ووظائفه ، تكتسب مؤسساته أهميتها وخطورتها داخل كل مجتمع. فهى مؤسسات متخصصة ومتطورة وقادرة ، وتؤدى وظائف اساسية فى مواجهة المجتمع كله بكل فئاته وجماهيره. ولقد وفرت ثورة تكنولوجيا الإتصالات والمعلومات لهذه المؤسسات قدرات أكبر ، مما زاد من أهميتها وخطورتها ، ليس فقط جاخل المجتمع الواحد ، ولكن أيضا بين المجتمعات بإتساع العالم كله.

* * * * * * * *

وعلى ذلك نكون قد انتهينا من تحليل نظامين للإتصال: أحدهما ، فى الجماعات الرسمية العامة ، والآخر فى الجماعات الرسمية المتخصصة. وتبين أن لكل نظام منهما سمات متكاملة ومتميزة عن تلك السمات التى تتوفر للنظام الأخر. وهما معا يتميزان عن الأنظمة الإجتماعية فى الجماعات الإجتماعية الصغيرة والكبيرة. وهذه الأنظمة جميعها تعتبر أنظمة رئيسية فى كل مجتمع ، وتتكامل جميعها لتصنع شبكة الاتصال الإنسانى داخل كل مجتمع.

غير أن هناك من الباحثين من يضيف مستوى اتصاليا آخر ، ويطلق عليه مصطلح الإتصال بين الثقافات Intercultural Communication على أساس أن له مواصفات وسمات متميزة عن الأتصال الشخصى والإتصال المؤسسى والإتصال الجماهيرى. لكننا نختلف مع أصحاب هذا الرأى اختلافا جوهريا. وحتى لايكون اختلافنا على غير أساس علمى ، علينا أن ندعم قولنا بالأدلة التى تثبت صحة مانقول.

وبادئ ذى بدء ، يعرف هؤلاء الباحثون الإتصال عبر الثقافات ، بأنه ذلك الإتصال الذى يحدث بين أشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة. وبالتالى ، فهم يختلفون فى عقائدهم وقيمهم وتفكيرهم. وبناء على هذا التعريف ، يقسمون هذا الإتصال إلى ثمانية مستويات فرعية ، هى: الإتصال بين ثقافتين مختلفتين ، كما يحدث بين الصين والبرتغال مثلا ، والإتصال بين السلالات المختلفة حتى ولو داخل المجتمع الواحد ، كالإتصال بين السود والبيض فى الولايات المتحدة ، والإتصال بين الأديان المختلفة ، كالإتصال بين المسلمين واليهود ، والإتصال بين الدول المختلفة وهو مايسمى بالإتصال الدولى ، والإتصال بين الثقافات الفرعية المنتمية إلى ثقافة واحدة ، كالإتصال بين الأطباء والمرضى أو بين المبصرين والعمى ، والإتصال بين أجيال مختلفة ، كالإتصال بين الشباب والشيوخ فى مجتمع معين ، والإتصال بين جنسين مختلفين كالإتصال بين الرجال والنساء [1]. ويضيف هؤلاء الباحثون ، أن مازاد من أهمية الإتصال عبر الثقافات بكل مستوياته الفرعية ، زيادة الحراك الإجتماعى على مستوى العالم كله ، وخاصة من خلال زيادة الرحلات السياحية وزيارات العمل والبعثات الإقتصادية والتعليمية والسياسية والهجرات الدائمة والمؤقته وغيرها. ويمثل هذا المستوى من مستويات الإتصال الإنسانى أهمية خاصة فى المجتمعات التى يكثر فيها الغرباء أو المجتمعات التى تستهدفها الهجرات الإنسانية.

غير أننا من خلال بحثنا عن أنظمة اجتماعية لكل مستويات الإتصال الإنسانى ، لم نجد لهذا المستوى نظاما اجتماعيا محددا ومتميزا. ذلك لنه اذا نظرنا إلى مستوياته الفرعية ، لانرى الا أنها تجمع بين كل المستويات التى تناولناها بالتحليل ، وهى الإتصال الشخصى والإتصال العام والإتصال المؤسسى والأتصال الجماهيرى. فالإتصال عبر الثقافات ، مهما تعددت مستوياته الفرعية ، لايخرج فى ممارسته عن هذه المستويات التى حللناها ، مع وجود فارق واحد ، وهو أننا

---

(1) Devite . J. Human Communication. New York: Harper - Collin College Pub. . 6 th editon 1994. Pp. 420-422.

فى هذه المستويات التى حللناها ، افترضنا حدوثها داخل مجتمع واحد ، وان القائمين بها نجمعهم ثقافة واحدة. وهى تعتبر خلفية أساسية لدعم الاتصال وزيادة فعاليته وسرعة تحقيقه للغاية منه.

غير أن الإتصال عبر الثقافات يحدث بين أشخاص وجماعات ومجتمعات تختلف فيما بينها فى هذه الخلفية الثقافية. أما باقى عناصر الإتصال فواحدة. ولاشك أن لهذه الخلفية الثقافية أهمية بالغة ، فهى تؤثر على مضمون الرسائل المتبادلة وكيفية صياغتها واستقبالها وتفسيرها. ولكنها ليست الا متغيرا واحدا من المتغيرات التى تؤثر على الإتصال. وبالتالى فهى لاتصلح وحدها لكى تقيم نظاما اجتماعيا مستقلا ومتميزا لهذا المستوى من مستويات الإتصال الإنسانى.

ثم أنه طالما أن هذا الإتصال ، ونقصد به الإتصال عبر الثقافات ، يجرى من خلال أشكال ومستويات قائمة بالفعل ولها أنظمتها الإجتماعية المتميزة فإن تكوين هذا الإتصال من كل هذه الشكال والمستويات ، مع احتفاظ كل منها بمجالات تطبيقية مستقلة ، تجعلنا نصف هذا الإتصال بأنه تجميعى ، ولكنه ليس مركبا ولا متكاملا ، بالدرجة التى ينتج عنها نظاما اجتماعيا جديدا ومتميزا.

وإذا نظرنا إلى الإتصال المؤسسى ، كمثال توضيحى ، وجدنا أنه يتكون من الإتصال الشخصى بكل مستوياته والإتصال الجماهيرى بكل وسائله ، ولكنه يحدث بينها تكاملا فى الإستخدام داخل بيئة واحدة ذات ثقافة واحدة ، من أجل تحقيق غايات واحدة لمؤسسة بعينها. وهذا الوضع ليس متوفرا فى الإتصال عبر الثقافات بكل مستوياته الفرعية.

ثم أنه بإستثناء الإتصال بين المجتمعات المختلفة ، والذى يسمى بالإتصال الدولى ، فإن الأفراد والجماعات المختلفة ثقافيا داخل مجتمع معين تجرى بينها عملية تمثيل ثقافى. بمعنى أنها تحاول أن تتشرب ثقافة المجتمع الذى تنتمى اليه. وتظل الأفراد والجماعات على هامش الثقافة الأم ، طالما لم تنجح فى هذا التمثيل الثقافى ، فإذا نجحت وقبلها المجتمع فإنها تصبح أعضاء كاملة فى الجماعات التى تنتمى اليها داخل هذا المجتمع ، او ذاك. وهذه الحقيقة تؤكد على أن المستويات

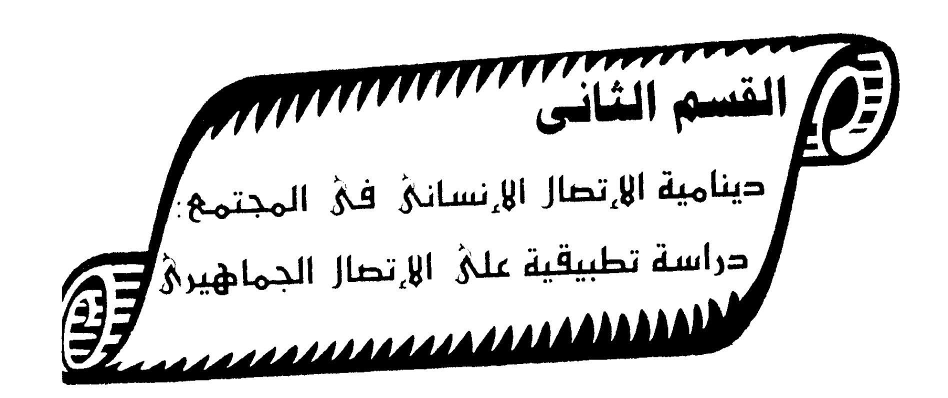
الفرعية لهذا الإتصال ، والتى تحدث داخل مجتمع معين ، ليست مستمرة ولا دائمة ، بل انها تظهر وتختفى بحسب الظروف التى تسمح أولاتسمح بذلك.

ولنضرب مثلا على ذلك ، بما يسمى بالإتصال بين الرجل والمرأة وهو أحد مستويات هذا الإتصال ، فكلاهما ينمتى إلى ثقافة مختلفة ، رغم أنهما ينتميان إلى مجتمع واحد. ولكن الإرتباط بينهما داخل أسرة واحدة يفرض عليهما أن يعدلا من ثقافتهما الخاصة ، كالقيم والعادات والأفكار والسلوك ، لكى تنشأ لهما معا ثقافة مشتركة ، تكون مقبولة منهما معا ، وهى تمثل اطار الحركة والإتصال بينهما. وقس على ذلك كل مايحدث داخل الجماعات الصغيرة.

بل قس على ذلك ايضا ، مايحدث فى الإتصال العام ، حيث يأتى المصلون إلى المسجد أو يأتى الطلبة إلى المدرسة أو الجامعة ، ولكل منهم خلفيته الثقافية التى تسمح له أن يسلك ويفكر بطريقة مختلفة عن الأخرين. ولكنهم جميعا يلتزمون بآداب معينة وقواعد تنظيمية خاصة بالمكان الذى تجمعوا فيه وبالمناسبة التى جمعتهم. وتظل الثقافة الخاصة بالمكان والمناسبة مسيطرة على الجميع إلى أن تنتهى المناسبة ويغادر الجميع المكان. فالإختلاف بين الثقافات الفردية هنا لم يمنع ظهور ثقافة مشتركة حكمت الحركة والإتصال بين الجميع.

وخلاصة القول هنا ، أننا لانعتبر الإتصال عبر الثقافات مستوى متميزا ويحكمه نظام اجتماعى متميز. وانما هو مستوى تجميعى من كل مستويات الإتصال الإنسانى ، اذا اعتبرنا اختلاف الخلفية الثقافية بين أفراد معينة أو جماعات معينة داخل مجتمع معين ليس دائما ولامستمرا. وبالتالى ، فليس لهذا الإتصال نظام اجتماعى متميز ومستقل.

وننتهى إلى أن عندنا فى كل مجتمع أربعة أنظمة اجتماعية كاملة ومتميزة: اثنين منها تقيمهما الجماعات الإجتماعية الصغيرة والكبيرة ، والإثنين الأخرين تقيمهما الجماعات الرسمية العامة والجماعات الرسمية المتخصصة. وتتداخل هذه الأنظمة جميعها وتتكامل ، مكونة النظام الإتصالى المعقد لكل مجتمع ، والذى يواجه به ألوانا من الإتصال الدولى ، تجرى بينه وبين المجتمعات الاخرى باتساع العالم كله. ولقد زادت ثورة تكنولوجيا الإتصالات والمعلومات حدة المنافسة والصراع بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ، وزادت النظام الإتصالى على مستوى المجتمع المحلى والدولى تطورا وتعقيدا.


القسم الثانى
ديناميـة الإتصال الإنسانى فى المجتمع:
دراسة تطبيقية على الإتصال الجماهيرى



الفصل الثالث

التأثيرات المتبادلة بين المجتمع ووسائل الإتصال الجماهيري



عرفنا أن عمليات الإتصال تجرى داخل أنظمة اجتماعية تنتمى إلى مجتمع معين ، وأنها جزء لايتجزأ من المجتمعات التى تنتمى اليها. والعلاقة بين هذه الأنظمة الإجتماعية للإتصال ومجتمعاتها لاتعنى فقط أنها تستمد عناصرها المشكلة لها من داخل هذه المجتمعات ، وإنما تعنى ايضا الإعتماد المتبادل بين كل نظام منها والمجتمع ككل من ناحية ، وتبادل التأثير بينها من ناحية ثانية ، وبالكيفية التى تحدث آثارها ونتائجها المستهدفة وغير المستهدفة من ناحية ثالثة.[٨]

هذه العلاقة بين الأنظمة الإجتماعية للإتصال ومجتمعاتها بكل أبعادها ، تؤكد على أن دينامية الإتصال بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ليست جامدة ولامؤقته ، ولكنها فى تفاعل مستمر من آجل تحقيق غاياتها ومقاصدها التى يستهدفها الأفراد والجماعات داخل كل مجتمع. وبدون هذا التفاعل المستمر لايصبح لدينامية الإتصال معنى أو غاية ، بحيث يمكن القول أن دينامية الإتصال تعنى التفاعل المستمر بين عناصرها المشكلة داخل النظام الإجتماعى الذى يحكم حركتها ويوجهها. وتعنى أيضا التفاعل المستمر بين كل نظام اجتماعى للإتصال والانظمة الأخرى من ناحية ، والمجتمع كله من ناحية ثانية.

ولما كان كل نظام اجتماعى للإتصال يرتبط أساسا بمستوى معين للإتصال الذى له وسائله التى تميزه عن المستويات الأخرى ، فإن التفاعل بين كل نظام اجتماعى للإتصال والمجتمع الذى ينتمى اليه ، يعتبر تفاعلا بين الوسائل التى يقوم عليها والمجتمع الذى تنتمى اليه ، بكل مايعنيه هذا التفاعل من اعتماد متبادل وتأثيرات متبادلة.

ولقد تبين من عرضنا لمراحل تطور الإتصال الإنسانى ، ان هذه المراحل فى مجملها ، ليست الا استجابة لحاجة كل مجتمع انسانى فى مرحلة معينة إلى وسيلة أو أكثر من وسائل الإتصال ، وانه كلما زاد المجتمع تطورا وتعقيدا ، زاد اعتماده على وسائل الإتصال من ناحية ، وزاد تعقيد الحاجة اليها من ناحية ثانية وزاد تعقيد الوسيلة التى تستجيب لهذه الحاجة من ناحية ثالثة.

كما تبين أن كلما زاد المجتمع الإنسانى تعقيدا ، زادت اهمية أنظمة الإتصال الجماهيرى ، وزادت وسائله تعقيدا أيضا. ومقارنة بين مجتمعين: أحدهما متخلف أو نام ، والآخر متقدم تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها. فالمجتمع المتخلف أو النامى أكثر اعتمادا على وسائل الإتصال الشخصى ، بينما المجتمع المتقدم أكثر اعتمادا على وسائل الإتصال الجماهيرى ، ولما كانت المجتمعات المعاصرة كلها تسعى إلى التقدم وتأخذ بأسبابه ، فإن علاقة الإعتماد المتبادل بين كل مجتمع ووسائل الإتصال الجماهيرى تزداد اتساعا وانتشارا ، حتى تبدو وكأنها سمة العصر. ومن هنا ، أصبح للتفاعل المستمر بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها وضع خاص فى الدراسات العلمية للإتصال ، وخاصة الدراسات التطبيقية منها.

ولقد اتجهت الدراسات العلمية للإتصال إلى الإجابة على ثلاثة أسئلة فى مجالات مختلفة ، وان كانت متكاملة: أولها يتصل بالتأثير الذى يمارسه المجتمع على وسائل الإتصال الجماهيرى ومؤسساته ، وحدود هذا التأثير وأبعاده ونتائجه والقضايا التى يثيرها. وثانيها ، يتصل بالتأثير الذى يمارسه وسائل الإتصال الجماهيرى على المجتمع ، بكل أفراده وجماعاته ، وحدوده ونوعيته ، مع الإتجاه نحوتفسير الكيفية التى يحدث بها ، وثالثها ، يتصل بدراسة عمليات الإتصال ذاتها ومكوناتها وتفاعلاتها. وهذا المجال الثالث يعتبر قاعدة المجالين الأخرين ومدخل أساسى اليهما.

وتتناول علوم كثيرة الإجابة على هذه التساؤلات داخل المجالات التى تنتمى اليها ، لعل أهمها علم الإجتماع وعلم النفس الإجتماعى ، إلى جانب علوم الإتصال ذاتها. ورغم أن الدراسات الإجتماعية ركزت على المجال الثانى أكثر من تركيزها على المجال الأول ، إلا أن دراسة الاتصال من زاوية اجتماعية تؤكد على ضرورة الإهتمام بالمجالين الآول والثانى معا داخل اطار علاقة الاعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها.

وهذه الزاوية الإجتماعية ، هى التى تؤكد عليها فى دراستنا هذه ونستطيع أن نتناولها فى ثلاثة مباحث أساسية ، كما يلى:

المبحث الأول: تأثير المجتمع على الإتصال الجماهيرى.

المبحث الثانى: تأثير وسائل الإتصال الجماهيرى على المجتمع.

المبحث الثالث: الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها

>>>>><<<<

المبحث الأول

تأثير المجتمع على الإتصال الجماهيرى

يختلف الباحثون فى الدراسات الإجتماعية حول تعريفهم للمجتمع ، حيث ينظر بعضهم إلى عنصر معين على أنه هو الذى يشكل دعامة المجتمع الإنسانى. وينظر بعض آخر الى عدد من العناصر على أنها فى مجموعها تشكل قوائم هذا المجتمع. ويؤكد بعض ثالث على ان كل العناصر لها أهميتها ، وإن كان أحدها يمثل أهمية خاصة. وهذا يعنى ، أنه على الرغم من اتفاقهم على العناصر الأساسية لقيام المجتمع الإنسانى ، الا أنهم يختلفون حول مدى أهمية كل عنصر ودوره فى تشكيل قوائم هذا المجتمع الإنسانى.

ومن التعريفات الهامة هنا ، ماجاء فى دراسة ماكيفر R.M.Maciver وتشارلز بيدج Charles Prdge من أن المجتمع هو أهم المصطلحات فى علم الإجتماع ، وهو يعنى أن الناس فطروا على أن يعبروا عن طبيعتهم بأن يخلقوا نظاما ما من شأنه ان يوحدبين سلوكهم ، وأن يضبطه بوسائل لاحصر لها. ووظيفة هذا النظام ، وهو المجتمع ، أن يطلق نشاط الناس ، وفى الوقت نفسه يحد منه. أنه يضع لهم مقاييس للسلوك عليهم أن يتبعوها وأن يحافظوا عليها. وهذا النظام شرط ضرورى لأسباب الحياة. وهو نسق مكون من العرف المتبع والإجراءات المرسومة ، ومن السلطة والقوة المتبادلة ، ومن كثير من التجمعات والأقسام ، وشتى وجوه ضبط السلوك الانسانى والحريات. وهذا النسق المعقد الدائم التغير يسمى بالمجتمع. انه نسق للعلاقات الإجتماعية وأخص صفاته أن لايثبت على حال [(١)].

ومن التعريفات الهامة أيضا ، ماقاله ستيوارت فى دراسته ، حيث عرف المجتمع بأنه تنظيم من الناس أو شكل معين للمعيشة داخل اقليم خاص ، يكون له

---

(١) ماكيفر وتشارلز بيدج ، ترجمة على عيسى: المجتمع ، الجزء الأول. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٧٤. ص ص ١٦ - ١٧.

القدرة على الإستمرار خلال الأجيال ، ويتمتع باستقلال نسبى ، بمعنى أنه غير معتمد على خبرة من المجتمعات الخرى بدرجة ما [١].

ويهمنا فى مجال دراستنا عن تأثير المجتمع على افتصال الجماهيرى ووسائله، أن ننظر إلى هذين التعريفين وأمثالهما من زاويتين أساسيتين أولاهما ، تتصل بنظام المعيشة داخل الاقليم الذى يقوم عليه المجتمع ، والأخرى ، تتصل بنظام السلطة والقوة فى المجتمع ، كإطار لضبط سلوك الأفراد والجماعات داخل كل مجتمع.

ويعنى نظام المعيشة للحياة الجماعية المشتركة للأفراد داخل المجتمع بكل مجالاتها وأنشطتها وبكل ماتوفره للأفراد من امكانيات ، وتضع من قيود ، بحيث تسهل لهم تحقيق التقدم نحو اشباع حاجاتهم المشتركة المادية والمعنوية وبدرجات عالية ، أو تعوق حركتهم وتكبل خطوهم ، فيكون التخلف. ولكل حالة منهما درجات. وفى جميع الحالات تكون الآثار سلبية أو ايجابية على وسائل الإتصال الجماهيرى.

ويعنى نظام السلطة أو القوة فى المجتمع مفهوما واسعا ، حتى أنها تمثل وجها كاملا للمجتمع يستخدم فى أحيان كثيرة كمصطلح بديل للمجتمع ، وهو الدولة. وهنا تكون لفلسفتها وسياستها واجراءاتها تاثير بعمق تاثير نظام المعيشة سلبا أو ايجابا أيضا.

ومن ثم ، يكون علينا أن نتناول هاتين الزاويتين بشئ من التفصيل ، على أن يكون واضحا أنهما زاويتان متكاملتان ، وانهما تصنعان معا التأثيرات التى يمارسها المجتمع على وسائل الاتصال الجماهيرى بكل مضمونها وأبعادها ، حتى قيل بأن كل وسيلة من هذه الوسائل تمثل صورة حقيقية للمجتمع الذى تنتمى اليه.

---

(١) طلعت ابراهيم لطفى: مدخل إلى علم الإجتماع. القاهرة: مكتبة غريب ، سنة ١٩٧٧. ص١١٥.

ولسوف يكون مفيدا ايضا أن ندرس تطبيقات التكامل بين هاتين الزاويتين فى المجتمع المصرى.

أولا: تأثير الظروف المعيشية فى المجتمع:

قلنا أن الظروف المعيشية ونظامها فى مجتمع معين ن تعنى تلك الظروف العامة بكل مجالاتها وأنشطتها وحدودها التى تسهل أو تعوق حركة المجتمع نحو التقدم. وهى ، بهذا المعنى ، تشمل كل الظروف الإقتصادية والإجتماعية والسياسية فى هذا المجتمع أو ذاك. وقد تقتصر على الظروف الإقتصادية والإجتماعية إذا فصلنا الظروف السياسية الداخلة فى نظام السلطة ، لأسباب علمية ودراسية تقتضيها ضرورات البحث هنا ، حيث تتمثل قوة المجتمع فى نظام السلطة وبالتالى ، يكون لتأثيره مغزى خاص ، ويكون من المفيد أن يستقل بجزء أساسى فى الدراسة.

وترتبط وسائل الإتصال الجماهيرى بمجتمعها بعلاقة متبادلة ، شأنها فى ذلك شأن أى ظاهرة اجتماعية أخرى. فهى تتأثر بالظروف الإقتصادية والإجتماعية لمجتمعها ، حتى كانها تطبع بطابع يميز تطورها فى كل مجتمع عن الآخر. ثم أنها تؤثر فى مجتمعها بقدر ماتأخذ منه. وعلى ذلك ، لايمكن أن ننتظر من وسائل اتصال جماهيرى تعيش ظروفا متخلفة الا أن تكون على نفس المستوى من التخلف. وبالتالى ، لانستطيع أن نتوقع منها دورا فى تطوير المجتمع الا بالقدر الذى تسمح به درجة تطورها ذاته. وقد اثبتت دراسات علمية كثيرة هذه الحقيقة وأكدت عليها [1].

وتمتد هذه الصلة بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعها ، لتشمل مضمون هذه الوسائل ودورها كذلك. ولاشك أن هذه الوسائل واحدة فى كل

---

[1] انظر تحليلنا لنتائج هذه الدراسات العلمية فى رسالة الدكتوراه الخاصة بنا ، بعنوان: طبيعة الصحافة الريفية ودورها فى المجتمعات النامية: دارسة تطبيقية على المجتمع المصرى. رسالة غير منشورة مقدمة إلى كلية الإعلام بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٥م. صص: ٥٥-٨٥.

المجتمعات ، ولكن كيفية أدائها ومستوى هذا الأداء يتشكل بنوعية الجمهور الذى تصوغه ظروف كل مجتمع. ولذلك لايتضح دور هذه الوسائل فى تطوير المجتمع إلا على ضوء ظروف اقتصادية واجتماعية لازمة لإنتشارها ، كالإمكانات المادية والتجارية وشبكة المواصلات المستعملة والقدرة على استغلال التكنولوجيا المتقدمة وتوفر الجهاز البشرى المدرب فنيا وارتفاع مستوى الدخل الفردى إلى الحد الذى يسمح بانفاق جزء منه على امتلاك هذه الوسائل والمداومة عليها إلى جانب ارتفاع نسبة التعليم ووجود لغة واحدة عامة وثقافة موحدة مشتركة وقدر من الحرية الإجتماعية ، وغيرها.

وليس معنى هذه العلاقة المؤكدة بين وسائل التصال الجماهيرى والمجتمع ، أن لكل مجتمع وسائل الإتصال الجماهيرى التى يستحقها ، لأن هذا يعنى أن لكل مجتمع حكومته التى يستحقها مثلا ، وإنما تعنى هذه العلاقه أن ظروف كل مجتمع هى التى تؤثر على الإمكانات المتاحة أمام هذه الوسائل وعلى حدود حركتها ودرجة تطورها. وهذه الظروف هى التى تدفع هذه الوسائل إلى الأمام اذا كانت ظروفا متطورة ومتقدمة ، أو تجرها إلى الخلف اذا كانت ظروفا معوقة ومتخلفة. وتؤدى هذه الوسائل دورها داخل هذا المجتمع أو ذاك على قدر ماتسمح به الظروف داخل كل مجتمع ، وبقدر ماتستمر عليه هذه الظروف من ثبات أو تغير ومن جمود أو تطور.

ولقد طبعت هذه الظروف الأقتصادية والإجتماعية وسائل الإتصال الجماهيرى فى المجتمعات المتقدمة ، وجعلتها وسائل قوية ومتطورة وذات تنظيم انتاجى معقد فى الإدارة والتمويل والتشغيل والتورزيع ، حتى غدت سلعا ذات أصول علمية متخصصة ومتطورة. ولقد كان جمهورها على نفس المستوى من التطور ، بل أنه كان فى أحيان كثيرة الدافع إلى رفع مستوى هذاالتطور. وهذا عكس ماحدث فى المجتمعات النامية وبدرجات متفاوتة.

ففى المجتمعات النامية ، توجد ظروف اقتصادية واجتماعية معاكسة تماما لحركات التقدم بدرجات متفاوته. وكانت هذه الظروف قوالب تشكلت داخلها السمات

الخاصة بوسائل الإتصال الجماهيرى ، وحددت معالمها وحدود قدرتها على المساهمة فى تطورها.

ومن أهم الظروف الإقتصادية ، انخفاض مستوى الخل لفردى وصعوبات التصدير والإستيراد ، وهما ظاهرتان ناتجتان عن ضعف اقتصادها وتخلفه وتبعيته وكان لهذه الظروف انكاساتها ، فقلت المراكز الحضرية بالنسبة لانتشار المناطق الريفية ، وما تعنيه من تفاوت حضارى وبين المراكز الحضارية والريفية ، وضعفت وسائل المواصلات والإتصالات ، وقلت شبكات الكهرباء ، وساءت التغذية وانتشرت الأمراض. وهذه الظروف وانعكاساتها لها تأثيرها على وسائل الإتصال الجماهيرى جميعها.

ومن أهم الظروف الإجتماعية ، انتشار الأمية والتخلف العلمى والتعليمى وازدواج اللغة وتعددها وهذه الظروف لاتقل أهمية ، لما تخلفه من آثار على وسائل الإتصال الجماهيرى ، بالاضافة إلى ماتخلفه من آثار على كيان هذه المجتمعات ذاته. وهذه الظروف جميعها تعنى الكثير من السلبيات بالنسبة لهذه الوسائل جميعها فى كثير من المجالات المشتركة بينها وبين المجتمع.

وهذه الظروف الإقتصادية والإجتماعية ، وان كانت تتفاوت درجتها من مجتمع نام إلى آخر ، الا أنها تتشابه فى مضمونها وأثارها وماتخلفه من صفات عامة تطبع وسائل الإتصال الجماهيرى فى كل المجتمعات النامية بصفة عامة. ونستطيع هنا أن نجمل أوضاع هذه الوسائل الناتجة عن هذه الظروف ، فيما يلى:

١- تتركز وسائل الإتصال الجماهيرى فى المراكز الحضرية ، وخاصة فى العواصم. وهذه الصفة تؤدى إلى عدم تنوع جماهيرها تنوعا واسعا. وكان لهذه الصفة تأثيرها على مضمون هذه الوسائل ، وخاصة الصحف والدوريات التى تعانى من ضعف شديد فى الإمكانيات المادية.

٢- كان طبيعيا ، وهذه الوسائل تعانى من ضعف شديد فى الأمكانات المادية ، أن تقع تحت ضغط الحكومات ، مما يسمح غالبا بنوع من التوجيه المباشر وغير المباشر لمضمونها. ولاشك أن لهذا الضغط الحكومى تأثيره على

حرية وسائل الإتصال الجماهيرى ، وبالتالى على قدرتها على توجيه الأمور وتأديته رسالتها أداء سليما وكاملا.

٣- عدم النمو المتوازن لهذه الوسائل. هى صفة تعتبر انعكاسا لعدم النمو المتوازن للبناء الإقتصادى والإجتماعى لكل مجتمع من مجتمعاتها. فالصحف والدوريا مثلا غير قادرة على أن تعطى المجتمع كله تغطية كافية ومناسبة لا من حيث الإمتداد ، ولا من حيث المضمون والتحرر ، وحتى لو أرادت الصحف والدوريات ذلك ، فإنها لاتستطيع بسبب ضعف الإمكانات المادية و الفنية ، بالإضافة إلى عدم وجود جهاز بشرى مدرب تدريبا فنيا كافيا.

٤- القصور الذاتى لهذه الوسائل عن التكامل كمشروعات متخصصة لها كيانها المادى والفنى ذات الصفة الوطنية. بمعنى أن هذه الوسائل جميعها لاتزال ناقصة فى صفتها الوطنية. فهى تعتمد على الخارج لإمدادها بالورق ومعدات الطباعة والأجهزة الفنية ، بل والمواد الإخبارية وغير الإخبارية. وهذا عامل له تأثيره على كيانها الوطنى ، بل وعلى رسالتها الإجتماعية كذلك.

٥- القصور الذاتى لهذه الوسائل عن تلبية الإحتياجات الفعلية لمجتمعاتها. وقد يرجع هذا إلى جانب الأسباب السابقة ، إلى ضعف المفاهيم العامة لهذه الوسائل ، مثل ضعف الولاء المهنى وضعف مفهوم حرية الإتصال والتجاوز عن الأخلاقيات المهنية فى حالات كثيرة ، إلى جانب ضعف مفهوم العمل عند عدد من الناشرين وخاصة فى أفريقيا. وكلها عوامل تتصل بضعف جهازها البشرى الفنى المدرب الواعى بمتطلبات المهنة.

٦- ضعف المضمون الإعلامى لهذه الوسائل ، وماتعنيه هذه الصفة من عدم وضوح السياسة التحريرية للصحف والدوريات والسياسة الإذاعية للراديو والتليفزيون ، إلى جانب ضعف مفهوم الدور الإجتماعى للفيلم والكتاب ، بالإضافة إلى قلة الإحساس بالمسئولية فى حالات كثيرة وخاصة فى أفريقيا. وترتب على هذا عدم التوازن فى مجالات التحرير ، وعدم التوازن بينها وبين الإعلان ، سواء من حيث الكم أو الكيف.

ويلاحظ هنا ، أنه على الرغم من تفاوت وتباين هذه الصفات العامة لأوضاع وسائل الإتصال الجماهيرى فى المجتمعات النامية ، الا أن وجود كل صفة منها ليس منفصلا عن وجود الصفات الأخرى. وهذا يرجع إلى تشابك الظروف الإقتصادية والإجتماعية وتعقدها فى هذه المجتمعات. ومن ثم ، فإن وجود هذه الصفات متكامل ومتفاعل ، ويخلق وضعا واحدا مترابط الجوانب ، بحيث يفرض على مواجهتة أن تكون مواجهة عامة وشاملة ، وليست مواجهة جزئية ، إذا أريد لهذه المواجهة أن تكون ايجابية وفعالة.

ولذلك يبدو أن وسائل الإتصال الجماهيرى فى المجتمعات النامية ، وهى تواجه جماهيرها بصفة عامة ، سوف تظل طبولا مكتومة ، كما وصف هاشتن W.Hachten الصحافة الأفريقية فى دراسة له [١] ، طالما بقيت هذه الظروف الإقتصادية والإجتماعية قيودا عليها.

وعلى ذلك ، يتبين أن الظروف المعيشة ممثلة فى الظروف الإقتصادية والإجتماعية فى كل مجتمع ، هى التى تحدد السمات الخاصة بوسائل الإتصال الجماهيرى داخل هذا المجتمع أو ذلك. وهذه السمات ذاتها تحدد قدرة هذه الوسائل على مواجهة المتطلبات الأساسية لجماهيرها ، كما تحدد قدرتها على إشباعها. ثم أن هناك عوامل خاصة بكل جمهور من جماهيرها ، هى التى تحدد فى النهاية المدى الذى تصل اليه هذه الوسائل فى تأثيرها على هذا الجمهور أو ذاك.

ثانيا: تأثير الفلسفات السياسية للدولة

تحكم الفلسفة السياسية للمجتمع نظام السلطة أو القوة ، وهو الذى يحدد بدوره طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ويحكم بالتالى المساحة التى يتحرك خلالها الفرد فى مواجهة المجتمع ، بمعنى أنه يحكم حدود الحرية التى يتمتع بها الفرد داخل المجتمع فى مواجهة الآخرين.

---

[١] Hatchen, W.Muffled Drums ; The New Media In Africa. Ammes, Iowa: The Iowa state university Press, 1971. P. 274.

وتعنى حرية الفرد معانى كثيرة ، لعل أهمها وأولها مايعرف بحرية الرأى. ومضمونها أن لكل فرد حريته فى اعتناق الأراء التى يراها ، على أن يحترم حرية الآخرين فى اعتناق الأراء التى يرونها. ثم جاءت إلى جتنبها حرية التعبير ، بمعنى أنه ليس لكل فرد حريته فى اعتناق مايشاء من أراء فقط ، ولكن أيضا له حريته فى التعبير عن هذه الأراء.

وبظهور المطبعة فى منتصف القرن الخامس عشر ، وتطور الصحافة وتقدمها ، انبعثت عن النوعين السابقين مايعرف بحرية الصحافة. وارتبطت بتطور الصحافة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بنضالها من أجل حريتها فى مواجهة سلطة الدولة وفلسفتها.

ثم تطورت وسائل الإتصال الجماهيرى مع بداية القرن العشرين ، حيث ظهرت السينما ثم الراديو والتليفزيون واتسمت هذه الوسائل بالإنتشار الواسع والسرعة وعمق التأثير. وتطورت تبعا لذلك حرية الصحافة لتتحول إلى مايعرف بحرية الإعلام. وهى تعنى فى مضمونها العلمى الحق فى البحث عن المعلومات والأفكار ، وحرية تداولها وتلقيها ونشرها بدون تقيد بالحدود الإقليمية. وهو الحق الذى وجد ترجمة سريعة واعترافا دوليا عاجلا ومستقرا من خلال الإعلان العالمى لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨م.

ومع ثورة الإتصالات والمعلومات خلال النصف الثانى من القرن العشرين ، برزت الحاجة إلى حق جديد عرف بالحق فى حرية الإتصال الذى نادى به جاك دارسى فى احدى المقالات التى نشرها سنة ١٩٦٩م. ومنذ ذلك التاريخ وحتى الأن، لم يكتسب هذا الحق بدرجة كبيرة من النضج أو الإعتراف الرسمى ، لاعلى مستوى المجتمع الواحد ، ولا على المستوى العالمى.

وفى تصورنا ، أن هذا الحق فى حرية الإتصال ، يعنى أن لكل إنسان الحق فى أن يعلم مايجرى حوله ، وله الحق أيضا فى أن يقول رأيه فيما يجرى حوله ، وله الحق كذلك فى أن يكون لرأيه دوره فى صنع القرارات التى تستهدف مصالحه

ومصالح المجتمع الذى ينتمى اليه. وهذه الجوانب الثلاثة متكاملة ، حتى يصبح هذا الحق ايجابيا ومؤثرا ، وحتى يصبح أيضا حقا له شكله ومضمونه.

ويمكن القول أن حرية الإتصال هى الأوسع مفهوما من كل الحريات السابقة عليها ، وهى القادرة على استيعابها ، بحيث لو اكتفينا بالنص عليها وحدها فى قوانين كل مجتمع ودساتيره ، فإنها تكون كافية لأداء كل المعانى التى تستهدفها الحريات السابقة عليها. وهى تمتد لتوفر لكل فرد حقا انسانيا فى كل المجالات التى يعمل بها وفى كل الوسائل التى يستخدمها ، ومن بينها بطبيعة الحال وسائل الإتصال الجماهيرى ، التى كان دخولها عصر ثورة الإتصالات والمعلومات دافعا قويا لظهور هذا الحق والتأكيد عليه.

وتؤكد احدى الدراسات ، أن ظهور الحق فى الإتصال أدى إلى لجوء السلطات الحاكمة والمتحكمة إلى فرض قيد جديد ، كما حدث مع الحقوق السابقة عليه. ذلك لأن اكتشاف السلطات الحاكمة ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية ، وسواء كانت تحكم اليوم أو كانت تحكم بالأمس ، لأهمية عنصر الإتصال وخطورته فى المجتمع ، دفعها إلى محاولة التحكم فيه ، والقبض بكل طاقة على وسائله ، حتى تتمكن هى من فرض نفوذها ، وبسط قوانينها وأحكامها ، وبالتالى ، اخضاع مواطنيها. فالذى يتحكم فى وسائل الإتصال يحكم المجتمع ، والذى يسيطر على مصادر المعلومات وأساليب تداولها ، يسيطر بالتالى على الحكم ، ويضمن لنفسه الإستقرار والأمن السياسى [1].

ولاشك أن كل هذه المواقف من حريات الغد فى المجتمع تحكمها وتوجهها الفلسفات السياسية. ولعل ما واجهته حرية الإعلام من تناقضات وصراعات على الساحة الدولية وخلال المؤتمرات التى عقدتها منظمة اليونسكو لإقرار نص صريح وواضح ومحدد لما تعنيه هذه الحرية وتطبيقاتها ، يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها. ومن الغريب أن حرية الإعلام لاتزال حتى الآن بدون تحديد واضح وصريح يتفق

---

[1] صلاح الدين حافظ: " حق الإتصال وحرية الإعلام ". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد١٩ بتاريخ سبتمبر ١٩٧٩. ص ١٤.

عليه المجتمع الدولى بكل دوله ، حتى بعد ظهور حرية الإتصال التى لاتزال هى الاخرى ، بدون تحديد واضح وصريح ، يتفق عليه الجميع ويطبقه الجميع.

وعلى ذلك ، يكون علينا أن نتناول مفهوم هذه الفلسفات السياسية للدولة ، ليتضح مضمونها وأبعادها كأطر تحكم الحريات التى تمثل حقوقا نظرية للإنسان ، ولاتجد لها واقعا صالحا للتطبيق داخل أى مجتمع من المجتمعات المعاصرة ، كما تحكم وسائل الإتصال الجماهيرى كوسائل لممارسة هذه الحريات ولقد وجدت هذه الفلسفات السياسية نظما اتصالية معبرة عنها بدرجات متفاوتة.

ونستطيع أن نحدد هنا أربع فلسفات سياسية أساسية للدولة المعاصرة. وهى: فلسفة السلطة والفلسفة الشيوعية ، وفلسفة الحرية ، وفلسفة المسئولية الاجتماعية. وتعتبر الفلسفة الثانية تفريعا عن الفلسفة الأولى ، والفلسفة الرابعة تفريعا عن الفلسفة الثالثة. ويلاحظ هنا ، أن كل نظام للدولة فى كل مجتمع معاصر يأخذ من هذه الفلسفة أو تلك بقدر. ومن ثم ، نجد من هذه الفلسفات تطبيقات شتى. وفيما يلى تفصيل كل منها [١]:

أ- فلسفة السلطة The Authoritarian Philosophy

ظهرت فلسفة السلطة بوضوح خلال القرن الساس عشر فى انجلترا. وفى ظلها كان على الصحافة أن تؤيد الحكومة فى كل أعمالها وسياساتها ، وتركز على نشر كل الأنشطة التى يمارسها رجالها ، وأن تبذل أقصى طاقتها ، كأحد فروع جهاز الدعاية الحكومى الذى يتحكم فيه رجل واحد قوى.

وينص مضمون هذه الفلسفة على أن العمل بالصحافة ، ماهو إلا إمتياز خاص يمنحه الحاكم ، ويكون على الصحافة تبعا لذلك التزام تجاه هذا الحاكم وحكومته. وقد شكلت فكرة هذه الفلسفة أنظمة الصحافة ، ولاتزال ، فى كثير من دول العالم ، وخاصة فى قاراتى أفريقيا وأمريكا اللاتينية.

---

[١] Merrill . J. Global Journalism: Asurvey of the World's Mass Media, New York and London: Longman, 1983. Pp.22-28.

ولقد اكتسبت هذه الفلسفة تقليدا طويلا. وأصبحت تعنى أنه على الرغم من أن الصحافة مشروع خاص ، الا انها تعمل داخل الدولة الفرد ، أى الدولة التى يحكمها حاكم واحد ، وتستمد الصحافة وجودها من الدولة ، وعليها أن تعمل جاهدة على تأييد وتمجيد سلطة الدولة التى تسمح لها بالحياة والإستمرار. ومن الطبيعى أن تتمتع الصحافة داخل اطار هذه الفلسفة بحريتها بالقدر الذى تسمح به الدولة وحاكمها الفرد. ولاشك أن هذا القدر من الحرية محدود للغاية ومرهون بمدى التزامها بمضمون فلسفة السلطة فى الدولة وبمدى رضاء الحاكم الفرد وحكومته عن أعماها ونشاطها.

ب - الفلسفة الشيوعية: The Communist Philospohy

على الرغم من أن الشيوعية ، كفلسفة سياسية ، سقطت فى الإتحاد السوفيتى وفى دول أوربا الشرقية ، إلا أن دولا أخرى لاتزال تحتضنها كمنهج سياسى لاتحيد عنه ، رغم إدعائها بالإتجاه نحو الإنفتاح ، كالصين الشعبية مثلا. ومن ثم ، فإن هذه الفلسفة الشيوعية ، كفلسفة نابعة من فلسفة السلطة ، تجد تطبيقاتها أساسا فى الدول التى لاتزال تدين بالشيوعية ، إلى جانب دول أخرى تأخذ بمضمون هذه الفلسفة وروحها ، وهى وأن كانت لاتدين بالشيوعية ، الا أنها تدين بالسلطة المطلقة

ويعتبر كارل ماركس الأب الشرعى للفلسفة الشيوعية وتطبيقاتها فى مجال الصحافة بصفة خاصة ووسائل الإتصال الجماهيرى بصفة عامة. وتعود جذور هذه الفلسفة إلى الربع الأول من القرن العشرين. وطبقا لهذه الفلسفة ، يكون على وسائل الإتصال الجماهيرى فى المجتمع الشيوعى أن تلتزم فى وظائفها بالغرض الأساسى للمجتمع ، وهو نشر النظام الشيوعى ودعمه ، وترجمة السياسة الإجتماعية للدولة ، ولو على حساب الحقيقة.

وفى النظام الشيوعى ، تكون وسائل الإتصال الجماهيرى أدوات فى أيدى الحكومة ، على أساس أنها جزء مكمل للدولة. ولذلك ، تملك الدولة هذه الوسائل وتستخدمها وتوجهها من خلال الحزب الشيوعى واجهزته. وفى هذا النظام أيضا

يمكن لهذه الوسائل أن تمارس النقد الذاتى ، أى النقد لنفسها ، على أساس مدى التزامها بالخطط التى تضعها الدولة.

وتشبه الفلسفة الشيوعية فلسفة السلطة بدرجة كبيرة. غير أن الخلاف الأساسى بينهما يأتى من الناحية العملية أو التطبيقية. فبينما تمتلك الدولة وسائل الإتصال الجماهيرى فى المجتمع الشيوعى ، نجد هذه الوسائل مملوكة ملكية خاصة فى المجتمع الذى يأخذ بفلسفة السلطة. وبينما تراقب الحكومة الشيوعية وسائل الإتصال الجماهيرى مراقبة دائمة ومستمرة ، فان الرقابة على هذه الوسائل فى مجتمع الحاكم الفرد يمكن ان تتغير بتغير الحاكم الفرد ذاته.

وبالمقارنة بين الفلسفة الشيوعية وفلسفة السلطة وتطبيقاتهما فى وسائل الإتصال الجماهيرى ، ندرك تماما أن الفلسفة الشيوعية تمثل تطرفا فى ممارسة السلطة فى أكثر من جانب. فحرية وسائل الإتصال الجماهيرى يكبلها الحاكم الفرد وحكومته فى فلسفة السلطة ، وهى تجد قدرا من الحرية ، حتى ولوكان ضئيلا. أما حرية هذه الوسائل فى الفلسفة الشيوعية فتكبلها الدولة بكل أجهزتها الحكومية والحزبية ، فالحريات معدومة تماما ، حتى ولوتشدق أصحاب هذه الفلسفة السيوعية ببعض الشعارات الجوفاء التى لاتسمن ولاتغنى من جوع.

جـ - فلسفة الحرية Liberarian Philosophy

تجد هذه الفلسفة جذورها فى انجلترا والعالم الجديد فى قارة أمريكا الشمالية خلال القرن السابع عشر ، حيث كانت فلسفة هذا العصر تقوم على أن الإنسان مخلوق عاقل وله حقوقه الطبيعية ، وأهمها حقه فى معرفة الحقيقة وتتبعها ، وليس عليه قيد فى ذلك.

ولقد وجدت هذه الفلسفة تطبيقاتها فى الصحافة خلال القرن الثامن عشر. ووجدت مؤيدين لها يدعون إلى أن ترفع الحكومات يدها عن الصحافة. وقد تدعمت حريات الفرد بهذه الفلسفة ، خاصة بعد النص عليها فى اعلان الإستقلال المريكى، حيث نص على ضمانات لحرية الكلام وحرية الصحافة وحرية الإعتقاد الدينى وهى جميعها تعنى حرية الفكر والرأى والتعبير.

وتعنى تطبيقات هذه الفلسفة على وسائل الإتصال الجماهيرى ، أن وظائف هذه الوسائل تقوم على كشف الحقائق وتقديمها. وهى لاتستطيع أن تمارس هذه الوظائف اذا فرضت عليها قيود من خارجها. وهى لايقيدها الا رغبة جماهيرها فى المجتمع الحر ، حيث تستطيع هذه الجماهير أن تؤيد أو ترفض أى وسيلة من هذه الوسائل.

ويضاف إلى ذلك ، أن هذه الفلسفة تقوم على حق الناس فى أن تعلم وأن تختار معلوماتها. وهى من الناحية النظرية تعتبر حرية للجماهير بأكثر منها حرية للعاملين فى وسائل الإتصال الجماهيرى. ولأن هذه الوسائل تعمل كحلقة وصل بين الحكومة والجماهير ، فإن مضمون هذه الحرية يعود عليها. فإذا كسرت حلقة الوصل هذه بسبب أية اجراءات حكومية مقيدة لهذه الوسائل ، فإن مضمون هذه الفلسفة ينتفى.

واليوم تقاس تطبيقات فلسفة الحرية فى أى مجتمع بمدى متابعة الجماهير لأنشطة الحكومة. ومن ناحية النظرية ، تعتبر الصحافة سلطة رابعة إلى جانب السلطة القضائية والتنفيذية والتشريعية. وهذه الحقيقة هى التى دفعت الصحافة إلى قبول مسئوليتها الإجتماعية.

ومن الواضح هنا ، أن هذه الفلسفة تقف على النقيض من الفلسفتين السابقتين. ولكنها تحتاج إلى وسائل اتصال جماهيرى على درجة عالية من الوعى والإحساس بالمسؤلية ، كما تحتاج إلى جماهير على درجة عالية أيضا من النضج والتحضر ، وهذه حالة مثالية ، وإذا انتقت بعض أركانها ، فإن هذا يعنى دخول كثير من التطبيقات السيئة ذات الأثار الفاسدة.

د – فلسفة المسؤلية الإجتماعية Social Repensibility Philosophy

تعود هذه الفلسفة إلى منتصف القرن العشرين. وتجد جذورها فى فلسفة الحرية. وينبثق مضمونها بدرجة كبيرة من تقرير وضعته جماعة خاصة ، بعد أن شكلت لجنة الصحافة لدراسة أوضاع الصحافة الأمريكية. ونشر هذا التقرير سنة ١٩٤٧م. وجاء فى هذا التقرير ذكر المصطلح الذى أطلق على هذه الفلسفة.

وهذا يعنى أن فلسفة المسئولية الإجتماعية جاءت كرد فعل طبيعى تجاه الإستخدامات السيئة التى نتجت عن تطبيقات فلسفة الحرية المطلقة فى الصحافة بصفة خاصة ، حيث استهدفت وضع قيود معنوية على ممارساتها تجنبا لهذه الآثار السيئة. فقد جاء فى تقرير هذه اللجنة ، أنه نظرا لأن وسائل الإتصال الجماهيرى تجاوزت حدود المفاهيم التى تعنيها فلسفة الحرية فيما يتعلق بحرية بحثها عن الحقائق وعرضها ، فإن أهمية هذه الوسائل فى المجتمع الحر تفرض عليها التزاما نحو مسئوليتها الإجتماعية تجاه هذا المجتمع.

وطبقا لهذه الفلسفة ، تكون حرية الصحافة محدودة بهذه المسئولية ، وهى تبحث عن الحقائق بدقة وتضعها فى تقارير ذات مغزى. وفى هذا المفهوم ، يكون طبيعيا أن تقبل وسائل الإتصال الجماهيرى قدرا من التنظيم الذى يستهدف مراقبة عملها ، ويضمن قيامها بوظائفها بطريقة صحيحة. ولذلك ، اقترحت اللجنة نوعا من التنظيم الحكومى بهدف التأكد من قبول هذه الوسائل لمسئوليتها الإجتماعية بل إن هذه اللجنة رأت حق الحكومة فى أن تعرض على الجماهير بدقة ماتراه بشأن مدى التزام هذه الوسائل بمصالح هذه الجماهير.

وبذلك ، تقوم فلسفة المسؤلية الإجتماعية على اعتراف وسائل الإتصال الجماهيرى بالتزامها نحو ممارسة الخدمة العامة لتضمن استمرار وجودها. غير أن ما أثار العاملين فى هذه الوسائل هو مايتصل بحق الحكومة فى التدخل فى أنظمة هذه الوسائل ، لأنهم اعتبروا هذا التدخل شبيها بما يفرضه النظام الشيوعى.

وفى السنوات الأخيرة ، توصلت دول العالم الثالث إلى نوع من المسئولية الإجتماعية ، من شأنه أن يحول الصحافة إلى شريك متعاون مع الحكومة ، من أجل التنمية والتقدم. ومع ذلك ، ينظر الصحفيون بصفة خاصة ، والعاملون فى وسائل الإتصال الجماهيرى بصفة عامة ، إلى هذا الإتجاه على أنه شبيه بما انتهت اليه لجنة حرية الصحافة الأمريكية من اقرار لنوع من التدخل الحكومى الذى يخرج فلسفة الحرية عن مفاهيمها الأصلية.

وعلى ذلك ، يتضح أن لكل فلسفة من الفلسفات السياسية الأربع مفاهيمها ، ولها ظروفها التى تطبق فيها. غير أنه يمكن القول أن كل فلسفة منها تعتبر وسائل الإتصال الجماهيرى مسئولة اجتماعيا ، بمعنى أن كلا منها تلزم هذه الوسائل بأن تكون مرآة لمجتمعها ، وبأن تلتزم بالقواعد والقيم الأخلاقية المتعارف عليها فى مجتمعها. وهذا يعنى أن فلسفة المسئولية الإجتماعية ليست مفهوما مستقلا ومنعزلا عن مفاهيم الفلسفات الأخرى ، وانما تجد بعضا من مضمونها فى كل فلسفة منها وان كانت كل فلسفة تفهم هذه المسئولية الإجتماعية من زاوية مختلفة بحسب تطبيقاتها فى كل مجتمع.

ولقد توصلت العديد من الحكومات على مستوى العالم كله إلى نوع من المشاركة مع وسائل الإتصال الجماهيرى ، تلزم هذه الوسائل بمقتضاها بعدد من الإلتزامات المعنوية التى تجعلها عونا للحكومة على مواجهة قوى التخلف التى تهدد الأمن والإستقرار الوطنى. ومن الممكن أن نقول أن هذه الحكومات تعتقد أن التحكم فى وسائل الاتصال الجماهيرى وتوجيهها يساعد على ايجاد نوع من التنسيق الذى يضمن التقدم الإجتماعى. وتعتبر هذه الحكومات أن هذا المفهوم يدخل فى اطار المسؤلية الإجتماعية لهذه الوسائل.

ولعل المفكرين الذين نادوا بالمسئولية الإجتماعية ، كعلاج لمساوئ الحرية المطلقة ، قد تجاهلوا مشكلة هامة يمكن أن تنتج عن دعوتهم. فمن الواضح أنه كلما اتجهت وسائل الإتصال الجماهيرى الداخلة فى مفهوم فلسفة الحرية إلى مزيد من المسئولية الإجتماعية ، فإنها تفقد بالضرورة حريتها تدريجيا. وهنا تكمن خطورة فلسفة المسئولية الإجتماعية ، والتى ينبغى أن يلتفت اليها المؤيدون لفلسفة الحرية فى أى مجتمع ، حيث يمكن أن تفقد هذه الوسائل حريتها ببطء وسهولة تحت شعار مسئوليتها الإجتماعية.

ومن الواضح هنا ، أن القضية فى مضمونها ، ليست فى الخلاف حول نوع الفلسفة التى يعتنقها كل مجتمع ومدى تأثيرها على حرية وسائل الإتصال الجماهيرى كتعبير عن حق الفرد فى حرية الإتصال ، وإنما القضية تكمن فى

المفاهيم التى تعنيها حرية الإتصال ذاتها. فطالما أن طرفى القضية فى خلاف دائم حول مفهوم هذهالحرية وأبعادها ، فإن القضية باقية ، وإن كان حسمها دائما يتم لصالح الدولة وعلى حساب المعانى الأساسية التى تستهدفها هذه الحرية ، وليبقى دائما تأثير المجتمع على وسائل الإتصال الجماهيرى اطارا يحكم حركتها ، ويحد من طاقاتها وهذه حقيقة واقعة لايمكن إنكارها.

****

ولقد تبين أن الظروف الإقتصادية والإجتماعية داخل كل مجتمع تشكل الخيوط التى تنسج منها وسائل الاتصال الجماهيرى كيانها وحياتها ، حيث تجعلها وسائل قوية أو ضعيفة ، وكاملة النضج والنمو أو ناقصة ، وتملك هويتها وقدراتها على الممارسة أو فاقدة لها. وهذه الصفات تأتى بدرجات متفاوته ، بتفاوت درجات تواجد الظروف الإقتصادية والإجتماعية المساعدة أو المعوقة. وفى جميع الحالات يبقى تأثيرها قويا وفعالا.

وتأتى الفلسفة السياسية للدولة ، لتعطى لتأثير الظروف الإقتصادية والإجتماعية كل مضمونها وأبعادها. فتطبيقات فلسفة السلطة أو الفلسفة الشيوعية فى مجتمع نام أو متخلف تعنى العجز شبه الكامل عن الحركة ، بينما لوجاءت هذه التطبيقات فى مجتمع متقدم ، لكان معناها القوة ، ولكنها قوة تستخدم لصالح الدولة ، سواء كانت ممثلة فى الحاكم الفرد أو الحزب الواحد ، وليست قوة لصالح الجماهير صاحبة الحق فى وسائل الإتصال الجماهيرى.

بينما تأتى تطبيقات فلسفة الحرية وفلسفة المسئولية الإجتماعية فى المجتمعات النامية ، وإن كانت أمثلتها محدودة للغاية وخاصة فيما يتعلق بفلسفة الحرية ، لكى تعطيها متسعا أكبر للحركة ، وأن كانت حركة بطيئة لاتقارن بحركتها فى المجتمعات المتقدمة.

وخلاصة القول هنا ، أنه لكى تكون وسائل الإتصال الجماهيرى قوية وقادرة وفعالة ، فإنها تحتاج إلى مجتمعات متقدمة ومتطورة وقادرة على تطبيق فلسفة الحرية بكل متطلباتها ، حتى لو اقتربت بقدر من المسؤلية الإجتماعية المنظمة تنظيما علميا وموضوعيا وغير حكومى. بينما لو لم تتوفر هذه الظروف

الإقتصادية والإجتماعية والسياسبية المماثلة لما هى عليه فى المجتمعات المتقدمة بكل أركانها وأبعادها ، لجاءت وسائل الإتصال الجماهيرى ضعيفة وعاجزة وسلبية. وهناك درجات بين هذه الحالة وتلك. وهذا هو مغزى التكامل بين الظروف الإقتصادية والإجتماعية والسياسية ، كمضمون للتأثير الذى يمارسه المجتمع على وسائل الإتصال الجماهيرى داخله.

المبحث الثانى

تأثير وسائل الإتصال الجماهيرى على المجتمع

لقد تبين لنا بوضوح الكيفية التى يصنع بها المجتمع اطارا يحكم قدرات وسائل الإتصال الجماهيرى وخطوها. ويكون علينا هنا أن نتناول الجانب الآخر من التأثير المتبادل بين الطرفين ، ممثلا فى الكيفية التى تؤثر بها وسائل الإتصال الجماهيرى على المجتمع ، لكى تتضح طبيعة العلاقة العضوية والوظيفية بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها ،و لكى تتضح أيضا الكيفية التى تتكامل بها هذه الوسائل مع مجتمعاتها فى وجودها ودورها.

ونستطيع أن نتبين تأثير هذه الوسائل على مجتمعاتها من خلال تحليلنا لجانبين هامين: أولهما ، يتصل باستخدامات وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها. وثانيهما ، يتصل بالنظريات العلمية التى حاولت تفسير الكيفية التى يحدث بها تأثيرها. ولئن كان لكل جانب منهما طبيعته ، ال أنهما يتكاملان معا فى بيان طبيعة التأثير الذى تزاوله هذه الوسائل.

وينبغى أن نضع فى اعتبارنا هنا ، أنه إذا كانت النتائج العلمية التى تحققت حتى الأن تسهم بدرجة كبيرة فى فهم طبيعة التأثير الذى تمارسه هذه الوسائل ، إلا أنها عاجزة حتى الأن أيضا عن الإجابة على كثير من التساؤلات التى تتصل بالأسباب التى تؤدى إلى هذا التأثير وتعليل حدوثه بهذه الكيفية أو تلك ، إلى جانب ما يتصل بتحديد أبعاده ومداه.

أولا: استخدامات وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها:

اهتمت دراسات علمية كثيرة بتحليل هذه الإستخدامات والوظائف ، سواء كان الإهتمام عاما يشمل وسائل الإتصال الجماهيرى كوسائل لها مكانتها وأهميتها فى كل مجتمع ، أو كان هذا الإهتمام خاصا بمجتمع معين. وبقدر من التنسيق بين نتائج هذه الدراسات ، نستطيع أن نحدد استخدامات هذه الوسائل ووظائفها فى خمسة أقسام رئيسية: أولها ، يتصل بالإعلام المبنى على متابعة كل مايحدث داخل

مجتمع معين وخارجه ، وتكون الأخبار هى المادة الأساسية. وهذه الأخبار تتوزع على كل مجالات الأنشطة الإنسانية.

وهذه الأخبار لها جوانبها الإيجابية والسلبية. فقد تفيد فى دعم الإستقرار داخل مجتمع معين. ولكنها أيضا قد تهدد الإستقرار فى مجتمع آخر. وهى توفر الإحساس بالمكانة وتأكيد الذات والإطمئنان ، ولكنها من ناحية أخرى ، قد تزيد احساسه بالقلق والتوتر والحرمان. ثم أنها تزيد أبعاد الرؤية أمام جماعات معينة داخل مدجتمع معين. ولكنها من ناحية أخرى ، قد تزيد من إحساسها بالخطر. ويضاف إلى ذلك ، مايمكن أن تؤدى اليه من زيادة الإحتكاك الثقافى بين المجتمعات ، وأن كانت تسمح أحيانا بالغزو الثقافى لكثير من المجتمعات ، بكل مايعنيه هذا الغزو الثقافى من تهديدات مؤكدة لهويتها الثقافية.

وأما القسم الثانى من أنشطة وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها ، فإنه يتصل بالتفسير لما يعلم به ، بهدف الربط بين أجزاء المجتمع من ناحية ، والربط بينها وبين المجتمع كله من ناحية ثانية ، والربط بين المجتمع كله والمجتمعات الآخرى من ناحية ثالثة. والتفسير هنا يتخذ أشكالا وقوالب متعددة. فقد يتمثل فى اختيار الأخبار أو ترتيبها أو توزيعها بطريقة معينة مقصودة. وقد يتمثل فى التعليق عليها لتفسيرها وتوضيح مغزاها وأبعادها من وجهة نظر القائم بالإتصال الجماهيرى. وقد يتمثل فى الشرح والوصف والبيان.

وتتوزع أنشطة هذا القسم واستخداماته ووظائفه على كل مجالات الأنشطة الإنسانية ولها أيضا جوانبها الايجابية والسلبية. فقد تساعد على تعبئة المجتمع لمقاومة التهديد الذى يتعرض له استقرار المجتمع. كما تساعد المجتمع على ترتيب أولوياته. ولكنها من ناحية أخرى ، قد تزيد التماثل أو التطابق بين أفراد المجتمع ، وتقلل فرص أحداث التغيير الإجتماعى. وقد تساعد الفرد على زيادة كفاءته واستقراره واطمكئنانه ، وتحول دون الإتجاه إلى المبالغة. ولكنها قد تضعف قدرة الفرد على النقد ، وتزيد شعوره السلبى بالإعتماد على الغير. ثم أنها تساعد على

مواجهة الغزو الثقافى ، وتحافظ على التوافق الثقافى بين أفراد المجتمع. ولكنها قد تعوق التطور الثقافى فى المجتمع.

وأما القسم الثالث من استخدامات وسائل الإتصال ووظائفها ، فإنه يتصل بنقل التراث الثقافى من جيل إلى جيل. ولهذه الإستخدامات والوظائف جوانبها الإيجابية والسلبية أيضا. فهى تزيد التألف والتماسك بتوسيع قاعدة السلوك المشترك والخبرات المشتركة ، وتحافظ على عملية التكيف الإجتماعى للفرد. ولكنها من ناحية أخرى ، تدعم صفات المجتمع الجماهيرى Mass Society. وهى تقلل من العزلة الإجتماعية عند الفرد ولكنها تقلل أيضا من قدرة الفرد الشخصية على تمثل أنماط السلوك التى يتطلبها التكيف الإجتماعى. ثم أنها تحافظ على التماثل الثقافى والتوافق الثقافى ، ولكنها تقلل من تنوع الثقافات الفرعية داخل المجتمع الواحد.

وأما القسم الرابع من استخدامات وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها ، فإنه يتصل بالترفيه. وهذا النوع من الإستخدامات والوظائف يساعد الجماهير على قضاء وقت فراغها. ولكنه من ناحية أخرى يضعف الذوق العام ، ويزيد مشاعر السلبية والتهرب عند الفرد. وهذه كلها صفات تؤدى بالفرد إلى شخصية غير سليمة وغير متوازنة.

واخيرا ، نأتى إلى القسم الخامس والأخير من استخدامات وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها ، والذى يتصل بالإعلان والترويج والتسويق. ونحن نعرف أن مايتراوح بين ٥٠٪ و ٧٠٪ من داخل وسائل الإتصال الجماهيرى يأتى عن طريق هذه الإستخدامات. ولاتستطيع هذه الوسائل أن تستغنى عنها أو تقلل من اعتمادها عليها بعد أن تحولت إلى صناعات معقدة ، تحتاج إلى رءوس أموال ضخمة فى التمويل والإستخدام والتوزيع. وهذا هو جانبها الإيجابى. أما جانبها السلبى ، فإنه يتمثل فيما تتعرض له هذه الوسائل من ضغوط القوى الإقتصادية فى المجتمع ، مما يؤدى إلى التأثير على سياستها واتجاهاتها ومحتوياتها.

وقد يكون الاتساع فى الاعلان على حساب التحرير وتنوعه وموضوعية ، بل أنه قد يكون على حساب المضامين الحقيقية والصحيحة للاعلان ذاته. فهذه

الأنشطة الى جانب أسهامها فى انعاش الاقتصاد القومى وتشجيع الإستهلاك وتلبية الحاجات الأساسية للجماهير ، فإنها قد تسهم فى خداع الجماهير والنزول بمستوى الذوق والأخلاق والمشاعر عندها. وقد تكون هذه الآثار السلبية مقصودة أو غير مقصودة. لكنها فى جميع الحالات آثار سلبية معترف بها ولاقت اعتراضات كثيرة من جانب المفكرين والمصلحين الإجتماعيين.

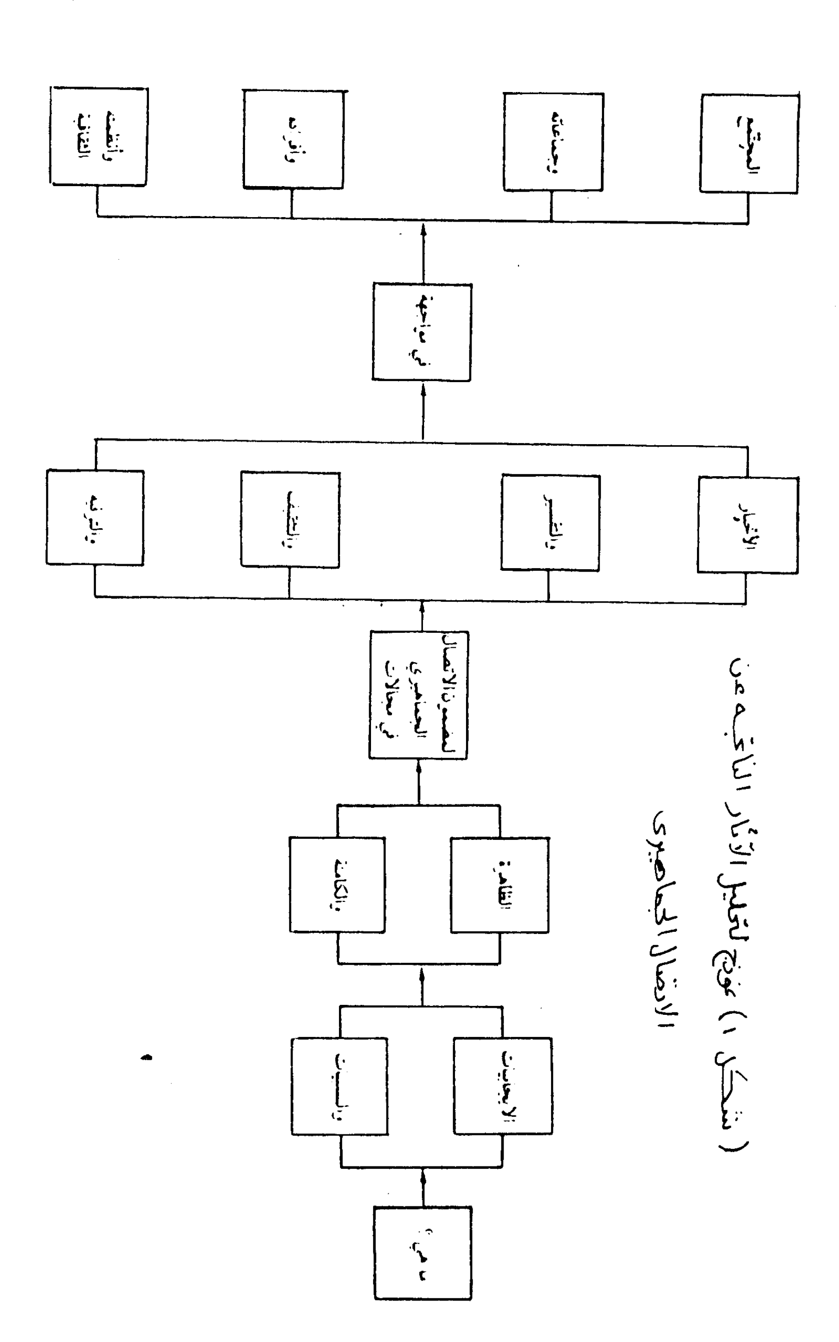
وقد استطاع أحد الباحثين أن يضع فى دراسة له نموذجا يوضح كيفية قياس وتحديد هذه الآثار الإيجابية والسلبية الناتجة عن استخدامات وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها فى مواجهة الفراد والجماعات والمجتمعات [١]. ونحن نعرضه هنا بعد ادخال تعديلات عليه (انظر شكل رقم ١)

ولعلنا فى مواجهة هذه الآثار ، نتساءل عن الأسباب الكامنة وراء سلبية بعضها ، على افتراض أنها من المفروض أن تكون جميعها أثار ايجابية ، طالما أننا نسلم بأن وسائل الإتصال الجماهيرى جاءت استجابة لحاجات المجتمع اليها خلال المرحلة الأخيرة من تطورة؟ ونستطيع هنا أن نحدد هذه الأسباب ، فيما يلى:

١- طبيعة المجتمع الحديث. فهو يتسم بتعقد المصالح الخاصة الغردية والجماعية وتداخلها وتناحرها. فلا أحد ينكر وجود صراعات ومنافسات شريفة وغير شريفة بين القوى الإقتصادية على مستوى المجتمع الواحد وعلى مستوى العالم كله. ولاأحد ينكر الصراعات بين الأحزاب السياسية داخل المجتمع الواحد من أجل الإنفراد بالحكم أو تصفية حسابات قديمة وحديثة. وهذه الظاهرة تدفع الأفراد والجماعات السياسية والإقتصادية والإجتماعية إلى استخدام وسائل الإتصال الجماهيرى لتأييد مصالحها على حساب مصالح الآخرين. وهى تستخدم كل عوامل الظغط عليها ، أو السعى إلى امتلاك بعضها ، أو التحايل والخداع والتضليل ، وغيرها من الأساليب غير الأخلاقية وغير الشريفة.

---

[١] Wiight , C. Mass Communication ; A Sociological Perspective. New York: Randem House , 1975. P. 11.



(شكل ١) نموذج لتحليل الآثار الناجمة عن الاتصال الجماهيرى

٢- طبيعة الفلسفات السياسية التيىأخذ بها المجتمع المعاصر ، والتى تتفاوت ما بين الخضوع للسلطة المطلقة والجرى وراء الحرية المطلقة. وهذه الفلسفات تعنى الكثير بالنسبة لوسائل الإتصال الجماهيرى. فالخاضعون للسلطة المطلقة يشايعون الحاكم الفرد أو الحزب الواحد والمتعصبون للحرية المطلقة يشايعون مصالحهم الخاصة ولوعلى حساب مصالح الآخرين. ولاشك أن المشايعة هنا فى الحالتين تكون على حساب المضمون الصحيح والدقيق والموضوعى لوسائل الإتصال الجماهيرى.

٣- ضعف المفاهيم الأخلاقية وتحريفها فى كثير من المجتمعات بسبب ضعف التعليم والخبرة أو سيطرة الهوى ، وخاصة فى المجتمعات النامية.

٤- ضعف المفاهيم المهنية وسيادة المفاهيم التى تخدم التوزيع الواسع على حساب النوعية السليمة ، مثل الجرى وراء الإشباع الجماهيرى مهما كانت نوعيته ، بدلا من التركيز على قيادة الجماهير مهما كانت أهميتها.

٥- ضعف الهوية الوطنية والثقافية لوسائل الإتصال الجماهيرى وخاصة فى المجتمعات النامية ، دفعها إلى الجرى وراء التقليد والإبهار بالثقافات الغربية والعمل على نشرها على حساب القيم والتقاليد الأصيلة للمجتمع.

٦- طبيعة الجماهير فى المجتمعات المعاصرة ، والتى تحكمها عوامل التسرع والماديات والإستسلام للمتع السهلة ، على حساب الأصالة وتنمية الذوق والفكر والمعنويات الجادة.

تلك كانت أهم الأسباب التى أدت إلى آثار سلبية لوسائل الإتصال الجماهيرى. ولقد تحولت هذه الوسائل ، بفضل هذه الأسباب ، الى وسائل للإقناع حيث أصبحت الأثار الإيجابية والسلبية جميعها مقصودة ومستهدفة ومتعمدة ، لوجود دوافع خاصة تخدمها وتوجهها ، سواء على مستوى الدولة أو على مستوى الأفراد والجماعات المنتمية إلى عصبيات وقوى سياسية واقتصادية واجتماعية. ومن ثم ، أصبح استخدام مصطلح وسائل الإعلام غريبا فى المجتمع المعاصر ، لإنتقاء الموضوعية والجدية والإيجابية من محتوى هذه الوسائل بدرجة كبيرة.

ثانيا: الكيفية التى يحدث بها تأثير وسائل الإتصال الجماهيرى:

من الواضح أن النتائج التى انتهت اليها الدراسات العلمية ، والتى تحدد استخدامات وسائل الإتصال الجماهيرى ووظائفها ، تؤكد على أن هناك آثارا ايجابية واخرى سلبية. ولكنها تختلف حول تحديدها لمدى هذه الآثار وكيفية حدوثها بهذه الكيفية أو تلك. وكانت هذه النتائج فيما يتعلق بهذه النقاط جزئية ، ولم تقدم اجابات واضحة ومؤكدة وشاملة.

ومن هنا ، تعددت النظريات التى انتهت اليها هذه الدراسات العلمية. ولم تستطيع إحداها أن تجيب إجابة قاطعة على الكيفية التى تحدث بها هذه الاثار. ومع ذلك ، تبقى حقيقة هامة ، وهى أن هذه النظريات جميعها ، حاولت أن تفسر وأن تتنبأ فى حدود ماانتهت اليه ، ولكنها ، حتى داخل هذه الحدود ، تعتبر ذات قيمة علمية كبيرة ، لأنها تفتح الطريق أمام جهود علمية أوسع وأشمل تصل بنا إلى مزيد من اليقين.

ولقد اصبحت النظريات العلمية تحتل مكانه بارزة فى العلوم الاجتماعية. بل إنها تعتبر الأن من المعالم الأساسية لتطورها. ويمكن تعريف النظرية العلمية بأنها بناء علمى " يمثل تمثيلا رمزيا مجردا مايدركه الباحثون على أنه حقيقة " [١]. وهذا التعريف ينطبق على مفهوم النظرية فى العلوم الإجتماعية وغيرها من العلوم الأخرى.

وقد توصل الباحثون ، خلال البحث عن الأنظمة التى تنظم الحقائق ، إلى النظرية العلمية كأسلوب يحقق غاياتهم. ولذلك ، فهى تمثل أهمية حيوية لتقدم المعرفة العلمية فى شتى مجالاتها ، وإن كانت كأداة علمية لم تصل بهم إلى اليقين الكامل ، وإنما هويقين نسبى يفتح الطريق أمام مزيد من الإحتمالات التى تعمق فهم الحقائق ، وتحث على مزيد من السعى نحو مزيد من اليقين ، وبالتالى ، نحو مزيد من تقدم المعرفة العلمية.

---

[١] Zimbardo. P.& Others. Intluencing Attitudes and Changing Behavior Reading. MA.: Addison Wisely. 1977. P. 53.

وبذلك ، تكون النظريات العلمية أطرا ذهنية وفكرية لتنظيم الحقائق ، بالكيفية التى تسهل الإستنتاج أو الإنتقال المنطقى من حقيقة إلى أخرى ، وهى خطوط موجهة للتحقيق والتفسير والتنظيم واكتشاف مزيد من الحقائق[١] . ولذلك يجب أن تستند النظريات إلى أفكار محددة تماما ، وأن تصاغ بالكيفية التى تيسر الخروج بتعميمات أوسع باتباع الأسلوب الإستقرائى [٢].

ونستطيع أن نتناول هنا أهم النظريات العلمية التى قدمها الباحثون فى مجال الإتصال الجماهيرى كأدوات لتفسير الكيفية التى يحدث بها تأثير وسائله على الأفراد والجماعات ، والتى قدموها فى دراسات عديدة [٣] ، على أن نضع فى الاعتبار أننا نتناول هذه النظريات بالقدر الذى يخدم الغرض منها هنا. وذلك كما يلى:

أ- نظريات التأثير المرحلى:

تتجه بعض النظريات إلى تفسير الكيفية التى تمارس بها وسائل الاتصال الجماهيوى تأثيرها من خلال استخدم المراحل التى تمر بها رسائلها إلى أن تحدث تاثيرها. وتوجد ثلاث نظريات من هذا النوع: الأولى تقوم على التأثير من مرحلة واحدة ، والثانية تقوم على إزدواجية المراحل ، والثالثة تقوم على تعددية المراحل. وتسمى النظرية الأولى بنظرية المرحلة الواحدة. ويطلق عليها مسميات أخرى كثيرة ، منها نظرية الخطوة الواحدة The one step theory ونظرية الطلقه الفضية Sliver Bullet Theory ونظرية القذيفة السحرية ، وغيرها.

---

[١] Deutsh , M. & Kraus, R. Theories in Social Psychology. New york: Basic Books, 1965. P.4.

[٢] عبد الباسط حسن: أصول البحث الإجتماعى. القاهرة: مكتبة وهبه ، ط٦ ، سنة ١٩٧٧. صص: ٤١- ٥١.

[٣] انظر من أهم هذه الدراسات العلمية ، مايلى:

- Devite , J. Human Communication ; The Basic Course. New York: Harper Collins College Pub., 6th edition , 1994. Pp. 471 - 481.
- Defleur , M.& Other. Theories of Mass Communication. London and New York: Longman , 1989. Pp. 143-293.

وتقوم هذه النظرية على افتراض أن تأثير وسائل الإتصال الجماهيرى حالى ومباشر. فأنت حين تقرأ الصحيفة تتأثر بما تقرأه مباشرة ، فتغير من أفكارك وسلوكك بالكيفية التى تتوافق مع ماقرأت. ويعتقد أصحاب هذه النظرية أن كل رسالة فى وسائل الإتصال الجماهيرى تعمل كطلقة انطلقت من بندقية نحو هدف معين. فإذا كانت معبأه بطريقة صحيحة ، ومسددة نحو الهدف بدقة ، فإن الطلقة سوف تصيب الهدف تماما. وبنفس الطريقة تصيب وسائل الإتصال الجماهيرى أهدافها ، لأن جماهيرها تتصف بالسلبية فى مواجهة رسائلها.

ويوجه إلى هذه النظرية انتقادات كثيرة. فالجماهير ليست سلبية فى مواجهة وسائل الإتصال الجماهيرى ، فهى تختار من بينها وسيلة معينة أو أكثر ، وتختار من رسائلها رسالة أو أكثر ، وتحتفظ بدرجات متفاوتة بما تسمع أو تقرأ أو تشاهد وبالقدر الذى تريد أن تحتفظ به. كما أن هذه النظرية تتجاهل التأثير المضاد للإتصال الشخصى ، حيث يبحث الفرد عما يدعم الرأى أو السلوك الذى تأثر به داخل الجماعات التى ينتمى اليها. وقد دفعت هذه الإنتقادات أنصار هذه النظرية إلى تعديل مفاهيمهم عن الأسس التى تقوم عليها.

وجاءت نظرية المرحلتين أو الخطوتين The Two - Step Theory كإستجابة جزئية لهذه الإنتقادات من خلال دراسات علمية على سلوك الناخبين الأمريكيين أثناء معارك الإنتخابات الرئاسية. فقد وجد الباحثون أن هؤلاء الناخبين يتأثرون بأقرانهم أكثر من تاثرهم بوسائل الإتصال الجماهيرى: بمعنى أن قادة الرأى وزعماءه يتأثرون أولا بالرسائل التى تنشرها أوتذيعها هذه الوسائل ، ثم يقومون بعد ذلك بالتأثير على اتباعهم من خلال الاتصال الشخصى.

وعلى الرغم من صحة هذه النظرية جزئيا ، إلا أنها تتصف بالبساطة ، ولا تستطيع أن تثبت وجودها فى جميع الحالات دائما. وذلك لأسباب عديدة ، منها: أن كثيرا من المعلومات يحصل عليها الناس من وسائل الإتصال الجماهيرى ، وخاصة الراديو والتليفزيون ، وكثير منهم يثقون فى صحة هذه المعلومات بدون الحاجة إلى الرجوع إلى قادة الرأى وزعمائه فى الجماعات التى ينتمون اليها.

ثم أن قادة الرأى وزعماءه يختلفون فى درجاتهم ومواقعهم فى المجتمع. فكما أنهم زعماء لأتباعهم ، فبعضهم تابعون لزعماء اكبر منهم. وعلى ذلك ، يحصل بعضهم على معلوماتهم من وسائل الإتصال الجماهيرى ، ويحصل بعض آخر منهم على معلوماتهم من زعماء آخرين. بالإضافة إلى أن كثيرا من قادة الرأى وزعمائه هم أيضا شخصيات بارزة فى وسائل الإتصال الجماهيرى. ومن ثم ، فلن تكون هناك حاجة أمام الناس فى كثير من الأحيان للجوء إلى زعماء محليين ، طالما أمامهم من يثقون فيه ويشبع حاجاتهم إلى المعلومات مباشرة.

وعلى ضوء هذه الإنتقادات ظهرت نظرية المراحل المتعددة أو الخطوات المتعددة The Multi - Step Theory. وتقوم هذه النظرية على أساس أن التأثير الناتج عن وسائل الإتصال الجماهيرى يحدث بعد تبادل التأثير بينها وبين جماهيرها، ثم بين جماهيرها أنفسهم ، ثم بينهم وبين وسائل الإتصال الجماهيرى ، قبل أن نقول بحدوث تأثير لهذه الوسائل.

وتبدو هذه النظرية صحيحة بدرجة كبيرة على ضوء ظروف الحياة المعاصرة. فالناس يعرضون أنفسهم لأكثر من وسيلة ، وقد يكون لنفس المواد التى تتكرر فى أكثر من وسيلة. ثم أنه ينبغى أن ندخل تعرض الناس للإتصال الشخصى خلال تعرضهم المتعدد لأكثر من وسيلة ، بالإضافة إلى أن الناس يتأثرون ويؤثرون.

فمثلا ، قد تسمع من الرايو فى الصباح أن أسعار البورصة ستهبط. وعندما تذهب إلى العمل تسمع من صديق لك مايؤكد هذا الخبر. وعندما تعود فى المساء تلقى صحيفة مسائية بعض الشكوك على ماسمعت وتأكدت ، أو قد تعطيك أسبابا قوية لتغيير موقفك تماما ، أو قد تؤدى مناقشة الموضوع مع أسرتك إلى ثباتك على موقفك الأول.

وتبدو هذه النظرية قادرة بدرجة أكثر دقة على وصف مايحدث للأراء والإتجاهات التى يعتنقها الناس. وتبدو هامة فى تفسير تأثير وسائل الإتصال الجماهيرى بأنه ناتج عن تداخل تاثيرها مع تأثير افتصال الشخصى. ولكن ليس

معنى ذلك ، أننا توصلنا إلى تفسير مقبول قبولا نهائيا. فلاتزال معرفتنا بالكيفية التى يحدث بها هذا التأثير ضئيلة وتحتاج إلى تعرفنا على النظريات الأخرى.

ب – نظرية نشر الأفكار المستحدثة Diffusion of Innovations Theory

تتوجه هذه النظرية إلى مجال آخر من المجالات التى تستخدم فيها وسائل الإتصال الجماهيرى ، وهو مجال نشر الاالأفكار المستحدثة. وتركز هذه النظرية على الكيفية التى تؤثر بها هذه الوسائل على الناس لتطبيق شئ جديد ومختلف عما تعودوا عليه.

ويشير مصطلح نشر الفكار الجديدة Diffusion of Innovitations إلى الكيفية التى تسير بها المعلومات الجديدة أو الأفكار الجديدة ، مثل السلع الجديدة أو الأطعمة الجديدة أو أجهزة كمبيوتر جديدة أو أنماط سلوكية جديدة. وهذه أنشطة واسعة ينطبق عليها مضمون هذه النظرية ، وإن كانت ركزت فى بدائتها على الأخبار الجديدة. وتستهدف هذه النظرية بيان الكيفية التى يطبق بها الناس هذه المعلومات أو الأفكار الجديدة ، وهى ترى أن هذه الكيفية تتمثل فى مراحل ثلاث ، وهى:

١- مرحلة أمتلاك المعلومات ، حيث يفهم الفرد المعلومات حول الفكرة الجديدة.

٢- مرحلة تقويم المعلومات التى فهمت من حيث مدى صلاحيتها وفائدتها.

٣- مرحلة قبول التطبيق أو رفضه ، حيث ترفض الفكرة أو تطبيق بالفعل.

والناس لايرفضون الأفكار الجديدة أو يطبقونها بطريقة واحدة أو بدرجة واحدة. فهناك الرواد الذين يقدمون الفكرة الجديدة إلى الناس ، ويطلق عليهم مصطلح Innovators. ويليهم عدد من المنفذين الفكرة ، والذين يأخذون قصب السبق ، ويطلق عليهم مصطلح The Early Adopters. ويليهم فريق ثالث يطلق عليه مصطلح الأغلبية المتقدمة The Early Majority. ثم يأتى فريق رابع يطلق عليه الأغلبية المتأخرة The Late Majority. ويأتى أخيرا فريق خامس يطلق عليه الفريق المتمهل Laggards وهم آخر المطبقين للفكرة الجديدة ،

ولكنهم قد يتفوقون على المجموعات السابقة. وقد يتبقى بعد ذلك أفراد رافضون Diahards واحيانا لا يوجد رافضون علىالإطلاق.

وتؤكد البحوث العلمية أن الفريق الأول يتصف بأنه أصغر سنا ، وأكبر مكانة من الناحيتين الإقتصادية والإجتماعية ، وأكثر تخصصا من الناحية المهنية ، وأكثر تعاطفا مع الأخرين ، وأقل تعسفا. فهم بصفة عامة ، قادة الرأى وزعماؤه داخل الجماعات التى ينتمون اليها.

جـ - نظرية زراعة الصور النمطية Cullivation Theory

تعنى هذه النظرية أن وسائل الإتصال الجماهيرى ، وخاصة التليفزيون ، هى المصادر الأساسية التى يستمد منها الناس معلوماتهم عن المجتمع وثقافته. ومن خلال تعرضهم لهذه الوسائل ، وخاصة التليفزيون ، يتلقون معلوماتهم عن العالم المحيط بهم بكل سكانه وقيمه وعاداته.

وتؤكد هذه النظرية على أن التعرض الشديد للتليفزيون يؤدى إلى تكوين صور نمطية عن الحقائق. فقد يرى المشاهدون ، نتيجة لتعرضهم بدرجة عالية للتليفزيون ، أنهم يمكن أن يكونوا ضحايا الجريمة بنسبة ١٠٪ بينما هم كذلك فى الواقع بنسبة ٢٪ فقط ، والفرق بين النسبتين راجع إلى تأثير التليفزيون بما يقدمه لهم من جرائم بطريقة مبالغ فيها ، حيث يسلط الأضواء عليها خلال الأعمال الدرامية والتقارير الأخبارية وغيرها من البرامج. وقس على ذلك كل معلومات الناس عن الحقائق الأخرى فى كل مجالات الحياة.

ومن الطبيعى ألا يكون كل المشاهدين متأثرين بالبرامج التليفزيونية بنفس الدرجة. فهناك بعض منهم أقل قابلية للتأثر من البعض الأخر. وهذا يعنى أن التأثير بالتليفزيون لايعتمد فقط على كمية المشاهدة ونوعيتها ، وانما يعتمد أيضا على مدى الإستعداد عند المشاهد للتأثر بما يشاهده. ويضاف إلى ذلك عوامل أخرى ، كمستوى الدخل والجنس ، حيث تعتبر الأناث أكثر استعدادا للتأثر من الذكور. ثم أن هناك تداخل التأثير الذى تزاوله الوسائل الأخرى مع التأثير الذى يزاوله

معينة. وتملك القدرة على ذلك. فهى تخبر الناس بماهو مهم ، وماهو غير مهم. وهى ، عندما تفعل ذلك ، لاتعلمهم كيف يفكرون ، ولكنها تعلمهم فيما يفكرون. ولاشك أن الأشياء التى تفكر فيها والأشياء التى نتحدث عنها إلى الآخرين لها أهميتها. وهى ذاتها الأشياء التى تركز عليها وسائل الإتصال الجماهيرى ، بحيث يمكن القول أنه لايحدث شئ إلا وتغطيه وسائل الإتصال الجماهيرى. وإذا كانت هناك أشياء لاتتناولها هذه الوسائل ، فهى أشياء لاأهمية لها.

ولكننا نتساءل هنا: هل تركز وسائل الإتصال الجماهيرى على أشياء معينة ، لأنها هامة ، أم أن تركيزها عليها هو الذى يكسبها هذه الأهمية؟! لاشك أن التطبيقات تؤكد على وجود الحالتين ، حيث تعنى الحالة الأولى موضوعية هذه الوسائل ودقتها ، وتعنى الحالة الثانية وجود استخدامات مقصودة وموجهة لأغراض خاصة. وعلى الرغم من أنه لاتوجد علاقة مؤكدة بين اهتمامات وسائل الإتصال الجماهيرى ومايراه الناس هاما ، لدخول عوامل شخصية كثيرة فى تقدير الأهمية عند الناس ، إلا أنه من المحتمل أن تلعب هذه الوسائل دورا فى ترتيب أولوياتهم بدرجة هامة.

وهناك من العوامل مايجعل تأثير وسائل الإتصال الجماهيرى هنا له خطورته. فهناك قوى إقتصادية لها أولوياتها وتملك قدرة التأثير على هذه الوسائل ، لأن هذه الوسائل ذاتها تبحث عن الإستفادة من هذه القوى. والقائمون بالإتصال لهم أيضا أولوياتهم ، والمنظمات التى يتعامل الناس معها لها أولوياتها أيضا. وهذه العوامل جميعها تعنى تداخل التأثيرات ، بحيث لاتستطيع القول أن وسائل الإتصال الجماهيرى وحدها تملك التأثير على عملية تحديد الأولويات عند الناس.

ء - نظرية حارس البوابة Gatekeepers Theory

ركزت هذه النظرية على أحد العوامل الذى يعطى أبعادا جديدة لتأثير وسائل الإتصال الجماهيرى على ترتيب الأولويات عند الناس ، وهو العامل الخاص بحارس البوابة ، حيث يوجد أكثر من حارس على الطريق مابين انطلاق الرسالة من وسيلة من وسائل الإتصال الجماهيرى إلى الفرد. وقد استخدم مصطلح حارس

البوابة سنة ١٩٤٧ م كيرت ليون Kurt lewin حيث قصد به أن الرسالة تعبر عدة بوابات وهى فى طريقها إلى الفرد أو الجماعة ، وأن هناك أفرادا أو جماعات تقف عند كل بوابة ، وتتحكم فى عبور الرسالة ، ومهمة هؤلاء الحراس ترشيح الرسالة التى تصل إلى الفرد. ومن أمثلة هؤلاء الحراس المدرسون الذين يسمحون بمرور بعض مايجمعون من معلومات إلى الطلبة ، والمحررون والناشرون يقومون بنفس الدور فى مواجهة القراء. وكل هؤلاء يقومون بدور حراس البوابة بدرجة ما بحيث يمكن القول أن المعلومات التى تصل إلى الناس من مصادر شتى لاتمثل الحقيقة كلها.

هـ- نظريات التطور الإجتماعى:

إهتمت كل العلوم الإجتماعية بالتطور الإجتماعى من زوايا متعددة ومختلفة ، ولكنها تكمل بعضها البعض. وتعتبر هذه الزوايا مجتمعة هامة فى التعرف على الكيفية التى تسهم بها وسائل الإتصال الجماهيرى فى عملية التطور الإجتماعى [١] ولقد دارت البحوث العلمية هنا حول تساؤلات عديدة ، مثل ماهو الدور الذى تلعبه هذه الوسائل ، كأحد العوامل الهامة ، فى عملية التطور الإجتماعى؟ ومامدى مساعدتها للأفراد على السيطرة على رغباتهم الأساسية والفطرية؟ ومامدى تشجيعها لهم على السعى وراء اشباع لذاتهم ومتعهم بطرق غير مقبولة؟ وماطبيعة دورها فى تعليم الناس المقاييس الأخلاقية التى يقبلها المجتمع أو التى تشوه أخلاقيات المجتمع؟

ولقد تناولت البحوث هنا موضوعات عديدة بهدف الإجابة على هذه التساؤلات، كالتركيز على العنف وأنماط السلوك المنحرف والجنسى ، وماشابه ذلك. وانتهت إلى عدد من النظريات ، كان أهمها مايسمى بنظرية النماذج وما يسمى بنظرية التوقعات.

---

(١) Levine R. Culture , Behavior and Personality. Chicago: Aldine Co., 1973. Pp. 16 - 68.

- نظرية النماذج:

تعتبر من النظريات التى أسهمت فى فهم الكيفية التى تستطيع بها وسائل الإتصال الجماهيرى أن تلعب دورا فى عملية التطور الإجتماعى للفرد. وهى تعتبر جزءا من نظرية أشمل للتعليم الإجتماعى. ويعتبر أصحاب هذه النظرية أن وسائل الإتصال الجماهيرى مصادر جاهزة ومتاحة وجذابة لنماذج رمزية لكل أشكال السلوك تقريبا. وهناك دراسات علمية كثيرة أثبتت أن الأطفال والكبار يكتسبون مواقف جديدة واستجابات عاطفية وطرقا عديدة للسلوك من جميع وسائل الإتصال الجماهيرى ، وخاصة الفيلم والتليفزيون. وتشرح النظرية كيفية الإكتساب كما يلى:-

١- يلاحظ المشاهد أو القارئ أن شخصا مايشترك فى تصرف ما فى بعض محتوى التليفزيون أو الصحيفة بطريقة نموذجية ، فالشخص نموذج والتصرف أيضا.

٢- يحدث تماثل بين المشاهد أو القارئ والنمةوذج بمعنى أنه يشعر بتشابه معه أو يريد أن يكون مثله لأن النموذج من وجهة نظره جذابا وجديرا بالتقليد.

٣- يدرك المشاهد أو القارئ بوعى أو بغير وعى أن النموذج وتصرفه سوف يكون مفيدا أو يمكن أن يؤدى إلى نتائج مرغوب فيها إذا قلده فى موقف معين.

٤- يتذكر المشاهد أو القارئ للنموذج وتصرفه عندما يمر بنفس الموقف ، ويتخذ السلوك الذى اقتنع به كاستجابة لهذا الموقف.

٥- عند الإستجابة السلوكية يشعر المشاهد أو القارئ ببعض الراحة أو المكافأة أو الرضى. وبذلك تتكون الرابطة بين المؤثرات والإستجابة المستوحاة من النموذج ويزداد تدعمها.

٦- وتتولى الإعادة دعم السلوك المكتسب ، كلما حدثت مواقف مماثلة. واعاد المشاهد أو القارئ التصرف بنفس الكيفية التى اقتنع بها.

- **نظرية التوقعات:**

تعتبر وسائل الإتصال الجماهيرى مصادر غنية للتوقعات الإجتماعية النموذجية حول التنظيم الإجتماعى لجماعات معينة فى المجتمع الحديث. وبمعنى آخر ، فإنها فى مضمونها تصف وتصور النماذج والمعايير والأدوار والمراتب والعقوبات لكل أنواع الجماعات المعروفة فى الحياة الإجتماعية المعاصرة تقريبا.

وصغار السن من الناس عندما يشاهدون التليفزيون أو يقرأون كتبا أو صحفا أو مجلات معينة ، فإنهم يستطيعون أن يتعرفوا على معايير لعشرات الجماعات بدون أن يغادروا منازلهم. فهم يقرأون ويشاهدون عصابات اجرامية وجماعات الجراحين والعائلات الفننية وفرق الموسيقى وغيرها. كما أنهم من خلال هذه المصادر يتعلمون الأنماط السوية لهذه الجماعات ، ويعلمون ماهو صحيح منها وماهو فاسد ، وماهو مطلوب منهم لو أصبحوا فى يوم ما أعضاء فى جماعة منها

وبذلك ، تستطيع وسائل الإتصال الجماهيرى أن تسهم فى تحديد التوقعات التى يكتسبها الأعضاء المحتملون للجماعات قبل أن يساهموا فعلا فى نشاطاتها وذلك كما يلى:

١- إن مضمون وسائل الإتصال الجماهيرى يصور غالبا كل المعايير والأدوار والمراتب والعقوبات التى تتصف بها الجماعات فى التنظيم الإجتماعى.

٢- هذا التصور لجماعة معينة قد يكون حقيقيا وقد يكون غير ذلك. وقد يكون جديرا بالثقة أو مضللا ، وقد يكون دقيقا أو مشوها.

٣- مهما تكن علاقة هذه الصور بالواقع أو الحقيقة ، فإن الجماهير تستوعب معالمها ، وتصبح هذه الصور هى مجموعة التوقعات الإجتماعية التى تعلموها حول الكيفية التى من المتوقع أن تتبعها هذه الجماعات فى سلوكها.

٤- هذه التوقعات تعتبر جزءا هاما من فهم الناس المسبق للسلوك المطلوب أن يسلكه المشاركون فى الجماعات التى سوف يصبحون أعضاء فيها.

٥- هذه النماذج لتوقعات السلوك من جانب أعضاء الجماعات الأخرى العديدة التى يتألف منها المجتمع تعتبر جزءا من معلوماتهم عن النظام الإجتماعى.

٦- هذه التوقعات تفيد أيضا كدليل للعمل. بمعنى أنها تحدد للأفراد الكيفية التى يتصرفون بها تجاه الآخرين الذين ينتمون إلى جماعات أخرى ، والكيفية التى يتصرف بها الآخرون تجاههم فى مختلف الظروف الإجتماعية.

ح - نظريات بناء المعانى:

طور الباحثون عدة نظريات مبنية أساسا على بناء المعانى وتفسيراتها للواقع. وهى تركيبات اجتماعية توضح أن وسائل الإتصال الجماهيرى توسع ما يصل إلى عيوننا وأذاننا ، بحيث أن مايراه الناس ويسمعونه ليس إلا تمثيلا للواقع نفسه. وهذه الحقيقة لها تأثيرها عليهم.

وهذه النظريات تقوم على أسس المعرفة واللغة والسلوك. وهى لاتزال أولية ولم تصل بعد إلى درجة عالية من النضج. وتقوم على عدد من المبادئ التى يجمع بينها فى اطار واحد. ويمكن إيجاز هذه المبادئ فيما يلى:

- أن وجود الذاكرة عند الأنسان يسمح بتطوير المعرفة عنده.
- توجد المعرفة على شكل مفاهيم ، وهى تركيبات لها أسماء أو تصنيفات للمعانى التى يتذكرها الناس.
- يمكن لكل شخص أن يحصل على معانى المفاهيم عن طريق الإتصال الحسى المباشر مع الواقع ، أو من خلال التفاعل الرمزى فى الجماعات التى تستخدم اللغة.
- اللغة أساسا عبارة عن مجموعة من الرموز اللفظية أو غير اللفظية ، والتى تستخدم فى تمييز وتصنيف المعانى التى يتفق عليها الناس.
- يوجد الربط بين الرمز والمعنى بحكم العادات أو الإتفاقيات ، وبذلك تتيح عملية الإتصال التفاعل بين هؤلاء الذين يلتزمون بالقواعد.
- تشكل رموز اللغة التى تستخدمها جماعة معينة فهمهم أو تفسيرهم أو سلوكهم تجاه عالمهم المادى والإجتماعى.

وبناء على هذه النظريات . يرى أصحابها أن الصفات الحقيقية للعالم غالبا ما لاتكون لها علاقة بالمعتقدات التى يؤمن بها الناس حول هذا العالم المحيط بهم ، وأن

التفسيرات التى تقدمها الصحف عن الأحداث تستطيع أن تغير بشكل كبير تفسيرات الناس للواقع. وبالتالى ، تغير نماذج تصرفاتهم حيال هذا الواقع. ويستنتج هؤلاء الباحثون أن الناس يتصرفون ليس على أساس مايحدث أو قد يحدث فعلا ، ولكن على أساس مايعتقدون أنه الموقف الحقيقى. وهذا الموقف الحقيقى حصلوا عليه من الصور التى تقدمها وسائل الإتصال الجماهيرى.

كما يرى أصحاب هذه النظريات ، أن وسائل الإتصال الجماهيرى تؤثر أيضا على نطاق النشاط الإتصالى عند الناس من خلال طريقتين: أولاهما ، من خلال التأثير على الطريقة التى يتحدثون بها كالنطق وقواعد النحو والصرف وتركيب الجمل. وثانيهما ، من خلال التأثير على اللغة بوجه عام بتوسيع كمية الكلمات التى يستخدمونها وتعديلها. وهذه التأثيرات جميعها تؤدى إلى استقرار الكلام والمعانى أو تغييرها.

تلك كانت أهم النظريات التى تشرح الكيفية التى تؤثر بها وسائل الإتصال الجماهيرى على الأفراد والجماعات والمجتمعات فى مجالات شتى. ولاشك أن هناك نظريات أخرى كثيرة داخلة فى اهتمامات علوم إجتماعية عديدة. لكنها قد تبنى على جزئية أو أكثر أو تطوير جزئية أو أكثر من الأجزاء التى تقوم عليها هذه النظريات التى تناولناها.

وهذه النظريات ، وإن كانت لم تحدد مدى التأثير الذى تزاوله هذه الوسائل ولم تفسره تفسيرا كاملا ، إلا أنها جميعها تؤكد على وجود مثل هذا التأثير بدرجات لايمكن اغفالها ، فى مجالات تشمل كل جوانب الفرد والجماعة والمجتمع. وهى تؤكد على أنه رغم أن المجتمع يحيط هذه الوسائل باطار يحكم قدرتها وحركتها فى مواجهة جماهيرها ، إلا أن هذه الوسائل بماتزاوله من تأثير تقف طرفا مقابلا للمجتمع داخل اطار علاقة تأثير متبادل بينهما.

ولاشك أن تكنولوجيا الإتصال والنظام الإجتماعى فى عملية تغير دائم وهناك العديد من الأسباب التى تجعل البعض يرى أن تأثير هذه الوسائل على مجتمع معين لن يكون بنفس تأثيرها عليه فى جميع الفترات ، بل إن هذا التأثير يتغير من وقت

لآخر . ولذلك ، فمن الصعب أن تقدم نظريات أو تفسيرات محددة لهذا التأثير وتكون صالحة لكل الأفراد والجماعات في كل العصور . ولسوف يستمر أساس العلم هو البحث عن الحقائق دائما ، طالما أن مايتوصل اليه لايتصف إلا بالثبات النسبى[١].

* * * * * * * * *

---

[١] ملفين ديفلير وساندرا روكيتش . ترجمة كمال عبد الرووف: نظريات وسائل الإعلام. القاهرة الدار الدولية للنشر والتوزيع . سنة ١٩٩٢. ص ٢١٢.

المبحث الثالث

الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها

إن العلاقة بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها ، هى فى مضمونها علاقة بين الجزء والكل الذى ينتمى اليه. وليست التأثيرات المتبادلة بينهما إلا نتاجا لهذه العلاقة العضوية بينهما ، والتى تعنى أن بينهما اعتمادا متبادلا يشمل جوانب الحياة المشتركة وتطورها واستمرارها. وتمثل هذه العلاقة ومغزاها اطارا يحكم التأثيرات المتبادلة بينهما ، ولايمكن فهم هذه التأثيرات بعيدا عن اطارها. ولذلك فإن البحث فى التأثيرات المتبادلة بينهما لابد أن يقود الباحثين إلى عدد من الإفتراضات الأساسية حول طبيعة المجتمع والفرد وطبيعة العلاقة بينهما وانعكاساتها على وسائل الإتصال الجماهيرى ودورها.

ولقد قام الباحثون فى العلوم الإجتماعية ، وخاصة علم الإجتماع وعلم النفس الإجتماعى ، بصياغة العديد من هذه الإفتراضات الأساسية على شكل نماذج تصورية Paradigms وكان لهذه النماذج التصويرية دورها فى تصوير علاقة الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها.

ومصطلح نموذج Paradigm كلمة لاتينية الأصل ، استخدمت فى العصور القديمة لتعنى نوعا من النموذج الذى يمكن نسخه أو القياس عليه أو مقارنة شئ آخر به ، كالإنسان الفاضل الذى يعتبر نموذجا يقاس عليه السلوك الحسن عند الناس. وقد استخدمه الباحثون ليعنى مجموعة الإفتراضات المتتابعة والمتواصلة والمتكاملة والتى تصور جانبا من الواقع الإجتماعى والنفسى. وقد استخدموها هنا لتصور واقع المجتمع والفرد وواقع العلاقة بينهما ، واستفاد منها علماء الإتصال فى تصوير علاقة الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها.

وقد استمد علماء الإتصال أهم النماذج التى اعتمدوا عليها من العلوم الإجتماعية ، وأهمها علم الإجتماع وعلم النفس الإجتماعى. وهى تقوم على عدد من الإفتراضات التى تتصل بطبيعة المجتمع وطبيعة الإنسان. وفى علم الإجتماع نجد ثلاثة نماذج أساسية أعطت أهمية قصوى لدراسة العلاقات بين وسائل الإتصال

الجماهيرى والمجتمع ، وهى: النموذج الوظيفى والبنائى ويقوم على تحليل العمليات التى يحافظ بها المجتمع على الإستقرار الإجتماعى ، ونموذج التطور الإجتماعى ويقوم على تحليل العمليات التى يتطور بها المجتمع بمرور الزمن ، ونموذج الصراع الإجتماعى ، ويقوم على تحليل طبيعة ومغزى الصراع الإجتماعى.

أما فى علم النفس الإجتماعى ، فهناك نموذجان هامان استفاد منهما علماء الإتصال فى فهم علاقة الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى والمجتمع، وهما: نموذج التفاعل الرمزى ، والنموذج الإدراكى.

ومع اعترافنا بأن هذه النماذج الإجتماعية والنفسية معقدة للغاية ، ولايفى الإيجاز لشرح كاف لمضمونها وكيفية الإستفادة الكاملة منها ، إلا أننا أمام الإستخدام المحدود لها هنا فى ايضاح حقيقة علاقة الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاتها ، كإطار للتأثيرات المتبادلة بين الطرفين ، لانملك إلا أن نحاول محاولة علمية ، واضعين فى الإعتبار البعد عن الإيجاز المخل بالمعنى ، وإلا فإننا لانستطيع أن نحقق الهدف من دراستها هنا. وفيما يلى ما انتهت اليه هذه المحاولة العلمية:

أ - النموذج الوظيفى والبنائى: Functional and Structural Paradigm

تشير صفة البناء Structure فى هذا النموذج إلى الطريقة التى تنظم بها الأنشطة المختلفة فى المجتمع ، كسلوك الأسر والنشاط الإقتصادى والنشاط السياسى والنشاط الدينى وغيرها من الأنشطة المجتمعية ، وهى تعد على درجة عالية من التنظيم السلوكى. أما صفة الوظيفة فإنها تشير إلى مساهمة كل نشاط من هذه الأنشطة المجتمعية فى الحفاظ على الإستقرار والتوازن فى المجتمع. ولاتعد الفكرة البنائية الوظيفية جديدة ، كفلسفة اجتماعية. ففى جمهورية أفلاطون طرح القياس بين المجتمع والكائن العضوى ، حيث أن كلاهما يقوم على نظام من أجزاء مرتبطة فى توازن ديناميكى.

ولقد ظهرت صور عديدة لهذا النموذج فى الدراسات الإجتماعية. وحددت كل صورة منها عددا من الإفتراضات بل أن هناك دراسات حاولت أن تختار من بينها

وتثبت أيها أكثر فائدة. وفى دراسة علمية منها قام بها روبرت ميلتون سنة ١٩٥٧ راجع كل النماذج الموجودة وجمعها فى تحليل موجز ومحكم. وانتهت إلى أن كل هذه الصور التى قامت على هذا النموذج ، يمكن أن توجز افتراضاتها الأساسية ، فيما يلى[1]:

١- إن أفضل طريقة للنظر إلى المجتمع هو اعتباره نظاما لأجزاء مترابطة وأنه تنظيم لأنشطة تتكرر ويشبه كل منها الآخر ، ويرتبط به.

٢- يميل هذا النظام الذى يقوم عليه المجتمع إلى حالة من التوازن الديناميكى ، بحيث لو حدث تنافر فى بعض أجزائه ، فإن قوى معينة داخله تنشط لإستعادة هذا التوازن.

٣- جميع الأنشطة التى يتكون منها هذا النظام الإجتماعى تساهم معا فى استقراره ، وكل منها له دوره فى الوصول به إلى هذا الإستقرار والمحافظة عليه.

٤- تحتل بعض الأنشطة مكانة أكبر فى المجتمع ، ولاغنى عنها فى استمرار وجوده ، لأنها تفى بالمتطلبات الأساسية الوظيفية للحاجات اللازمة والتى بدونها لايمكن أن يعيش هذا النظام الإجتماعى أو يستمر.

وعلى ضوء هذا النموذج ، يمكن تصور وسائل الإتصال الجماهيرى على انها تمثل بعضا من هذه الأنشطة المتكررة والمتماثلة والمتداخلة التى يقوم عليها النظام الإجتماعى. وهى ترتبط بالأنشطة الأخرى بعلاقة عضوية ووظيفية. فهى جزء من البناء وتسهم أيضا فى استقراره وتوازنه بل انها تؤثر ايضا فى الطريقة التى يستخدم بها الأفراد والجماعات داخل النظام الإجتماعى هذه الوسائل فى حياتهم اليومية.

ووسائل الإتصال الجماهيرى كأنشطة داخلة فى النظام الإجتماعى ، ومتأثرة به ومؤثرة فيه ، تعتبر من النشطة الأساسية التى توفر المتطلبات الأساسية لحاجات

---

(1) Merten , R. Social Theory and Social Structure. Glenccoe , III.: Free Press , 1949. Pp.19-84.

لايستغنى عنها النظام الإجتماعى. وبدونها ما كان فى الا مكان تصور المجتمع المعاصر بالكيفية التى نعرفه بها ، ولاكان فى الإمكان تصور الكيفية التى يمكن بها أن يبقى ويستمر .

ب- النموذج التطورى Paradigm of Social Evolution

تقوم الإفتراضات الأساسية التى يعنيها هذا النموذج على الطبيعة الأساسية للمجتمع والتى تتركز بشكل أساسى على التغيير . ولقد صيغ هذا النموذج وتحددت ملامحه خلال السنوات الأولى التى أرسيت خلالها دعائم علم الإجتماع. وصفة التطور التى تشكل قاعدة يقوم عليها هذا النموذج تستهدف التغيرات الإجتماعية وليس التغيرات البيولوجية. رغم أنه يستخدم القياس العضوى لإثبات أهمية فروضه الأساسية [١].

ويرى أنصاره هنا أن المجتمع يشبه الكائنات العضوية من حيث البناء ، ومن حيث عمليات التغير التى يتعرض لها هذا البناء. ولقد ظهرت لهذا النموذج صور عديدة ، تمثل جميعها محاولات علمية لتفسير التغير الإجتماعى اعتمادا على قوانين الطبيعة. ويلاحظ أن آليات التغير الإجتماعى فى هذه الصور تمد نوعا من الإنتخاب الطبيعى ، مثل البقاء للأصلح ووراثة الصفات المكتسبة. وهذه الآليات قريبة جدا من آليات التغير عند الكائن العضوى.

وهناك حالات عديدة فى المجتمع الإنسانى تؤيد ماذهبت اليه صور هذا النموذج ، حيث دمج بين أنماط سلوكية كثيرة جديدة واختفاء أنماط سلوكية قديمة خلال انتقال الثقافة من جيل إلى جيل ، كالممارسات العائلية والتنظيمات التجارية والإقتصادية. ومثل هذه التجديدات تحظى بالقبول ، لأنها تسمح لعدد من الناس بتحقيق أهداف يعتبرونها أكثر تأثيرا وفاعلية من أشكال السلوك التى كانت متاحة لهم من قبل. ولذلك ، فإن بعض عمليات الإنتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح تعد أساسا لإنفتاح المجتمع أمام نماذج سلوكية شديدة الإختلاف والتميز.

---

(١) Penisoff. S. Theories and Paradigm In Contemporary Sociology. Itasca. III.: Peacock. 1974. Pp 188-209.

ويمكن تلخيص الافتراضات الأساسية التى يقوم عليها النموذج التطورى فيما يلى مع مراعاة عدم المغالاة فى التبسيط الذى يسئ إلى مضمونه:

١- ينظر إلى المجتمع هنا على أنه يتكون من مجموعة من الأجزاء المترابطة ، وأنه تنظيم يقوم على أنشطة متكررة ومترابطة.

٢- هذا المجتمع يتعرض باستمرار للتغير ، حيث تصبح أشكاله الإجتماعية مختلفة ومتميزة بصفة مستمرة ومطردة.

٣- الأشكال الإجتماعية الجديدة تبتكر أو تخترع أو تنقل عن مجتمعات أخرى عن طريق الأفراد الذين يبحثون عن وسائل أكثر فاعلية لتحقيق الأهداف التى يعتبرونها هامة.

٤- هذه الأشكال الإجتماعية التى تساعد الناس على تحقيق أهدافهم بفاعلية أكثر ولاتتعارض مع القيم الموجودة تحظى بقبول الناس ، وتصبح أجزاء ثابتة فى المجتمع المتطور. ويتم نبذ الأشكال الأقل فعالية.

وتتضح أهمية هذه الإفتراضات الأساسية التى يقوم عليها هذا النموذج التطورى فى تفسير تاريخ وسائل الإتصال بصفة عامة ، حيث أدرك الكثير من البشر الحاجة إلى أنظمة اتصال أسرع وأكثر قدرة على تغطية أعداد كبيرة من القراء والمستمعين والمشاهدين. وقد تمت تجربة العديد من الأشكال الإجتماعية الجديدة كوسائل اتصال جديدة أو مطورة بالإستفادة من التطورات التكنولوجية. وقد تم استبعاد بعض هذه الأشكال والتخلى عنها ، بينما أختيرت أشكال أخرى لتبقى وتستمر وتنتقل إلى الأجيال التالية.

وهذا يعنى أن نمو وسائل الإتصال بصفة عامة ، كان دائما ناتجا عن عملية تطور تكنولوجى ، بظهور أشكال إجتماعية كانت ضرورية لتحقيق استفادة المجتمع من هذه التكنولوجيا. من أجل تحقيق الأهداف التى يعتبرها القائمون بالإتصال أهدافا هامة وضرورية وحيوية.

جـ - نموذج الصراع الإجتماعى The Social Conflict Model:

يفترض هذا النموذج أن الصراع ، وليس الإستقرار أو التطور ، هو أهم العمليات الإجتماعية ، على أساس أن المجتمع يتكون من عناصر اجتماعية متصارعة. وهذه الفكرة ليست جديدة فى حد ذاتها ، ولكنها تعرضت لدراسات فلسفية واجتماعية كثيرة. وكان النموذج الذى قدمه دارندورف R.. Dahrendorf فى دراسته سنة ١٩٥٨ حول الصراع الاجتماعى من أهم هذه الدراسات. ولقد ناقش فى دراسته القضايا التى تتصل بهذه العملية الإجتماعية ، وبناء على النتائج التى انتهى اليها وضع نموذجا لمجتمع يقوم على الصراع والتغير كدعامتين أساسيتين [١].

وظهرت بعده تطورات عديدة أسهمت جميعها فى وضع الإفتراضات الأساسية التى يقوم عليها هذا النموذج ، وحددت معالمها ، وأوضحت مكانة الإتصال كدينامية لهاتين الدعامتين. ونستطيع هنا أن نحدد أهم هذه الإفتراضات التى يقوم عليها هذا النموذج ، فيما يلى:

١- يتصور أصحاب هذا النموذج أن المجتمع يتكون من جماعات وفئات من البشر ، الذين تختلف مصالحهم بشدة ، من فرد لآخر ، ومن جماعة لأخرى، ومن فئة لأخرى.
٢- تحاول جميع مكونات المجتمع البحث عن مصالحها الخاصة من خلال المنافسة مع الأخرين ، أو الحفاظ على هذه المصالح عن طريق مقاومة الجهود التنافسية للآخرين.
٣- أن المجتمع المنظم بهذه الطريقة يتعرض لصراع مستمر ، عندما تحاول العناصر المكونة له تحقيق مكاسب جديدة أو المحافظة على مكاسبها. وهذا يعنى أن الصراع فى كل مكان وزمان.

---

(١) Dahrendorf . R. " Toward Social Conflict ", Journal of Conflict Resolution , Vol. 2, No.2, June 1958, Pp. 170- 183.

٤- من خلال هذه العملية التى تقوم على المنافسة والصراع بين المصالح الفردية والجماعية ، تأتى عملية التغيير المستمر بصفة دائمة. وهذا يعنى أن المجتمعات ليست فى حالة توازن ، وإنما هى فى حالة تغيير دائم.

ويعتبر هذا النموذج هاما لدراسات الإتصال الجماهيرى ، خاصة فى المجتمعات الرأسمالية ، حيث تكون وسائل الإتصال الجماهيرى مملوكة لمشروعات متنافسة ، تكرس جهودها لتحقيق الأرباح. فكل منها يتنافس مع المشروعات الآخرى لتحقيق مصالحه ، وسط شبكة من القيود التى تفرضها القوانين والتشريعات والقيم والأخلاق التى يضعها المجتمع الرأسمالى لتنظيم هذه المنافسات والصراعات ، إلى جانب التنظيمات الخاصة بكل مشروع وضغوط المعلنين الذين يتعاملون معها جميعها ، بالإضافة إلى القضايا التى تمثل ضغوطا معنوية على هذه المشروعات ، مثل قضايا حقوق المواطنين فى مواجهة الإستخدامات التى تتسم بالتجاوز من قبل العاملين بهذه المشروعات ، ومايئتج عنها من صراعات قانونية.

ومن الطبيعى أن تؤدى هذه المنافسات والصراعات داخل اطار هذا المناخ المشبع بالتنظيمات والضغوط المادية والمعنوية إلى تغييرات مستمرة فى عمليات ونماذج الإتصال داخل كل مجتمع رأسمالى. ومن ثم ، فالمشروعات المالكة لوسائل الإتصال الجماهيرى ليست فى حالة استقرار وسكون ، وإنما هى فى حالة تغير مستمر. وعلى ذلك ، يصلح هذا النموذج لتحليل جانب هام من جوانب هذه المشروعات ، على أساس النظر اليها كجماعات متنافسة ومتصارعة مع نفسها ومع الجماعات الآخرى داخل مجتمعاتها.

د - نموذج التفاعل الرمزى Paradigm of Symbolic Interactionalism

يؤكد هذا النموذج على الدور الذى تلعبه اللغة فى تشكيل الأنشطة الذهنية عند الفرد بصفة خاصة ، وفى تطور المجتمع والمحافظة عليه بصفة عامة. ويؤكد أيضا على العلاقة بين الأنشطة الذهنية والعقلية وعمليات الإتصال الإجتماعى. وهو نموذج توصل اليه الباحثون فى علم النفس الإجتماعى فى العصور الحديثة.

غير أن الإرتباط بين العقل والواقع عن طريق اللغة اتجاه قديم ، حيث ادرك فلاسفة الأغريق هذا الإرتباط. واستمر دور المعانى فى الشئون الإنسانية موضوعا يجذبهم لسنوات طويلة. وفى القرن السابع عشر وصف جون لوك John Locke فى دراسته بعنوان " مقالات فى التفاهم الإنسانى " ، العلاقة بين الكلمات ومعانيها عند الأفراد والروابط بين الناس الذين يشكلون المجتمع. واستنتج أن اللغة هى الأداة الكبرى والرابطة الأساسية للمجتمع (١).

وفى خلال القرن الثامن عشر ، أكد عمانويل كانت A Kante* على أن الجنس البشرى لايستجيب للكلمات ذاتها وانما يستجيب للمعانى التى تبينها هذه الكلمات فى ذهن الإنسان. وهذه الفكرة تطورت فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين من خلال كتابات الفلاسفة البرجماتين فى الولايات المتحدة الأمريكية من أمثال جون ديوى Dewy ووليام جيمس W. James وتشارلز بروس C. Bross(٢). وفى القرن العشرين ، برز اثنان من الباحثين باعتبارهما واضعى أساس النموذج التفاعلى الرمزى ، وهما عالم الإجتماع تشارلز هورتون كولى C.H.Coley والفيلسوف جورج هربرت ميد J. H Mead. (٣) . وتبعهما آخرون أسهموا فى تحديد المعالم الرئيسية للإفتراضات الأساسية التى يقوم عليها هذا النموذج ، والتى يمكن ايجازها فيما يلى:

١- ينظر أصحاب هذا النموذج إلى المجتمع على أنه نظام للمعانى. وتعتبر المساهمة فى المعانى المشتركة المرتبطة برموز اللغة أنشطة مرتبطة بالعلاقات بين الأفراد ، تنبثق منها توقعات ثابتة ومفهومة لديهم جميعا ، وتقود سلوكهم الإنسانى والإجتماعى.

---

(١) Locke . J. An Essay Concerning Human Under stading. Oxford: Clarendon Press 1975. P. 402.

(٢) Manis . J. & Meltzer . B. Symbolic Interactions : A Reader In Social Psychology. Boston: Allyn and Bacon . 1978. Pp. 1- 9.

(٣) Mead . G. Mind . Self and Society. Chicago: University of Chicago Press . 1934.

٢- من وجهة النظر السلوكية ، تعد الحقائق الإجتماعية والنفسية بناء مميزا من المعانى ، ونتيجة لمشاركة الناس الفردية والجماعية فى التفاعل الرمزى تصبح تفسيراتهم للواقع اصطلاحية متفقا عليها من الناحية الإجتماعية ، وذات ايقاع محدد من الناحية الفردية.

٣- أن الروابط التى توحد بين الناس ، وتوحد الأفكار التى لديهم عن الأخرين ، كما توحد معتقداتهم عن أنفسهم ، تعد كلها أبنية شخصية من المعانى ، وهى ناشئة عن التفاعل الرمزى. وعلى ذلك فإن المعتقدات الذاتية لدى الناس عن أنفسهم وعن الأخرين ، تعتبر من أهم حقائق الحياة الإجتماعية.

٤- أن السلوك الفردى فى موقف معين يتوقف على المعانى التى تربطه بهذا الموقف. وعلى ذلك ، لايكون السلوك رد فعل يحدث آليا ، أو يحدث كإستجابة آلية لمؤثر خارجي ، وأنما يكون ثمرة ونتاجا لأبنية ذاتية من المعانى حول النفس والآخرين والمتطلبات الإجتماعية للموقف.

ويلعب هذا النموذج دورا هاما فى فهم الكيفية التى تؤثر بها وسائل الإتصال الجماهيرى على الناس. فهى تعتبر من ناحية ، جزءا أساسيا من عمليات الإتصال فى المجتمعات الحديثة. وهى تقدم ، من ناحية أخرى بالصورة والكلمة تفسيرات للواقع الذى يضيف اليه من يتلقون الرسائل التى تنشرها أو تذيعها هذه الوسائل صيغة ذاتية خاصة. فالناس يمكنها أن تقيم أبنية ذاتية من المعانى حول الواقع المادى والإجتماعى الذى يعيشونه فى المجتمع من خلال مايقرأونه ويسمعونه ويشاهدونه. ومن ثم ، فإن سلوكهم الشخصى والإجتماعى يمكن أن يتحدد جزئيا من خلال التفسيرات التى تقدمها وسائل الإتصال الجماهيرى للأحداث الجارية والقضايا التى لايوجد مصادر معلومات بديلة عنها.

ويعتبر هذا النموذج من أعقد النماذج التى يستخدمها علماء الإتصال لشرح وتحليل التأثيرات غير المباشرة والبعيدة المدى لوسائل الإتصال الجماهيرى ، فى مواجهة الأفراد والجماعات والمجتمع كله بصفة عامة ، حيث تعتبر اللغة قاسما مشتركا بين هذه الوسائل والمجتمع الذى تنتمى اليه.

هـ - النموذج الإدراكي أو المعرفي Cognitive paradigm:

يعتبر هذا النموذج الأكثر أهمية بالنسبة للدراسات العلمية فى مجال الإتصال ، حيث يعطى تركيزا أساسيا على مكانة الأنشطة العقلية للكائنات البشرية فى تحديد شكل سلوكها. وهناك أكثر من رؤية لهذا الأساس الذى يقوم عليه النموذج الإدراكى أو المعرفى ، من خلال الدراسات التى قدمها الباحثون فى علم النفس الإجتماعى[١].

ولايركز هذا النموذج بدرجة كبيرة على اللغة والمعانى ، ولكنه يركز بدرجة أكبر على مجموعة من المفاهيم والعمليات التى تدخل أساسا فى بناء الشخصية الإنسانية ، محاولا الإجابة على سؤال يتعلق بالكيفية التى تعمل بها هذه المفاهيم والعمليات ، سواء من خلال التوازن أو الصراع على تحديد شكل الإستجابات السلوكية. وقد انتهى هذا النموذج أيضا إلى عدد من الإفتراضات الأساسية ، والتى يمكن ايجازها فيما يلى:

١- أن أفضل طريقة للنظر إلى الأفراد الأعضاء فى أى مجتمع ، هى باعتبارهم مستقبلين أومتلقين نشطين لمعلومات حسية.

٢- إن العمليات المعرفية أو الإدراكية تمكن الأفراد من نقل المعلومات المدركة بالحس بطرق مختلفة ، مثل صياغتها فى صور رمزية أو تفسيرها بشكل انتقائى أو تخزينها واستعادتها فى وقت لاحق من أجل اتخاذ قرارات سلوكية.

٣- أن العمليات المعرفية او الإدراكية التى تلعب دورا فى تحديد شكل السلوك الفردى تشمل الإدراك الحسى والتخيل والإعتقاد والمواقف والقيم والميول بالإضافة إلى التذكر والتفكير ، وغيرها من الأنشطة الأخرى.

---

(١) Barakowitz . L. Advances In Experimental Social Psycology New York: Academic Press 1974.

٤- أن المكونات المعرفية او الإدراكية التنظيم العقلى لفرد ما ، هى ثمرة خبراته التعليمية والعملية التى يكون قد حصل عليها بالدراسة أو المصادفة فى اطار اجتماعى فردى.

واستخدم هذا النموذج فى الدراسات العلمية للإتصال لتحليل تأثير الإتصال على الأفراد ، وخاصة مايتعلق منها بكيفية استيعاب الرسائل ، وكيفية تعلم الأنماط السلوكية من الصور التى تنقلها وسائل الاتصال الجماهيرى ، والكيفية التى تتغير بها المواقف والمعارف والقيم والأنماط السلوكية عن طريق الحث والإقناع بالإضافة إلى فهم الإحتياجات التى يشبعها مضمون هذه الوسائل والإهتمامات التى يتجاوب معها.

تلك كانت أهم النماذج الإجتماعية والنفسية التى يستفيد منها علماء الإتصال فى تحليلهم لعلاقة الإعتماد المتبادل بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاته. ولاشك أن هناك العديد من النماذج الإجتماعية والنفسية الأخرى التى تدعم فهم هذه العلاقة الهامة ، والتى تشكل اطارا لحركة هذه الوسائل فى مواجهة مجتمعاتها ، بما تقدمه من افتراضات أساسية تقوم عليها البحوث العلمية فى مجال الإتصال بصفة عامة والإتصال الجماهيرى بصفة خاصة.

****

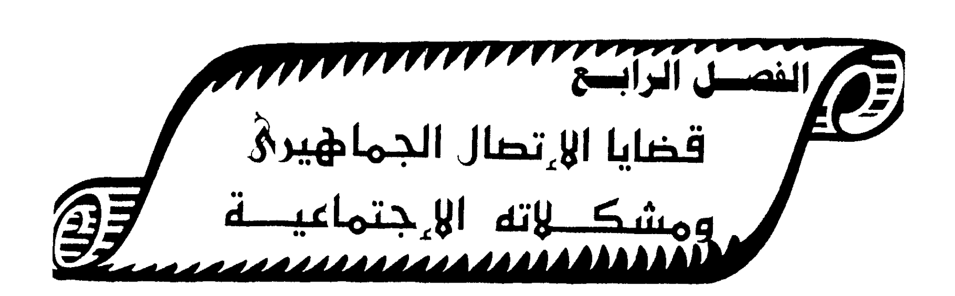
وخلاصة القول هنا ، أن اللتأثيرات المتبادلة بين وسائل الإتصال الجماهيرى ومجتمعاته ، كمضمون لدينامية الإتصال الجماهيرى فى المجتمع ، والتى اعتبرناها تطبيقا هاما لدينامية الإتصال الانسانى بصفة عامة ، لايمكن أن تفهم أبعادها إلا من خلال العلاقة الحقيقية بينها وبين المجتمع الذى تجرى داخله.

وقد رأينا أن كل عصر جديد جلب معه قدرة البشر على اثراء عمليات الفكر وتنظيم أنفسهم فى مجتمعات أكثر تعقيدا. وكما أن ظهور اللغة فتح أبوابا جديدة للناس للتخلص من قيود الإتصالات التى يحددها الزمان والمكان ، فإن تطورها إلى نظم معقدة من الإتصالات تسمح للبشر اليوم بتنظيم أنفسهم على نطاق أكثر عالمية

ومن خلال الشبكة المعقدة من علاقات الإعتماد المتبادل مع الأفراد والجماعات والمنظمات والنظم الإجتماعية ، تطورت وسائل الإتصال الجماهيرى من وضعها فى الثلاثينات من القرن الماضى باعتبارها شيئا تجريبيا جديدا ، إلى وضعها المعاصر باعتبارها نظما للمعلومات الضرورية ولإستمرار المجتمع المعاصر كما هو منظم اليوم. وتختلف الأدوار الإجتماعية المحددة التى تقوم بها وسائل الإتصال الجماهيرى من مجتمع إلى مجتمع ، لإختلاف علاقة الإعتماد المتبادل بينها وبين المجتمعات التى تنتمى اليها[١].

---

[١] Defleur , M , and Rokeach , S. Theories of Mass Communication. New York and London : Longman , 5th edition , 1989. Pp. 324 - 325.


الفصل الرابع
قضايا الإتصال الجماهيري
ومشكلاته الإجتماعية



لا يستطيع الباحث في دراسة عامة كالتى بين أيدينا ، أن يتناول ديناميـة الاتصال الإنسانى بكل تعقيداتها وأبعادها. ومـن ثم ، كان لابد من التطبيق على حالة جزئية تصلح نموذجا واقعيا لتصور جزئى للكيفية التى تعمل بها دينامية الاتصال فى المجتمع والنتائج التى تترتب على حركتها الهادفة ، تأثيرا وتأثرا ، وما تفرزه هذه الحركة الهادفة من قضايا ومشكلات لها ولمجتمعها فى إطار ما يجمع بينهما من علاقة عضوية ووظيفية تقوم على الاعتماد المتبادل بينهما.

وكان الاتصال الجماهيرى ، لاعتبارات كثيرة ، هو نموذجنا الذى اخترناه هنا للتطبيق. وتناولنا حركته فى المجتمع تأثيرا وتأثرا داخل إطار علاقة الاعتماد المتبادل بينه وبين المجتمع. ولكى يكتمل هذا النموذج الواقعى ويعطى ما يستهدف منه كتصوير جزئى لحركة دينامية الاتصال فى المجتمع ونتائجها ، كان لابد أن نتناول قضايا الاتصال الجماهيرى ومشكلاته الاجتماعية هنا.

وطالما سلمنا بوجود علاقة عضوية ووظيفية بين الاتصال الجماهيرى ووسائله والمجتمعات التى يحدث داخلها ، وسلمنا بأن هذه العلاقة تقوم على الاعتماد المتبادل، كان لابد أن نسلم بما نتج عن الحركة الهادفة للاتصال الجماهيرى ووسائله من قضايا ومشكلات ، ليس فقط داخل المجتمعات التى يحدث فيها ، وإنما أيضا بين هذه المجتمعات والمجتمعات الأخرى ، بفعل التطور التكنولوجى الهائل الذى يحدث لوسائل الاتصال الجماهيرى خلال السنوات الأخيرة.

غير أن الصعوبة التى تواجه الباحث ، وهو يحاول تحليل قضايا الاتصال الجماهيرى ومشكلاته الاجتماعية باتساع المجتمعات الإنسانية كلها ، هى ما تعنيه علاقة الاعتماد المتبادل كإطار لحركة الاتصال الجماهيرى ووسائله داخل كل مجتمع منها. فالتداخل ظاهرة أساسية بين وسائل الاتصال الجماهيرى ، سواء فى حركتها أو فى تأثيرها أو القضايا والمشكلات التى تثيرها. والتداخل ظاهرة أساسية أيضا بين هذه الوسائل ومجتمعاتها. وليس التداخل كظاهرة أساسية مشكلة فى حد ذاتها ، وإنما المشكلة فى عدم القدرة على الفصل بين الأسباب والنتائج فى مواجهة

كل القضايا والمشكلات التى تثيرها علاقة الاعتماد المتبادل بين هذه الوسائل ومجتمعاتها.

ففى مواجهة كل قضية أو مشكلة اجتماعية ناتجة عن الاتصال الجماهيرى ووسائله ، تجد لها اكثر من طرف مؤثر ، وتجد التداخل قائما بين هذه الأطراف جميعها ، بحيث لا نستطيع أن نجزم بما إذا كانت هذه القضية أو المشكلة من صنع وسيلة معينة أو أكثر أو من صنع العاملين بها أو من صنع القيم الثقافية فى المجتمع أو من صنع الأنظمة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع.

وأهمية التحديد هنا لطرف معين كفاعل أساسى فى مواجهة قضية أو مشكلة معينة ، أنه يفيد فى توصيف أسبابها ونتائجها وتوصيف الكيفية التى يمكن بها مواجهتها. وهذه كلها أبعاد هامة وأساسية ، خاصة إذا علمنا أن قضايا الاتصال الجماهيرى ومشكلاته الاجتماعية ليست وليدة اليوم ، وإن كانت اليوم أكثر تعقيدا بفعل التطورات التكنولوجية الأخيرة ، ولن تصبح قضايا أو مشكلات يمكن أن تنتهى اليوم أو غدا ، ولا ينتظر لها نهاية قريبة أو مرئية. ثم إنها قضايا ومشكلات تقوم على علاقة دائرية بين وسائل الاتصال الجماهيرى ومجتمعاتها ، تماما كالعلاقة بين البيضة والدجاجة التى حيرت الفلاسفة والمصلحين فى مواجهة القضايا والمشكلات المعقدة ذات الطبيعة المماثلة.

لكننا فى مواجهة بحثنا هذا ، لا نجد أنفسنا مضطرين إلى الخوض فى محاولة لإيجاد حلول لهذه القضايا والمشكلات التى تثيرها حركة الاتصال الجماهيرى ووسائله داخل المجتمع ، ليس هروبا من مواجهة الصعوبة التى تثيرها هذه القضايا والمشكلات ، ولكن لأن كل قضية منها تناولتها دراسات علمية كثيرة ومؤتمرات علمية محلية ودولية عديدة خلال القرن العشرين ، ولا تزال باقية على حالها ، هذا من ناحية. ثم إننا إذا أردنا أن نتناول كل قضية أو مشكلة منها تناولا جديدا ، فإن هذا يتطلب تركيزا على وضعها داخل إطار مجتمع معين ، وهذا يخرج البحث هنا عن أغراضه وأهدافه من ناحية ثانية. ومن ثم ، فإننا سوف

نكتفى هنا بتوصيف كل قضية أو مشكلة توصيفا عاما ، وبالكيفية التى تحقق الغاية من عرضها هنا.

وعلى ذلك ، نستطيع هنا أن نتناول هذه القضايا والمشكلات من زاويتين : أحداهما تتصل بالقضايا والمشكلات الداخلية فى كل مجتمع. وثانيتهما ، تتصل بالقضايا والمشكلات ذات الطابع الدولى والتى تؤثر على كل المجتمعات الإنسانية بصفة عامة والمجتمعات النامية بصفة خاصة.

ويلاحظ هنا أن هذه القضايا والمشكلات الاجتماعية تتصف بالعمومية. بمعنى أنها موجودة فى كل مجتمع وتعانى منها كل وسائل الاتصال الجماهيرى بصفة عامة. فهى ليست قاصرة على مجتمع دون آخر ، ولكنها عامة فى كل المجتمعات الإنسانية. والاختلاف بين هذه المجتمعات اختلاف فى درجة حدوثها ، وليس اختلافا حول وجودها أو عدم وجودها.

وبناء على ما تقدم ، نتناول القضايا والمشكلات الاجتماعية التى تثيرها وسائل الاتصال الجماهيرى فى مبحثين متتالين ، يقوم كل منهما على إحدى الزاويتين اللتين أوضحناهما ، كما يلى :

المبحث الأول : قضايا ومشكلات داخلية.

المبحث الثاني : قضايا ومشكلات دولية.

>>>><<<<

المبحث الأول

قضايا ومشكلات داخلية

ليس معنى قولنا أن هذه القضايا والمشكلات بالغة التعقيد ، إن أطرافها متداخلة بدرجة لا يمكن تحديدها ولكن قولنا هذا يعنى أن أطرافها قد يسهل تحديدها، ولكن لا يسهل تحديد دور كل منها فى قضية معينة بالذات. وقد يعلو دور أحدها بدرجة مميزة ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأنه وحده هو صانع هذه القضية أو المشكلة. أو أن دور أحدها ثانوى وغير مؤثر. فالأدوار جميعها قوية ، وإن كان إحداها أقوى ، والتأثيرات جميعها متداخلة ، ويصعب الفصل بينها.

ولنضرب مثلا توضيحيا على ذلك ، فالسلطة فى المجتمع فى قضية مثل قضية حرية الصحافة فى مجتمع ما قد يكون دورها فى خلق هذه القضية أوضح وأقوى ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل دور الممارسات الصحفية غير السليمة والتى يكون دور السلطة فى مواجهتها رد فعل تتفاوت درجاته. وقد تصنع الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية مناخا ملائما أو غير ملائم لإجراءات تعسفية معينة ، وتكون النتيجة مساحات متفاوتة من حرية الصحافة فى هذا المجتمع أو ذلك. فهل نستطيع فى مواجهة هذا المثال التوضيحى القول بأن السلطة وحدها هى صانعة هذه القضية ، أم أن هذه الظروف متعددة والمتغيرات كثيرة ، وكل له دوره، وكل له تأثيره ، وتتداخل الأدوار ، وان ملك أحدها قوة أكبر ، وتتداخل التأثيرات لتجعل من هذه القضية جرحا لا يندمل داخل كل مجتمع ، مهما كانت نوعية النظام السياسى أو الفلسفة السياسية التى تحكمه ؟ لا شك أن الإجابة هنا واضحة ولا تحتاج إلى المزيد من الأدلة والبراهين.

ولسوف نتناول هذه القضايا بشىء من التفصيل. وعلى ضوء الغرض الذى يستهدفه هذا البحث ، لسنا ملزمين بالخوض فى تفاصيل كثيرة قد تدخلنا فى متاهات نحن فى غنى عنها ، خاصة ونحن نعلم أن كل هذه القضايا والمشكلات مفتوحة النهاية ، ولم يصل فيها الأكاديميون والمشرعون إلى حلول نهائية. ولا تزال كل وسائل الاتصال الجماهيرى تعانى منها معاناة مزمنة.

ويهمنا هنا أن نستعرض من هذه القضايا والمشكلات ثلاث قضايا بمشكلاتها الاجتماعية ، لكل منها مضمونها وأبعادها وتأثيراتها على المجتمع من ناحية وعلى كل وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيرى من ناحية ثانية ، وعلى هذه الوسائل مجتمعة فى مواجهة مجتمعاتها من ناحية ثالثة ، ولسوف نتناول كل منها بالكيفية التى تصور مضمونها وأبعادها وتأثيراتها داخل إطار عام ، ودون الخوض فى تفصيلاتها داخل مجتمع معين ، ولكن هذا الإطار يسهم فى توفير قاعدة أساسية لتحليل كل قضية داخل كل مجتمع. ونعتقد أن هذا يكفى كهدف أساسى لهذا البحث.

والقضايا الثلاث التى نقصدها هنا ، هى : قضية الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى ، وقضية التصنيع فى وسائل الاتصال الجماهيرى ، وقضية الأخلاقيات المهنية. ولئن كانت كل قضية فى أساسها مشكلة إلا أن مضمونها أعقد وأكثر أبعادا ويمكن أن يتفرع عنها مشكلات عديدة.

وليست كل قضية من هذه القضايا الأساسية منفصلة عن الأخرى ، ولكنها قضايا متصلة ببعضها ، بحيث تبدو تأثيراتها مجتمعة داخل كل مجتمع قضية بالغة التعقيد. ويمكن أن نتناول كل قضية منها بشىء من التفصيل ، بالكيفية لتى أوضحناها والأبعاد التى حددناها. وذلك كما يلى :

أ- قضية الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى

يدور الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى حول المساحة التى تسمح بها السلطة لوسائل الاتصال الجماهيرى لكى تتحرك داخلها من أجل تحقيق أهدافها فى مجتمع معين ، أى أنه صراع حول حرية هذه الوسائل فى أن تمارس دورها فى المجتمع بالكيفية التى تراها مناسبة لتحقيق المصلحة العامة.وهذا يعنى أن قضية الصراع بين السلطة وهذه الوسائل ، ما هى إلا قضية الحرية التى تطالب بها هذه الوسائل فى مواجهة السلطة الحاكمة.

وهذه القضية جزء من قضية أعم ، هى قضية الحرية التى يطالب بها الفرد داخل المجتمع الذى ينتمى إليه. وهى قضية ليست قضية حديثة ، وإنما هى قضية قديمة تعود إلى البدايات الأولى لتواجد الإنسان فى تجمعات بشرية مع بداية

الحضارة الإنسانية. ولكى تفهم القضية الجزئية ، ينبغى أن تفهم القضية الكلية التى تمثل إطارا عاما لها.

وتقول إحدى الدراسات العلمية ، أنه فى مجتمع يقوم سياسيا على التباين بين الحاكمين والمحكومين ، أو بين القلة الحاكمة والأكثرية المحكومة ، تعنى الحرية أن يفلت الفرد من سطوة السلطة. وتجد الحرية تبريرا لها فى تصور وجود خصائص طبيعية للفرد ، لا تستمد من أحد ولا تخضع لأحد. وتبدأ الحرية فى إطار هذا التدبير من حيث يتوقف نشاط السلطة عند حدود لا تتعداها.

وتضيف هذه الدراسة العلمية ، أنه ليس معنى ذلك ، أن الحرية تتأتى للفرد من انعزاله ، وإنما تأتى الحرية له من خلال تنظيم اجتماعى يوفر له إمكانات التفتح الكامل. بمعنى أن الحرية جزء من البنيان الاجتماعى. ومن ثم ، فإن الفكر السياسى يتجه الآن إلى التركيز على غايات الإنسان وغايات المجتمع ، ليحدث توازنا بينها داخل إطار غايات اجتماعية مشتركة. ولقد مرت الحرية كفكرة سياسية فلسفية واجتماعية بتقلبات كثيرة وتطورات عديدة ، لكى تصل إلى مفاهيم دافعة للتقدم الاجتماعى وغير معوقة له[١].

وانتهت هذه التطورات والتقلبات إلى أن الحرية ينبغى أن تكون إيجابية وليست سلبية ، وأن نماء الحرية لا يشكل حلقة مفزعة ، وأن المرء يمكن أن يكون حرا ولا يكون فى الوقت ذاته منعزلا ، وأن يكون قادرا على النقد بدون شكوك ، وقادرا على الاستقلال بدون انفصال. وهذه الحرية يمكن للفرد أن يبلغها بتحقيق الذات فى مجتمع يؤمن بذلك.

وتعرف هذه الحرية ، بأنها نشاط تلقائى للشخصية الإنسانية الكاملة ، نشاط متجه عن وعى إلى تحقيق تصور تؤمن به للصالح المشترك[٢]. والنشاط التلقائى عكس النشاط القسرى الذى يقاد إليه الفرد بفعل انعزاله وعجزه. كما أن النشاط

(١) نعيم عطية : فى النظرية العامة للحريات الفردية. القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ، صص ٢١ - ٢٢.

(2) Framm, E. The Fear of Freedom. London, 1965. P. 222.

التلقائى ليس نشاطا آليا ينتهج أنماطا للتفكير والتصرف والعاطفة آتية من خارج الذات. وهذا النشاط التلقائى يستهدف غرضا اجتماعيا ، يتمثل فى تصور صاحبه للصالح المشترك بينه وبين مجتمعه.

وفكرة الصالح المشترك ، وإن انطوت على كثير من العناصر المتغيرة ، إلا أنها تقوم على عناصر ثابتة أيضا ، ولا يخلو منها أى تصور اجتماعى لها. ولئن اختلفت المجتمعات الإنسانية حول مضمون الصالح المشترك لاختلاف ظروفها ، إلا أنها تجمع على أن هذه العناصر الثابتة هى المقومات الأصلية لفكرة الصالح المشترك ، والتى بدونها لا يعتبر صالحا مشتركا.

وتنحصر هذه العناصر الأساسية الثابتة فى ثلاثة عناصر ، هى : العدالة والسكينة والتقدم. وكل تصور اجتماعى للصالح المشترك فى كل مجتمع ينطوى على تحديد لمعانيها. ولكن الاختلاف فى المفاهيم حول كل عنصر منها جائز وواقعى ، وإن كانت كل التصورات الاجتماعية تجمع على ثبات هذه العناصر ذاتها لكى يقوم عليها الصالح المشترك.

وعنصر العدالة لا ينطوى على مجرد عدم إيقاع الضرر بالغير وإعطاء كل ماله ، وإنما تنطوى أيضا على شىء أعمق من ذلك ، وهو التوازن المستهدف تحقيقه بين المصالح المتعارضة بغية كفالة النظام اللازم لسكينة المجتمع وتقدمه. وعندما يرتبط مفهوم العدالة بالمصلحة الاجتماعية يتخذ معان كثيرة ومتعددة وتختلف وجهات النظر حول مضمونه وأبعاده.

أما عنصر السكينة ، فإنه يعنى أنه مهما تعددت وتنوعت الروابط بين الأفراد، فإنها تقوم على اعتراف متبادل بوجود الآخرين فى نطاق نفس المجتمع. وهذا يترتب عليه ضرورة تعيين الحدود لما لكل منهم ولما عليه. وتأتى هذه الضرورة من الضمير أولا ، ومن أوضاع الحياة الاجتماعية ثانيا. فهناك أولا الإحساس بأن حرية الفرد لا تعنى سلطانه المطلق فى مواجهة الآخرين ، وإنما تعنى فقط احترام شخصيته الإنسانية فى روابط تقلل من إمكاناته القائمة على الأثرة دون مساس بطبيعته الإنسانية أو بالأهداف التى تسعى إليها إنسانيته. وهناك ثانيا

الأوضاع الاجتماعية التى تجعل الفرد يجرب أن تعيين الحدود لما له ولما عليه ، إنما هو بمثابة الحد المناسب والصالح لحياته. وهذا يعنى أن الصالح المشترك ، كحاجة اجتماعية أساسية ، هى الحاجة إلى الاستقرار.

وأما التقدم كعنصر ثالث ، فإنه لا خلاف على ضرورة التقدم الاجتماعى ، وإنما الخلاف حول مضمونه وكيفيه تحقيقه. فما يعد تقدما فى نظر البعض ، قد يعد تخلفا فى نظر الآخرين. ولا يعنى التقدم السير بالمجتمع إلى الأمام فحسب ، وإنما تعتبر الحيلولة دون رجوعه إلى الوراء أمرا ضروريا لتقدمه.

تلك كانت المقومات الأساسية التى تقوم عليها فكرة الصالح المشترك كهدف اجتماعى لحرية الإنسان فى كل مجتمع. وهذه الفكرة لا تقوم على المقومات الأساسية فحسب ، وإنما تقوم أيضا على إيجاد التوازن المناسب بينها وهذا يعنى أن الصالح المشترك يتحقق عن طريقين : أولهما ، إعطاء مفهوم صحيح لكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة ، طالما أن الاعتراف بها جميعا ليس موضع جدل وخلاف. وثانيهما ، إحداث توازن بين المفاهيم الصحيحة لهذه العناصر الثلاثة ، بالكيفية التى تحدث تناسقا بينها عند التطبيق.

وكما أن الصالح المشترك كفاية اجتماعية للحرية الفردية فى المجتمع ليس فكرة بسيطة ، وإنما هو فكرة مركبة ومعقدة لقيامها على عناصر ثابتة ومتغيرة كثيرة ومتداخلة ، فإن الحرية ذاتها كنشاط تلقائى يتحقق به الصالح المشترك ، ليست هى الأخرى فكرة بسيطة ، وإنما هى فكرة مركبة فى مفهومها ومعانيها.

وتعريف الحرية ، كما جاء فى إحدى الدراسات العلمية ، يعنى تأكيد كيان الفرد تجاه سلطة الجماعة أو المجتمع. وهى تعنى الاعتراف للفرد بالإرادة الذاتية ، مما يعنى الاتجاه إلى تدعيم هذه الإرادة وتقويمها بما يحقق للإنسان سيطرته على مصيره[١]. ومن ثم ، اعتبرت ضمانا لاستقلال الفرد والاعتراف بذاتيته وتحقيق كرامته الإنسانية فى مواجهة الحكام.

---

(١) أنور رسلان : الحقوق والحريات العامة فى عالم متغير. القاهرة : دار النهضة المصرية سنة ١٩٩٣. صص ١٧٠-١٧٤.

وينقسم مضمون الحرية الفردية إلى مجموعتين : أحداهما تشمل الحريات المتعلقة بالنشاط الفردى. وثانيتهما ، تشمل الحريات التى تعتبر وسائل يستخدمها الفرد لمعارضة الدولة داخل المجال المسموح بالتدخل فيه.

وتضم المجموعة الأولى حقوقا عديدة ، مثل حق الأمن ، وحرمة المسكن وسرية المراسلات ، وحرية التنقل ، والحريات الأسرية ، وحق الملكية وحرية المشروع ، وإدارة التبادل التجارى وحريته ، وحرية تحديد الأسعار والأجور طبقا لحالة السوق، وحرية العقيدة ، وحرية الفكر ، وحرية الرأى ، وحرية التعبير سواء بالرسم أو التصوير أو الكلام أو السينما أو المسرح أو الإذاعة.

وتضم المجموعة الثانية حقوقا وحريات عديدة أيضا ، مثل حرية الصحافة ، وحرية الاجتماع ، وحرية التظاهر ، وحرية تكوين الجمعيات. وتسمى الحريات الأربع بالحريات السياسية. وتعتبر حقوقا للأفراد للمساهمة فى حكم الدولة.

ولقد نصت معظم الدساتير القومية وإعلانات حقوق الإنسان القومية والعالمية على كل هذه الأنواع من الحقوق والحريات. ولكن بقيت المشكلة قائمة بين النص وتفسيره ، أو بين الشكل والمضمون. فالاعتراف بهذه الحقوق والحريات كان شكليا فى كل دول العالم. وبقى التفسير محل خلاف واسع ، لكى يخلق مشكلة الصراع بين السلطة والفرد ، كإطار للصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى التى يستعملها الفرد فى مواجهة السلطة ، من أجل تحقيق الصالح المشترك ، بالكيفية التى يراها مناسبة ، وتحول السلطة بينه وبين ذلك من منطلق مفهومها للصالح المشترك أيضا.

ولكى نعطى لهذا الاستنتاج مدلوله وأهميته وأبعاده كجوهر لقضية الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى ، يمكن أن نتتبع تطبيقات حرية الصحافة فى نموذجين للمجتمعات الإنسانية : أحدهما ، يضم المجتمعات الغربية المتقدمة ، والآخر ، يضم المجتمعات النامية. علما بأن الصحافة مصطلح يعنى الصحافة المطبوعة والصحافة المذاعة معا.

أولا : حرية الصحافة فى المجتمعات الغربية.

يقوم التعريف الغربى لحرية الصحافة على مبدأين أساسيين : أولهما ، يحرم تدخل الحكومة فى نشاط الصحافة ، سواء من خلال الرقابة أو أية قيود أخرى. وثانيهما ، يفترض أن يكون تطبيق أية قيود تضطر إليها الحكومة من خلال المحاكم ، وأن يكون للمحاكم وحدها الحق فى فرض العقوبات.

ورغم أن الدساتير فى المجتمعات الغربية المتقدمة والولايات المتحدة الأمريكية تنص جميعها على حرية التعبير وحرية الصحافة وغيرها من الحريات ، إلا أن هناك تباينا بين المثاليات التى تحددها الدساتير والتطبيقات التى تمارس بها هذه الحريات. ولئن كان الفارق بين المثاليات والتطبيقات أصبح غير كبير خلال السنوات الأخيرة ، إلا أن هذا لم يتحقق إلا من خلال فترات كفاح طويلة بين السلطة والصحافة المطبوعة بصفة خاصة.

وتقول إحدى الدراسات العلمية ، أن تاريخ الصحافة فى الدول الغربية المتقدمة هو أيضا تاريخ قمع الأفكار التى لا تراها الدولة مناسبة ، لأن الدولة كانت تنظر إلى نفسها دائما على أنها صاحبة السلطة النهائية على المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأن عليها أن تقوم على حراستها ، وأما كانت الصحافة فى نظرها وسائل يمكن استخدامها فى إثارة الفتن ونشر القلاقل وتهييج الرأى العام ، فإنها استخدمت فى مواجهتها أساليب الرقابة لتضمن استقرار النظام السياسى. ولم تكن الحرية مطلقة لا للصحافة ولا للفرد. وكانت الدولة أو السلطة تحتفظ دائما بالحق فى حماية نفسها. وحرية التعبير وحرية الصحافة كان يحدهما دائما ما يمثلانه من تهديد للنظام القائم[١].

وطوال تاريخ العلاقة بين السلطة والصحافة التى حكمها الصراع بكل أشكاله ودرجاته ، كانت الصحف فى المجتمعات الغربية المتقدمة طوال هذه السنين ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، تعمل تحت حماية القوانين التى تنظم حرية

---

(١) جون مارتن وأنجو شوردى ، ترجمة على درويش : نظم الإعلام المقارنة. القاهرة : الدار الدولية للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٩١. صص ٤٢٢ - ٤٢٣.

الصحافة وحرية التعبير. وكانت مواد القوانين والدساتير تفسر غالبا على أساس الحقوق الطبيعية للإنسان. ولكن الوضع قد تغير خلال السنوات الأخيرة على ضوء ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، حيث ضاق مفهوم حرية التعبير، وتحول تحولا أساسيا من الحق فى التعبير إلى مجرد الحق فى استهلاك المعلومات المتاحة والتى نتج عنها سوق للأفكار المتباينة، والتى تؤكد على أهمية استهلاكها كمشاركة فى النظام الديمقراطى الذى تأخذ به هذه المجتمعات.

وتكون المعضلة الآن فى المجتمعات الغربية، انه ما ان انتهت إلى درجة مستقرة تقرب بين المثاليات التى تنص عليها دساتيرها والتطبيقات التى يقوم عليها واقعها بعد النضج الذى وصلت إليه الحكومات والصحافة، حتى برزت أهمية تطوير المفاهيم بما يتناسب مع حاجات فرضت نفسها بفعل التطور الهائل فى وسائل الاتصال الجماهيرى وفى المجتمعات التى تنتمى إليها.

ثانيا : حرية الصحافة فى المجتمعات النامية :

إذا كانت المجتمعات الغربية المتقدمة وصلت إلى فارق قليل بين المثاليات التى تنص عليها دساتيرها والتطبيقات التى يقوم عليها واقعها، فيما يتعلق بالحريات الأساسية للإنسان بصفة عامة، وفيما يتعلق بحرية الصحافة بصفة خاصة، فإن هذا الفارق كبير وواسع فى المجتمعات النامية، ويصل غالبا إلى حد التناقض.

وهذه الحقيقة لها مدلولها ومغزاها على ضوء ما نعرفه عن هذه المجتمعات من أنها غير محدودة الشخصية حيث أن مؤسساتها الاجتماعية لا تزال فى دور التشكيل، والديمقراطية بها فى وضع حرج، وسيطرة الحزب الواحد أو القلة العسكرية ظاهرة جلية، والعلاقة بين الحكومة والصحافة غير محددة تحديدا كافيا، والصحافة ذاتها واقعة فى دوامة الابدلوجيات، ولا توجد إلا فرص ضئيلة للأخذ بالمفهوم الغربى لحرية الصحافة وتطبيقاته.

وبصرف النظر عن الابدلوجيات التى تتبعها المجتمعات النامية، نجد أن الجهود الكبيرة والمتعجلة التى تبذلها الصفوة الحاكمة لتنمية مجتمعاتها، لا تترك

مجالا واسعا لصحافة حرة ومستقلة بالمفهوم الغربي. ولقد اتضح من تصريحات كبار المسئولين فى هذه المجتمعات فى أكثر من مناسبة ، أن حرية الصحافة لا تعنى شيئا فى مواجهة التخلف والانقسام والتعصب وغيرها من الصفات السلبية التى تعانى منها شعوبها.

غير أن رجال الصحافة فى هذه المجتمعات ، من ناحية أخرى ، يرون أن المصلحة القومية ليست حكرا على الزعماء السياسيين ، وأنه إذا لم تعط للصحافة حريتها ، فإن جهود التنمية التى تقوم بها الطبقة الحاكمة يمكن أن تنحرف عن طريقها ، ولا تحقق أهدافها. فالحكومات والشعوب والصحافة شركاء متساوون فى مواجهة المصلحة القومية لهذه المجتمعات ، ولا ينبغى أن تنفرد الحكومة بحقها فى الاستئثار بمفهومها فى تحقيق هذه المصلحة القومية.

ومع ذلك ، كانت الغلبة دائما للحكومات لما تملكه من سلطة لا تتوفر للصحافة كطرف مقابل. وخضعت الصحافة فى هذه المجتمعات ولا تزال لقيود كثيرة ظاهرة ومستترة. وقد استطاع بعض الباحثين فى دراسة لهم عن الصحافة الأجنبية أن يحصروا القيود والضغوط التى تستخدم حكومات العالم الثالث كثيرا منها بشكل ثابت أو متقطع[1].

وقسم هؤلاء الباحثون هذه القيود والضغوط إلى أربعة أقسام : يضم أولها الضغوط الاقتصادية والسياسية ، كالرشاوى والإعانات والامتيازات الخاصة والسيطرة على ورق الصحف والإعلانات الحكومية والرقابة على القروض البنكية.

ويضم القسم الثانى الضغوط القانونية ، كبعض الأحكام الدستورية وقوانين الأمن مثل القوانين المناهضة للشيوعية ، وقوانين الصحافة وقوانين العقوبات ، مثل القوانين الجنائية الخاصة بالقذف والتشهير وانتهاك الأسرار الخاصة للأفراد وإهانة المحكمة ، وغيرها.

ويضم القسم الثالث إجراءات السرية التى تفرض على مصادر المعلومات والأخبار ، كالحرمان من معرفة المعلومات الحكومية وتعيين متحدثين صحفيين فى

---

(1) Merrill, J. & others. The Foreign Press. Baton Rouge : Louisiana State University Press, 1970.

كل مكان كوسائل لإدارة مصادر الأخبار وليقوموا بدور حارس البوابة فى نظريات الاتصال.

وأما القسم الرابع ، فإنه يضم القيود المباشرة ، وهى قيود تفرض بالإكراه وتسبق النشر والإذاعة ، مثل التصاريح والتسجيل ، واستصدار شهادات الثقة بالصحفيين ، واستخدام التوصيات العامة كرقابة ذاتية ، واستخدام نظام تليفزيونى تتمكن من خلاله الحكومة من إخبار رؤساء التحرير بما لا يجوز طبعه ، وتعيين الرقباء فى المؤسسات الصحفية ، وسحب المطبوعات من السوق بعد نشرها ، وفصل الصحفيين المشاغبين ، والاعتقال والاستجواب والتعذيب ، وإلقاء القنابل ، وغيرها من أعمال الإرهاب للصحفيين ، وعمليات الإدماج والإغلاق الجبرية للمؤسسات الصحفية ، واختطاف أو قتل الصحفيين بواسطة المرتزقة الذين يعملون بتحريض من الحكومة ، وغيرها.

ويبدو أن الأوضاع التى تعانى منها الصحافة فى المجتمعات النامية تحتاج إلى تبريرات مقبولة[1]. وهنا نجد دراسة قام بها فريدريك سيبرت F. Siebert سنة ١٩٥٢ صالحة لإعطاء مثل هذه التبريرات المقبولة. وقد قامت هذه الدراسة على فرضين هامين : أولهما يدعى أن مدى سيطرة الحكومة على الصحافة يتوقف على طبيعة علاقة الحكومة بهؤلاء الخاضعين لها ، فإذا كانت هذه العلاقة فى أساسها استبدادية مثلما يحدث فى حالة حكم فرد واحد أو حزب واحد ، فإنه من الأرجح أن تخضع الصحافة لسيطرة الحكومة. وإذا كانت هذه العلاقة ديمقراطية بشكل أو بآخر وتسمح بوجود أحزاب أخرى ، فإن الصحافة تكون أكثر حرية وتعكس التعددية التى يقوم عليها النظام السياسى.

أما الغرض الثانى ، فإنه يدعى أن مساحة الحرية تضيق والقيود الحكومية تزداد كلما ازدادت الضغوط على استقرار الحكومة واستقرار البناء الاجتماعى. وبما أن معظم المجتمعات النامية غير مستقرة سياسيا واقتصاديا ، فإن الصحافة لابد وأن تعانى من القيود والضغوط. وهنا يمكن أن نتصور كيف أن الاندفاع نحو

---

(1) Siebert, F. Freedom of The Press In England. Ellinois: University of Illinois Press, 1952. P. 9.

التنمية السريعة يشكل وضعا مجهدا. وكلما كانت الدولة اكثر التزاما بالتنمية السريعة ، كلما كان الأرجح أن تستخدم الحكومة وسائل الاتصال الجماهيرى وأن تؤثر عليها.

ويضيف بعض الباحثين ، أن الصفات الشخصية لبعض حكام العالم الثالث تزيد القتامة على صورة حرية الصحافة فى بلادها ، وأن معظم الدول النامية سوف تظل تحت نوع من الحكم الشمولى الذى يفرضه هؤلاء الذين يتذرعون بالتنمية ومتطلباتها ، وسوف تظل هذه المجتمعات بالتالى محرومة من الوصول إلى هامش مقبول لحرية الصحافة داخلها(١).

وبذلك تكون حرية الصحافة كمضمون الصراع بينها وبين السلطة داخل إطار الصراع بين السلطة والفرد ، قضية شائكة ، وليس من السهل الوصول إلى مواجهة حاسمة معها. فعندما وصلت المجتمعات الغربية المتقدمة بعد كفاح طويل إلى هامش معقول لحرية الصحافة بها ، يضيق المسافة بين المثاليات الدستورية والتطبيقات الواقعية ، ظهرت متغيرات جديدة بفعل التطورات التكنولوجية الحديثة وفرضت مفاهيم جديدة وضمانات جديدة حتى تظل المسافة ضيقة بين المثاليات والتطبيقات. أما فى المجتمعات النامية ، فالقضية أعقد بدرجة لا تنبئ بإمكانية مواجهتها فى المستقبل القريب داخل إطار المفاهيم التقليدية لحرية الصحافة فى المجتمعات الغربية المتقدمة. وأما المجتمعات التى لا تزال تدين بالشيوعية ، فالحديث مفتوح بلا نهاية ، حيث يحكم التعصب الأعمى كل شيء ويتحكم فى كل شيء.

ب- قضية التصنيع فى وسائل الاتصال الجماهيرى :

هذه القضية تمثل جانبا آخر لحرية الصحافة أو لحرية وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع بصفة عامة. فلقد علمنا أن الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى يؤدى إلى التضييق على حركة هذه الوسائل داخل مجتمعاتها

(١) جون مارتن وانجو شودرى ، ترجمة على درويش : نظم الإعلام المقارنة ، مرجع سابق ، ص ٤٤٨.

بدرجات متفاوتة ، وإلى التقليل من مساحة حريتها في العمل بالكيفية التي تراها مناسبة. أما هذه القضية التي بين أيدينا ، وهي قضية التصنيع في وسائل الاتصال الجماهيري ، فقد أدت إلى مشكلتين أساسيتين : أولاهما ، مشكلة الاحتكار بكل ما تعنيه من سلبيات مؤثرة على حريتها ، وثانيهما ، مشكلة سيطرة الإعلانات على مواردها ومضمونها بشكل يؤثر على حريتها في أداء رسالتها.

وتعود هذه القضية إلى ما لحق بوسائل الاتصال الجماهيري من تطورات مذهلة خلال القرن العشرين بصفة عامة والنصف الثاني منه بصفة خاصة. فلقد أضحت هذه الوسائل صناعات معقدة بكل ما في هذا الوصف من معاني ، وأوضحت تحتاج إلى رءوس أموال ضخمة لا يقدر عليها الأفراد العاديون. وقد عبر اللورد نور ثكليف ، وهو من أساطير الصحافة الإنجليزية ، عن هذا التطور في بداية الخمسينات من هذا القرن ، بقوله : أنه لن يتمكن أي شخص في المستقبل من إصدار جريدة يومية بأقل من رأسمال قدره مليون جنيه إسترليني[١].

فلقد أصبحت صناعة الصحف لا تقوم إلا برأسمال ضخم ، حيث تستهلك يوميا آلاف الأطنان من الورق. كما تستهلك هذه الصناعة مئات البراميل من حبر الطباعة كل يوم. ثم إن إمكانيات الطباعة غالية الثمن وباهظة التكاليف ، حيث تطورت من طباعة بضعة آلاف محدودة من النسخ إلى طباعة نصف مليون نسخة في الساعة الواحدة ، وباستخدام أربعة ألوان رئيسية وثمانية ألوان تركيبية ، ولا يزيد حجم الوحدة منها على حجم سيارة النقل المتوسطة الحجم ، ولا تحتاج لتشغيلها لأكثر من أربعة عمال فنيين ، ويسبق تشغيلها برمجة كمبيوترية لا تستغرق أكثر من دقائق ، ويصل ثمن الوحدة منها إلى أربعة ملايين دولار[٢]. وإذا كانت حاجة الصحافة إلى السرعة في إنتاجها دفعت إلى تطور آلات الطباعة ، فإن

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أزمة الضمير الصحفي. القاهرة : دار الفكر العربي ، سنة ١٩٦٠. صص ١٦-١٧.

(٢) عبد المنعم سرى الدين : "تطور وسائل الاتصال والمواجهة الإعلامية القادمة". مجلة الدراسات الإعلامية ، ابريل ١٩٨٦. صص ٨١-٩٩.

هذه الآلات ذاتها أدت إلى تطور الصحافة ، حيث أدت إلى تطوير الإخراج الصحفى للمادة والصورة ، وإلى توظيف إمكانيات الطباعة الحديثة فى خدمة التفوق الصحفى وجذب الإعلان الذى يعتبر المورد الرئيسى للصحف فى جميع أنحاء العالم.

ويضاف إلى ذلك ، ما أصاب عمليات جمع الأخبار وتصويرها من تطور احتاج إلى نفقات باهظة وما لحق الأجور والمرتبات من زيادات هائلة ، سواء للمحررين أو الفنيين أو الإداريين. ثم إن الصحافة المطبوعة احتاجت إلى مبان ضخمة ، وإلى أسراب كبيرة من سيارات النقل للتوزيع.

كما يضاف إلى ذلك ، دخول الصحافة إلى ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وقد استطاعت صحيفة Columbus Dispatch بالفعل ، أن تصدر طبعة إلكترونية يستقبلها المشتركون بالتليفزيون من خلال أجهزة الكمبيوتر الموجودة فى منازلهم. وانتشرت هذه الطباعات لصحف أخرى فى مدن أخرى بالولايات المتحدة وإنجلترا. والمهم هنا ، هو أن المشترك يختار من الجريدة الصفحات التى يريد أن يقرأها ، والإعلانات التى يريد أن يشاهدها من خلال الاتصال المباشر بينه وبين الصحيفة.

وتحتل صناعة الصحيفة مرتبة بارزة بين الصناعات المتطورة فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. ففى إنجلترا يصل توزيع بعض الصحف إلى ما يزيد على خمسة ملايين نسخة للصحيفة الواحدة ، وفى اليابان يصل توزيع صحيفة أساهى إلى اثنى عشر ملايين نسخة. وتحتل الصحيفة الإنجليزية المرتبة الثانية عشر بين الصناعات البريطانية لما تحققه من أرباح.

ويمكن القول أن تقدم الصحافة المطبوعة واكب تقدم وسائل الاتصال الأخرى. فقد أصبحت صناعة أجهزة الاستقبال التليفزيونى وأجهزة التليبرنتر والمراسلات الهوائية الإذاعية الإلكترونية والكهرومغناطيسية وآلات الطباعة والتلكس والفاكسميلى وغيرها ، صناعات ضخمة ، تماما كما حدث للصحافة

المطبوعة. وأصبح من العسير على الأفراد العاديين امتلاك محطات إذاعية أو دور نشر أو شركات للإنتاج السينمائى.

ولقد اقترنت هذه التطورات ودفعتها الى التعقيد ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات التى سارت فى ثلاث اتجاهات : أولها ، تطوير تكنولوجيا الاتصالات المسموعة والمرئية والمطبوعة . ونتج عن هذا الاتجاه أساليب ووسائل اتصال جديدة ، كان لها انعكاساتها الذاتية من ناحية ، وانعكاساتها على الأساليب والوسائل التقليدية من ناحية ثانية ، وهى على وجه التحديد : الأقمار الصناعية والكابلات الضوئية والفيديو.

وثانيها ، تطوير مجال المعلومات ، وقام هذا التطوير على أساسيين : أولهما: يتصل بالتطورات فى تكنولوجيا المعلومات التى ارتبطت بظهور الكمبيوتر والحاسبات الآلية خلال السبعينيات من هذا القرن ، والتى أدى استخدامها إلى تطورات مذهلة فى نظم تخزين المعلومات واسترجاعها ونقلها وتبادلها وانتشارها. وثانيهما ، يتصل بالتطورات فى تكنولوجيا الاتصال عن بعد باستخدام الأقمار الصناعية كبديل للكابلات الأرضية والبحرية. وقد كان للربط بين هذين الأساسيين والدمج بينهما نتائج مذهلة ، جعلت من الممكن القول أن ما حدث يعتبر ثورة فى تكنولوجيا المعلومات بكل المقاييس ، وأن هذه الثورة سوف يكون لها آثارها الإيجابية على عناصر كثيرة فى النسيج الاقتصادى والاجتماعى لكثير من المجتمعات المعاصرة فى نهاية هذا القرن.

وأما الاتجاه الثالث لهذه الثورة ، فإنه يتصل بتطوير شبكات الاتصال باستفادتها من ثورة تكنولوجيا الاتصالات وثورة تكنولوجيا المعلومات ، حيث زادت توصيل المعلومات كما وكيفا ، وتحولت إلى شبكات اتصال منظمة. وبذلك ، تكون هذه الثورة باتجاهاتها الثلاثة ثورة معقدة ، ولسوف يكون لها تأثيرها الإيجابى الواسع على المهن الاتصالية ، ولسوف تصبح صناعتها أكثر تعقيدا وأكثر كلفة.

ومن هنا ، برزت قضية التصنيع كنتيجة حتمية لما انتهى إليه تطور وسائل الاتصال بصفة عامة ووسائل الاتصال الجماهيرى بصفة خاصة ، من تعقيدات تزداد بزيادة تطورها حدة وعمقا. ولقد نتج عن هذه القضية مشكلتان أساسيتان : أحداهما ، تسمى بمشكلة الاحتكار فى ملكية هذه الوسائل. وثانيتهما ، تسمى بمشكلة سيطرة الإعلانات عليها. وقد ارتبط ظهور المشكلتين وتطورهما بتطور وسائل الاتصال الجماهيرى ذاتها واتجاهها نحو التطور الصناعى المذهل ، منذ بداية القرن العشرين. ولسوف نتناول هنا كل مشكلة من هاتين المشكلتين بشىء من التفصيل ، للتعرف على مضمونها وأبعادها ومدى خطورتها على حرية هذه الوسائل ورسالتها.

أولا : مشكلة الاحتكار فى ملكية وسائل الاتصال الجماهيرى

بدأت مشكلة الاحتكار فى الصناعة فى المجتمعات الرأسمالية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وما لبثت هذه المشكلة أن امتدت من الصناعة إلى الصحف والمجلات ودور النشر ، ومنها إلى الوسائل الإذاعية ووكالات الأنباء. وتثبت تطبيقات هذه المشكلة فى المجتمع الأمريكى أن الذين اتجهوا إلى التكتلات الصحفية الإحتكارية نظروا إلى الصحافة على أنها صناعة كغيرها من الصناعات الأخرى. فلقد جمعوا بين ملكيتها وملكية صناعات أخرى تنتج سلعا أبعد ما تكون عن الصحف والمجلات والكتب ، وشكلوا منها جميعها تكتلات اقتصادية قوية.

ولقد اطلقت مصطلحات كثيرة على ظاهرة الاحتكار فى ملكية وسائل الاتصال الجماهيرى ، مثل التكتلات الصحفية والسلاسل الصحفية. وهى تعنى الجمع بين عدد من هذه الوسائل فى يد شخص واحد أو فى أيدى عدة أشخاص أو شركة مساهمة. وتملك الإدارة ، فى أى صورة من صورها ، حق التصرف فيما تملك بحسب هواها وبما يحقق مصالحها.

وقد بدأ تاريخ الصحافة فى المجتمعات الرأسمالية الغربية والأمريكية بصحف الأفراد. وعاشت لسنوات طويلة بهذه الصيغة إلى أن دخل المفهوم الصناعى إلى

تطورها ، وتبدلت النظرة إليها من رسالة تتطلب التحرر والبعد عن الضغوط الاقتصادية الى صناعة وتجارة وتخضع تماما للضغوط الاقتصادية.

ففى الولايات المتحدة الأمريكية ، على سبيل المثال ، بدأت بصحف الأفراد واتسمت بالمحلية ، ولم تتجه الصحف اتجاها قوميا إلا فى نطاق ضيق يقتصر على عدد محدود جدا من الصحف الكبيرة. وكان أصحابها يتمتعون بحريتهم فى ممارسة دورهم داخل مجتمعاتهم المحلية. غير أن تحولا خطيرا حدث فى الصحافة الأمريكية المطبوعة بتحولها إلى ملكية التكتلات والسلاسل الصحفية ، رغم احتفاظها بطابعها المحلى الغالب. وفى سنة ١٩٨٧ بلغ عدد الصحف الأمريكية اليومية ١٧٠٠ صحيفة يومية ، لم ينج من التكتلات أو السلاسل الصحفية إلا ٤٥٠ صحيفة يومية فقط بنسبة ٢٧٪.

ولما كانت هذه التكتلات أو السلاسل الصحفية لا تقتصر على الصحف فقط ، وإنما تضم أيضا إلى ملكيتها وسائل الإتصال الجماهيرى الأخرى ، كالراديو والتليفزيون والمجلات ودور النشر والتليفزيون الكابلى ، بل إن بعضها امتلك أيضا وكالات صحفية ، فإن هذه التكتلات والسلاسل الصحفية أصبحت تتسم بالضخامة ، وأصبحت تثير المخاوف من قوتها وتاثيراتها ، كما أصبحت تتعرض لانتقادات كثيرة[١].

ولعل من أهم هذه الانتقادات ، أن أصحاب هذه التكتلات أو السلاسل الصحفية يتجهون إلى احتكار مضمون الوسائل التى يحتكرونها ويوجهونه وجهة تخدم أغراضا انانية أو تدافع عن مصالحهم الخاصة ، وبالتالى ، لا يتركون للعاملين بها حرية كافية فى توجيه مضمون هذه الوسائل بما يتناسب مع مقتضيات

---

(١) انظر بحثا لنا حول هذا الموضوع بعنوان :
"مشكلة الاحتكار الصحفى فى الولايات المتحدة الأمريكية". رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم الصحافة بكلية الآداب بجامعة القاهرة . سنة ١٩٦٩م

الرسالة الصحفية والأمانة الصحفية فى المجتمع. كما أنهم قد يدعون إلى أفكار غير سليمة ولا تتوافق مع اتجاهات المصلحة العامة[1].

وليس من شك فى أن هذه التكتلات أو السلاسل الصحفية تقوم على أساس اقتصادى مقبول ، فهى تقلل من النفقات ، وتدعم كل وسيلة الوسيلة أو الوسائل الأخرى اقتصاديا ، وتجذب المعلنين ، وما شابه ذلك. ولكنها مع ذلك ، تقلل من عدد الأصوات التى تخاطب الجماهير القارئة والمستمعة والمشاهدة ، بصرف النظر عن مدى جدية الانتقادات الموجهة إليها. وهذا يعنى أن حرية الصحافة فى هذه المجتمعات الرأسمالية مهددة من داخل ملكية وسائل الاتصال الجماهيرى ذاتها.

ونتيجة للإحساس بأخطار الاحتكارات الصحفية. نادى بعض المفكرين بأفكار، وجد بعضها طريقه للتنفيذ فى بعض المجتمعات الرأسمالية. فقد نادى بعضهم بتأميم الصحافة ، ولم تلق هذه الفكرة موافقة فى هذه المجتمعات لتناقضها مع فلسفتها الاقتصادية. ونادى عدد آخر بإعطاء معونة حكومية للصحف الضعيفة، وبالرقابة على ميزانية الصحف ، وبإقامة مطبعة عامة تخدم كل الصحف بدون تمييز ، وبإقامة شركة قومية للتوزيع. ولاقت بعض هذه الأفكار تطبيقا فى فرنسا. أما فى انجلترا ، فقد ظهرت بعض الأفكار المماثلة ، وزادت عليها المطالبة بتشكيل لجان لمراقبة سوق الورق ، ولجان لتحقيق أوضاع الصحافة. والمهم ، أنه رغم كل هذه الأفكار ، إلا أن المشكلة لا تزال قائمة ، ولم تجد لها حلا إيجابيا.

وأما فى المجتمعات الاشتراكية ، فإن ما بقى منها فى شرق آسيا إلى جانب بعض المجتمعات الأفريقية وبعض المجتمعات الأمريكية اللاتينية ، فإنها اتجهت إلى ملكية الدولة ، أى أنها اتجهت إلى التأميم ، حماية لوسائل الاتصال الجماهيرى من مشكلاتها الاقتصادية ، وحماية لفلسفة الدولة ودعما لها.

ثانيا : مشكلة سيطرة الإعلانات عل موارد وسائل الاتصال الجماهيرى ومضمونها:

قلنا أن الصحافة المطبوعة ووسائل الاتصال الجماهيرى الأخرى ، أمام التطور الهائل فى صناعتها وحاجتها إلى رءوس أموال ضخمة تقيم بها كيانها

---

(1) Ages W. & Others. Introduction To Mass Communication. N. Y. : Harper & Rew, 9 the editin, 1988. Pp. 441-442.

وتبنى بها قدراتها على أداء وظائفها فى المجتمع ، اتجهت إلى التكتلات أو السلاسل الصحفية من ناحية ، واتجهت إلى الإعلانات بتركيز شديد من ناحية أخرى. وكان للاتجاهين معا تأثيرهما على مساحة الحرية التى بقيت لها لتأدية رسالتها كاملة وبموضوعية.

ولقد اتضحت سلبيات الاتجاه الاحتماكرى فى ملكية وسائل الاتصال الجماهيرى بشكل لا يقبل الجدل ، وبالدرجة التى خلقت منه مشكلة لا تجد لها حلا حتى الان فى المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية على السواء. وبقى أن نوضح الكيفية التى يمارس بها الإعلان ضغوطه على حرية وسائل الاتصال الجماهيرى ، سواء من ناحية مواردها أو من ناحية مضمونها ، لكى تكتمل صورة الاتجاه المتزايد نحو التصنيع ، كقضية لها خطورتها على حرية الصحافة فى المجتمعات المعاصرة بصفة عامة.

فمن المعروف اقتصاديا ، ان موارد الصحافة المطبوعة تتكون من ثلاثة مصادر : أولها ، الإعلان ، وثانيها التوزيع ، وثالثها ، الطباعة التجارية. ويكاد الإعلان أن يكون هو المصدر الوحيد للصحافة المذاعة بالراديو أو التليفزيون ، إلى جانب الحكومة فى بعض المجتمعات التى تخضع فيها الملكية للدولة. أما إذا كانت تجارية بحتة كما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فإن الإعلان يعتبر عصبها الرئيسى والوحيد.

ويشكل الإعلان ، كمصدر لتمويل الصحافة المطبوعة ، نسبة تتراوح بين ٥٠٪ إلى ٧٠٪ من إيرادات كل مؤسسة صحفية. ويسيطر فى المقابل على نسبة تكاد أن تكون متساوية مع نسبته من الإيرادات على صفحات الصحف والمجلات التى تصدرها كل مؤسسة صحفية. بل إن هناك مجلات فى الولايات المتحدة الأمريكية تشغل الإعلانات بها ما يزيد على ثلثى مساحتها ، والجزء الباقى يشغل بمواد تحريرية تخدم الإعلان ، بمعنى أنها تقوم على إثارة المتعة كأخبار الجرائم والرياضة والتسلية.

أما فى الراديو والتليفزيون والفيديو ، فالمجال واسع وعريض للحديث عن سيطرة الإعلان بشكل سافر ومستفز للمشاهد والمستمع ، من حيث اختيار التوقيت والمساحة الزمنية والتداخل بين الإعلان والمواد الثقافية والترفيهية ، وما شابه ذلك، ثم فى عدم مراعاته للذوق بصفة عامة. وتبدو هذه الحقائق شائعة بدرجة أكبر وأوسع فى وسائل الاتصال الجماهيرى المسموعة والمشاهدة التى تقوم على الملكية التجارية الخاصة ، وإن كانت تلك التى تخضع لملكية الحكومة تقلدها فى كثير من الجوانب السلبية المنتقدة.

ومن منطلق أن وسائل الاتصال الجماهيرى لا تستطيع أن تعيش مستقلة عن مواردها من الإعلان لاعتبارات اقتصادية ، ورغم أنها ترفع أسعارها من حين لآخر ، فإن هذا الاعتماد شبه الكامل على الإعلان ، جعل الجانب الإدارى فى الصحيفة والمجلة يتفوق على الجانب التحريرى ، حتى أن إخراج الصحيفة أو المجلة يبدأ من إدارة الإعلانات ، حيث تحدد مساحة الإعلانات أولا ، ثم يأتى دور سكرتير التحرير ليخرج مواد التحرير فى المساحة المتبقية من صفحات الصحيفة أو المجلة.

ثم إن مساحة الإعلانات فى العدد الواحد من الصحيفة أو المجلة ، قد ترتفع فى اليوم العادى إلى ما يزيد على ٦٠٪ من مساحة صفحات العدد. فماذا يتبقى من مساحة صفحات كل عدد للأخبار والمقالات والتقارير والتعليقات والصور التى تخدم الأغراض الإعلامية والتفسيرية والتعليمية والثقافية والترفيهية فى كل صحيفة أو مجلة[١].

ولم يتوقف الأمر عند حدالتأثير على المضمون التحريرى للصحيفة أو المجلة ، بالدرجة التى تؤثر على رسالتها ووظائفها فى المجتمع ، بل إن هناك

---

(١) من السهل أن يستنتج القارئ هذه الحقيقة من إجراء عملية حسابية بسيطة ، يجمع بها مساحات الإعلانات بالسنتيمتر المربع ، ويقسم المجموع على مجموع مساحات الصفحات فى العدد الواحد ، ويضرب الناتج فى ١٠٠ ليتأكد بنفسه من النسبة التى يشغلها الإعلان ويؤثر بها على الصحافة المطبوعة.

ضغوضا يمارسها المعلنون لمنع الصحيفة أو المجلة من نشر موضوع معين يراه أحدهم ضارا بمصالحة الخاصة ، خاصة اذا علمنا أن الظروف الاقتصادية فى المجتمعات الرأسمالية ، تسمح لأساليب المنافسة المشروعة وغير المشروعة بأن تمارس دورها من اجل تحقيق المصالح الخاصة.

ولا يختلف الوضع كثيرا فى وسائل الاتصال الجماهيرى الأخرى عن الوضع فى الصحافة المطبوعة ، لأن أساس المشكلة واحد ونتائجها واحدة. ولئن كان هناك من يرى أن الاعتماد شبه الكامل لوسائل الاتصال الجماهيرى على الإعلان يوفر درجة من الاستقلال عن الحكومة وضغوطها ، فإن الحكومة ذاتها تستعمل فى احيان كثيرة سلاح الإعلانات الحكومية للضغط على هذه الوسائل. ومن هنا ، تبدو المشكلة غاية فى التعقيد ، ولا ينتظر لها حلا سريعا ، خاصة وان التطور الصناعى لا يزال يواصل ضغوطه على كل صناعات وسائل الاتصال الجماهيرى.

وننتهى هنا إلى حقيقة غاية فى الغرابة. فإذا كانت قضية الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى تهدد حرية هذه الوسائل من خارجها ، فإن قضية التصنيع وما انتهت إليه من مشكلات تهدد حرية هذه الوسائل من داخلها ، ولتصبح حرية وسائل الاتصال الجماهيرى بهذا الوضع واقعة بين السندان والمطرقة ، وهو وضع لا تجد منه فكاكا فى المستقبل القريب ، طالما ظلت السلطة تنظر إلى حرية هذه الوسائل من زاوية مصالحها الخاصة ، وطالما ظلت التطورات الصناعية تسرع خطاها ، وليبقى التساؤل قائما إلى أجل غير مسمى حول الكيفية التى تستعيد بها وسائل الاتصال الجماهيرى مساحة اوسع من حريتها ، لتستطيع داخلها ان تتحرك بدرجة مقبولة من الفعالية لأداء رسالتها فى مواجهة جماهيرها ، التى بدأت تفقد ثقتها فيها بدرجات متفاوتة . تختلف باختلاف درجات تواجد الظروف الصانعة لهذه القضايا المؤثرة على حريتها داخل المجتمعات المعاصرة.

جـ - قضية الأخلاقيات المهنية :

أن هذه القضية تثبت أن المواجهة التى تحدث بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى ، ليست كلها بدوافع أنانية مجردة من السلطة ، ولكن هناك أيضا أسبابا تعود بشكل قطعى إلى هذه الوسائل ذاتها ، وعلى الأخص ما يتصل منها بالانماط السلوكية غير المسئولة التى يمارسها العاملون بها ، والتى تفجر فى كل مجتمع ، مهما تنوعت أنظمته السياسية ، قضية الأخلاقيات المهنية بصورة علنية(١).

أولا : التعريف بالأخلاقيات المهنية

من المعروف أن هناك مواقف كثيرة تواجه العاملين فى وسائل الاتصال الجماهيرى ، وتدخل فى مجال الأخلاقيات المهنية ، وهو مجال شديد التعقيد والحساسية ، ويثور حوله الجدل فى كل وقت. وتعنى هذه الأخلاقيات المهنية أن على العاملين فى وسائل الاتصال الجماهيرى أن يلتزموا فى سلوكهم تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين بمبادئ وقيم أساسية. والالتزام بهذه المبادئ والقيم الأساسية من الواجبات الشخصية ، أى أنه التزام شخصى يقع على كل واحد منهم بصفة شخصية. وهذه المبادئ والقيم الأساسية تعنى ما ينبغى أن يكون عليه سلوك كل منهم ، ليكون سلوكا سليما وأخلاقيا.

وقد يختلف الناس حول نوعية السلوك الأخلاقى السليم ، ولكنهم يهتمون جميعا بما هو أخلاقى. والاهتمام بالسلوك الأخلاقى يفرض على صاحبه ان يهتم

---

(١) تناولت هذه القضية دراسات كثيرة ، من أهمها :

- المؤتمر العام الثانى للصحفيين المصريين. مجلة الصحفيون بتاريخ مايو سنة ١٩٩١ ، خاصة صفحة ١٣٦.
- جون هوهنبرج ، ترجمة كمال عبد الرءوف : الصحفى المحترف. القاهرة : الدار الدولية للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٩٠. ص ٤٩٥.
- عبد اللطيف حمزة : أزمة الضمير الصحفى القاهرة ، دار الفكر العربى ، سنة ١٩٦٦. ص ١٠٢.
- Merrill, J. & Others. Medern Mess Media. New York : Harper Collins Pub., 2 ed edition, 1994. Pp. 373-394.
- Wilson, S. Mass Media and Mass Culture. New York : McGraw. Hill, 2ed edition, 1992. Pp. 400-423.
- Christians, C. & others, Media Ethics. New york and london : Longman, 3ed edition, 1991. Pp. 1-158.
- Agee, W. & Others. Introduction To Mass Communication. New York: Harper & Row, 9th edition, 1988. Pp. 511-552.

بالسلوك الصحيح ، وأن يحترم مسئوليته الشخصية وأن يراعى المصلحة العامة ، وأن يراعى وجود قواعد توجه دائما إلى نوعية الحياة التى ترضيه ويكون لها معنى هام. وهذا الاهتمام بالسلوك الأخلاقى يلزم صاحبه باتخاذ قرارات عقلانية فة مواجهة خيارات متعددة ، يستهدف بها تحقيق أعلى درجات السلامة فى مجال تخصصه الاتصالى.

وتوجه انتقادات كثيرة إلى العاملين بوسائل الاتصال الجماهيرى على أساس أنهم يفتقدون الاهتمام بالسلوك الأخلاقى بالمعنى الذى أوضحناه هنا ، ويفتقدون بالتالى التزاماتهم المعنوية نحو أنماط السلوك الأخلاقى والتمسك بها. ويرى أصحاب هذه الانتقادات أن العاملين بوسائل الاتصال الجماهيرى يبدون كما لو كانوا لا يمتلكون أية مبادئ أخلاقية ، ويتصرفون بطريقة ميكيافيلية تقوم على أن الغاية تبرر الوسيلة.

وليست الأخلاقيات المقصودة هنا هى القوانين ، وإن كانت العلاقة بينها قوية. فقد يسلك الإنسان فى حياته طبقا لما تمليه القوانين ولكنه لا يكون أخلاقيا. وقد يكسر إنسان آخر القوانين ويكون أخلاقيا. فالقوانين إجراءات تفرض على الإنسان من خارجه ، حيث يضعها المجتمع من خلال هيئاته التشريعية ، وتلزم باتباعها هيئات أخرى كالشرطة والمحاكم. ولكن الأخلاقيات التزامات مفروضة على الإنسان من داخلة ، ويلتزم بها أيضا التزاما داخليا. فإذا كنا لا أخلاقيين ، فإننا نعتبر أنفسنا كذلك ويعتبرنا الآخرون كذلك. أما إذا خالفنا القوانين ، فإننا نعاقب من قوى خارجية ، وقد نفقد حريتنا تبعا لذلك.

وتقوم الأخلاقيات بصفة عامة على فرضين اساسيين ومتكاملين : أولهما ، أن الفرد يمتلك حرية معقولة ، وثانيهما ، أن الفرد فى كامل قواه العقلية. وإذا فقد الإنسان حريته وكان مختل العقل ، فانه لا مجال للكلام عن الأخلاق. وهذا الشخص قد يفعل شيئا سيئا أو ضارا اتجاه المجتمع ، ولكنه لا يعتبر فى نظر المجتمع عديم الأخلاق.

ولكل مهنة معترف بها فى المجتمع أخلاقيات أو سلوكيات ، تعبر فى مضمونها عن العلاقات بين ممارسيها من ناحية ، والعلاقات بينهم وبين عملائهم من ناحية ثانية ، وبينهم وبين المجتمع الذى ينتمون إليه من ناحية ثالثة. وهذه الأخلاقيات أو السلوكيات قد تكون متعارفا عليها ، وقد تكون مبادئ ومعايير يضعها التنظيم المهنى للمهنة. وهى فى جميع الحالات تكون تطبيقا للقيم الأخلاقية لمجتمع معين فى مجال مهنى معين من مجالاته المهنية الكثيرة والمتعددة ، والتى تنتظم عددا من الأنشطة التى تعمل بها جماعات معينة من الجماعات التى يقوم عليها هذا المجتمع أو ذاك.

وتخضع المهن الاتصالية الجماهيرية لأخلاقيات متعارف عليها فى جميع أنحاء العالم. وتدعمها دساتير أخلاقية تضعها التنظيمات المهنية فى كل مجتمع ، وإن كانت هذه الحقيقة لا تعنى الإجماع على تفسيرها أو الأخذ بها أو الالتزام بها ، سواء من مؤسسات وسائل الاتصال الجماهيرى أو من العاملين بها.

وهناك عدد من المبادئ الأخلاقية التى تعترف بها كل المهن الاتصالية الجماهيرية فى كل المجتمعات بصفة عامة. فهناك إجماع على أن الحقيقة هدف فى حد ذاته ، وأنها تعنى تحرى الدقة والبحث عنها ، والدقة فى التعبير عنها ، والدقة فى الفصل والتمييز بين الأحداث الواقعة والتعبير عن الآراء بشأنها. وتؤكد كثير من الدساتير الأخلاقية للمهن الاتصالية الجماهيرية على هذا المبدأ ، وتشدد على أعضائها لمراعاة الدقة والصدق والموضوعية فى جمعها والتعبير عنها ، مع مراعاة العدالة التامة والبعد عن التعصب والجرى وراء المصلحة الخاصة.

والحقيقة كهدف فى حد ذاته وبهذه المعانى التى تقوم عليها ، تتطلب الكشف الكامل عن جوانب الحدث وتحقيق التكامل فى معالجته وتوفير المعلومات الكاملة التى يفرضها حق الجماهير فى أن تعلم كل ما يدور حولها. وهذا يعنى أن الحقيقة ليست فقط هدفا أصيلا ، ولكنها قيمة فى حد ذاتها.

والالتزام بالحقيقة وما تقوم عليه من معان وقيم ومبادئ يوقع رجل الاتصال الجماهيرى فى مواقف حرجة كثيرة ، تتصارع داخلها نظرته إلى النتائج مع نظرته

إلى مصالحه الخاصة ، ونظرته إلى مصالح الآخرين سواء كان هؤلاء الآخرون ممثلين فى مصادر أخباره أو فى أبطال الحدث ذاته أو فى المصلحة العامة. وهنا يكون القرار عقلانيا قائما على إحداث التوازن بين هذه المتغيرات جميعها فى مواجهة الحقيقة كهدف وغاية وقيمة تحكم عمله المعنى فى أى وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيرى.

وقد استطاعت إحدى الدراسات العلمية المشار إليها أن تصور المتغيرات المحيطة بكل من يعمل فى مجال الاتصال الجماهيرى ، وتمثل ضغوطا تتطلب تحقيق التوازن بينها للوصول إلى قرار عقلانى سليم ، يستهدف الحقيقة كغاية أسمى. وقد صورت هذه الدراسة تلك المتغيرات أو الضغوط على شكل خمس دوائر متتالية ، تبدأ بدائرة ضيقة فى الوسط ، وتتوالى الدوائر الأخرى المحيطة بها على مسافات متساوية. ويقف الفرد داخل هذه الدوائر جميعها ، وعليه لكى يخرج منها بسلام أن يتخذ قرارا عقلانيا سليما يحدث التوازن المستهدف(١).

وتمثل الدائرة الأولى فى الوسط الأخلاقيات الخاصة التى يتمسك بها كل فرد على حدة ، سواء كان ناشرا أو محررا أو مندوبا أو مراسلا أو مالكا لمحطة إذاعية أو مديرا للأخبار أو منتجا لفيلم أو كاتبا لقصة. وهؤلاء جميعا عليهم ألا يراعوا أخلاقياتهم الخاصة وحدها ، وإنما ينبغى أو يمارسوا عملهم واضعين أعينهم على الدوائر الأربعة المحيطة بها.

وتمثل الدائرة الثانية المحيطة بالأولى ، تلك المبادئ الأخلاقية التى تضعها كل مؤسسة من مؤسسات الاتصال الجماهيرى ، كخطوط عامة تحكم حركة العاملين بها ، فكل صحيفة أو مجلة أو إذاعة وغيرها ، تعمل فى إطار سياسة تحددها لنفسها. وتكون هذه السياسة مدونة على شكل أخلاقيات محددة أو لا تكون مدونة ، وإنما تكون عبارة عن مجموعة من الحكم المأثورة والمتعارف عليها ، وعلى كل من يعمل بها أن يراعى هذه المبادئ ، وإلا فإن عليه أن يبحث عن عمل فى مكان آخر.

---

(1) Agee. W & Others. Op Cit P 513

وأما الدائرة الثالثة ، فإنها تعبر عن أخلاقيات المهنة ككل ، اى انها تعبر عن السلوكيات التى تحكم كل مهنة من المهن الاتصالية الجماهيرية المتخصصة . كالصحافة والإذاعة والنشر والسينما فلكل منها سلوكيات مرعية تحكمها مستويات أخلاقية تحددها تنظيماتها. وجمعياتها واتحاداتها ، كالنقابات الصحفية واتحادات الإذاعة وجمعيات الناشرين والمحررين ، وما شابه ذلك. ويضيف البعض إلى هذه الأخلاقيات المهنية تلك الضغوط الاقتصادية التى يمارسها كبار رجال الأعمال والتى تفرض اعتبارات معينة ينبغى مراعاتها أيضا وإدخالها فى عمليات التوازن التى يجريها العاملون بالاتصال الجماهيرى عند اتخاذ قرارات سليمة فى عملهم.

وأما الدائرة الرابعة ، فهى تضم المبادئ والسلوكيات التى تفرضها أنظمة الاتصال فى المجتمع ككل ، وهى أنظمة تفرضها الفلسفات السياسية والاقتصادية لكل مجتمع. ويضاف إلى ذلك ، تلك القوانين والتشريعات التى تضعها الهيئات التشريعية كسياج يحيط بحركة هذه الوسائل ، ويضمن عدم تعرضها لحريات الآخرين ، وعدم تدخلها فيما تراه الحكومات محرما عليها الاقتراب منه.

وأخيرا ، نأتى إلى الدائرة الخامسة والأخيرة ، وهى تضم الحدود التى يضعها الناس فى كل مجتمع على كل أنواع النشاط الإنسانى ، ولا يستطيع فرد أو مؤسسة أو منظمة أن تتعدى هذه الحدود. ويقدم التاريخ أدلة كثيرة على أن الحكومات ذاتها لا تستطيع أن تتعدى هذه الحدود ، وإن حاولت أن تتعداها ، تعرضت للسقوط. وتنطبق نفس القاعدة على الأفراد والمؤسسات عند انتقالها من الدائرة الرابعة إلى الدائرة الخامسة.

وهذه الدوائر الاجتماعية ليست جامدة. فهى تتغير من فترة تاريخية إلى أخرى ، ومن جيل إلى آخر. ويكون على الأجيال المتعاقبة من العاملين فى وسائل الاتصال الجماهيرى أن يعوا ما بداخل كل دائرة من هذه الدوائر الخمس لكى يحدثوا التوازن الدقيق بينها وهم يتخذون قراراتهم السليمة فى مواجهة المواقف التى يواجهونها ، والتى تتطلب أنماطا سلوكية اخلاقية سليمة.

ثانيا : أزمة الأخلاقيات المهنية وأبعادها

إن عدم قدرة بعض العاملين فى مؤسسات الاتصال الجماهيرى على تحقيق التوازن بين هذه الدوائر الخمس وخروجهم على دائرة منها ، يعتبر خروجا على اخلاقيات المهنة. وتنظر الجماهير التى تتعامل مع الوسائل التى تنتجها هذه المؤسسات إليهم ، على انهم خرجوا على الحدود المتعارف عليها ، وأصبحوا لا أخلاقيين فى سلوكهم المهنى. وإذا اكتسب هذا السلوك شيوعا ، أصبح ظاهرة عامة لا أخلاقية ، وهو ما يعبر عنه بأزمة الأخلاقيات المهنية. وإذا اتسع تأثيرها ، اكتسبت أبعادا تدفع المجتمع كله إلى أن يتناولها كقضية عامة تستحق المواجهة.

ويحكم هذه القضية اتجاهان أخلاقيان فلسفيان : يسمى أولهما ، بالاتجاه الأخلاقى الأدبى ، وهو الاتجاه الذى ينظر إلى الاخلاقيات المهنية نظرة واجب قانونى ادبى مجرد. ويسمى ثانيهما ، بالاتجاه الأخلاقى إلغائى أو الوظيفى ، وهو اتجاه ينظر إلى الأخلاقيات المهنية من زاوية النتائج المترتبة عليها. ومن الواضح هنا ، أن قدرة رجل الاتصال الجماهيرى على احداث التوازن بين الدوائر الخمس للأخلاقيات المهنية ، هى التى تجعل أحد الاتجاهين يفضل الآخر ، إلا أنه اذا ساد الاتجاه الثانى ، دخل بلا شك فى مأزق أخلاقى لا يحسد عليه.

ولقد شهدت حقب التاريخ الطويل لوسائل الاتصال الجماهيرى حالات كثيرة، مال فيها العاملون بالاتصال الجماهيرى ميلا شديدا نحو هذا الاتجاه الأخلاقى أو ذاك. فالصحفى الذى يختار بين أن يقول الحقيقة كاملة وبدقة وموضوعية وصدق أو ينغمس تماما فى متاهات الإخفاء الكامل لها ، يكون ذا اتجاه أخلاقى أدبى إذا فضل الخيار الأول ، خيار الحقيقة الكاملة ، بينما يكون ذا اتجاه أخلاقى غائى أو وظيفى إذا فضل الخيار الثانى . خيار الإخفاء الكامل أو الجزئى.

غير أن وجود الأخلاقيات المهنية كقضية معترف بها فى مجال الاتصال الجماهيرى ، يعنى بدون شك أن هناك نسبة عالية من العاملين فى هذا المجال يميلون بشدة إلى الاتجاه الأخلاقى الوظيفى أو ألغائى ، بمعنى أنهم يميلون إلى النظر إلى النتائج ، بأكثر مما يميلون إلى الواجب. وهناك من الأدلة والشواهد ما

يؤكد وجود هذه النسبة العالية منهم ، ويؤكد تأثيرهم فى كل مجتمع معاصر ، مما يجعل منها قضية ملحة تتطلب مواجهات حاسمة لصالح الفرد والمجتمع معا من ناحية ، ولصالح وسائل الاتصال الجماهيرى ومكانتها من ناحية ثانية.

ونستطيع هنا أن نعدد الكثير من هذه الأدلة والشواهد التى تؤكد على أن هذه القضية تمارس فعاليتها وتأثيراتها الضارة ، وإن كان هذا لا يعنى أنها قضية حديثة، وإنما يعنى أن وجودها وتفاعلها السلبى فى كل مجتمع ، لا يزال يتطلب مزيدا من المواجهات الإيجابية معها. ومن أهم هذه الأدلة والشواهد ما يلى :

١- السلوكيات غير الأخلاقية التى يمارسها الكثيرون ممن يعملون فى وسائل الاتصال الجماهيرى ، وتعود أثارها السلبية على هذه الوسائل ذاتها ، كاختلاق القصص الإخبارية الزائفة والمبالغة فى تفاصيلها ، وإخفاء الحقائق التحيز لجانب على جانب ، وتضمينها مدلولات ذات مغزى معين، وقبول الهدايا والإكراميات لسرد المعلومات بطريقة معينة أو حذفها لخدمة أغراض خاصة. وتفتقد هذه السلوكيات اللاأخلاقية معانى الأمانة والموضوعية والدقة والإحساس بالمسئولية والواجب ، كما تفتقد معانى الكرامة ، وفيها اعتداء صارخ على حق الجماهير فى أن تعلم كل ما يدور حولها كحق إنسانى معترف به ، وفيها اعتداء صارخ على الحريات الشخصية. ويصبح التساؤل هنا بلا إجابة واضحة. فإذا كانت وسائل الاتصال الجماهيرى عليها أن تحرس القيم والمثل الأخلاقية فى كل مجتمع ، فمن يحرس هذه الوسائل إذا خرجت على هذه القيم والمثل الأخلاقية وأخلت بواجبها[١].

وفى دراسة علمية حول ' الصحافة المصرية بين المهنة والمحنة ' اعتبرت أن هذه السلوكيات اللاأخلاقية تهدد حرية الصحافة ، وتعرقل جهودها عن أداء رسالتها ، وتنقص مساحة الصدق والموضوعية عند عرضها للأخبار والحداث ، وعددت منها على وجه التحديد : استخدام القلم فى تحقيق مفاهيم ذاتية ومنافع شخصية على حساب المصلحة العامة ، وتحول بعض الصحفيين إلى رقباء يتولون

---

(1) Wilsm. S. Op. Cit. 400-421.

حذف أو تشويه الأخبار والموضوعات لصالح السلطة سواء طلب ذلك منهم أو قاموا بهذا العمل الأثيم تقربا وزلفا ، وقيام الصحافة بإصدار أحكام الإدانة فى القضايا قبل أن يقول القضاء كلمته الفاصلة[1].

٢- المضامين الخارجة على الأخلاقيات المهنية. والتى أخذت فى بعض الوسائل اتجاهات أساسية ، مما جعل منها مشكلات مهنية ذات جذور وأبعاد. ولعل من أهم هذه الاتجاهات الأساسية ، الاتجاه نحو الإثارة ، وهو اتجاه يميز مذهبا فى الصحافة الحديثة المتحررة والثائرة على المذاهب التقليدية والمحافظة. ويتسم هذا الاتجاه باستخدام الألوان والعناوين العريضة والصور الكبيرة وتزييف الحقائق وانتحال الأحاديث واختراع الشخصيات والمواقف المسرحية والتركيز على الجنس والجريمة والعنف والرعب والإكثار من النكات والفكاهات والمداعبات والجرى وراء التافه من الأخبار والسعى وراء الأسرار الشخصية والفضائح ، وغيرها. ومن الواضح أن هذا الاتجاه يميل إلى الجرى وراء غرائز الجماهير وشهواتها وأهوائها.

ومن أهم هذه الاتجاهات الأساسية أيضا ، الاتجاه نحو التعصب. وقد يكون التعصب هنا حزبيا أو دينيا أو سياسيا. ويقوم هذا الاتجاه على سلاطة اللسان ، والإسراف فى التدخل فى الشئون الشخصية والتعرض للمسائل الخاصة ، والخلط بين المسائل الشخصية والمسائل العامة[2].

ولقد خلقت هذه الاتجاهات المنحرفة فى الاتصال الجماهيرى ووسائله مشكلات أخلاقية مزمنة ، أهمها مشكلة الصدق والذوق الهابط ، ولئن كانت مشكلة الصدق تدخل فى صنعها أحيانا مصادر الأخبار ، إلا أن الواجب يفرض على العاملين فى وسائل الاتصال الجماهيرى ألا ينتشروا أو يذيعوا إلا ما هم متأكدون منه تماما ، وألا يدفعهم السبق الصحفى أو إثارة والتعصب إلى التسرع فى الإذاعة

---

[1] محمود عارف : "الصحافة المصرية بين المهنة والمحنة". مجلة الصحفيون ، إبريل ١٩٩٠م. صص : ٥٠-٥٦.

[2] Gunter, A. " Biased Press or Biased Public Public Opinion Quarterly . Vol. 56. No. 2. Summer 1992. Pp. 147-167

أو النشر بدون يقين كامل. ولكن وجود مشكلة الصدق واستمرارها يعنى أن هذا الحذر لا يؤخذ به دائما. ولقد نتج عن ذلك فقدان ثقة الجماهير فى وسائل الاتصال الجماهيرى. وقد أثبتت الدراسات العلمية وجود هذه الظاهرة بنسب عالية[١].

وأما مشكلة الذوق الهابط ، فإنها تمتد من التحرير إلى الإعلان فى الصحافة المطبوعة ، ومن البرامج العادية إلى الإعلان فى الصحافة المذاعة. وأما الأفلام والكتب ، فحدث وبحرج عن هذه المشكلة التى تنتشر كالأخطبوط الأسود ، ولا تجد لها علاجا ، وخاصة فى مواجهة الجماهير صغيرة السن كالأطفال والمراهقين[٢].

٣- استطلاعات الرأى ونتائجها التى تؤكد التأثيرات السلبية التى انتهت إليها هذه السلوكيات والمضامين اللاأخلاقية. فقد أجرى معهد جالوب عدة استطلاعات للرأى تجاه ما تقدمه وسائل الاتصال الجماهيرى[٣]. وجاء فى أول استطلاع أجرى على ٧٦٠ شخصا ، أن ٦٢٪ منهم لا يصدقون إلا القليل جدا من الأخبار التى تنشر أو تذاع ، وان ٣٣٪ منهم فقط يوافقون على أن أغلب الأخبار التى تنشر صحيحة ، وأن ٥٪ منهم فقط هم الذين يصدقون كل ما ينشر أو يذاع.

وبعد عدة شهور ، أجرى معهد جالوب استطلاعا آخر على ١٥٢٤ شخصا. وتبين أن ٧٧٪ منهم يعتقدون أن القيود الراهنة على وسائل الاتصال الجماهيرى فى الولايات المتحدة الأمريكية ليست صارمة بدرجة كافية ، وأن ١٧٪ يرون أنها صارمة للغاية. وفيما يتعلق بدقة هذه الوسائل يرى ٥٣٪ منهم ان الحقائق التى تذكرها ليست دقيقة ، بينما يوافق ٤٧٪ منهم على أنها دقيقة.

وفى مصر ، قام مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام باستطلاع رأى عينة من الصحفيين المصريين ، بلغ عدد أفرادها ٤٨٢ صحفيا ، ونسبتهم

---

(1) Gazian. C. & Others. " Measuring The Cocept of Credibility. Journalism Quarterly, Autumn 1986. Pp. 451-461.

(2) Merrill, J. Op. Cit. Pp. 386-387.

(٣) جوهونيرج ، ترجمة كمال عبد الرءوف : الصحفى المحترف. مرجع سابق ، صص ٥٠٢-٥٠٣.

١٥,٥٪ من مجموع أعضاء الجمعية العمومية لنقابة الصحفيين والبالغ عددهم ٣١٠٠ صحفيا. وقد تبين من نتائج هذا الاستطلاع أن ٤٧,٥٪ من أفراد العينة يرون ان الصحافة المصرية تعبر عن قضايا المجتمع وهموم الناس إلى حد ما ، بينما لا يوافق الباقون على ذلك ، وأن ٥٠,٨٪ منهم لا يوافقون على أن الصحافة المصرية تقدم لقرائها الحقائق والمعلومات الكافية عن القضايا الداخلية والخارجية ، وأن ٥٦,٤٪ لا يوافقون على أن الصحافة المصرية استطاعت أن تبلور رأى المواطن المصرى بكل اتجاهاته فى القضايا الأساسية التى تواجه المجتمع ، ويوافق ٤٨,٥٪ منهم على أن تأثير الصحافة المصرية على الرأى العام المصرى سلبى.

ولعل ما يشاع بين جماهير القراء والمستمعين والمشاهدين حول مدى تصديقهم لما ينشر أو يذاع ، دليل آخر يؤكد على أن النسب التى انتهى إليها هذا الاستطلاع تعتبر متواضعة ، خاصة وأنه أجرى على الصحفيين أنفسهم. وهو ما يعنى رأيهم فى أنفسهم ، وليس من السهل أن يعترف الناس بعيوبهم !!

وبذلك ، نصل إلى ما يؤكد وجود قضية الأخلاقيات المهنية بالدرجة التى تؤثر على الفرد والمجتمع من ناحية ، وتؤثر على رسالة وسائل الاتصال الجماهيرى ودورها من ناحية ثانية. ولقد أسهمت أطراف عديدة فى صناعة هذه القضية ، بحيث يمكن القول أنها قضية بالغة التعقيد. ويكفى أن نعود إلى الدوائر التى تحكم الأخلاقيات المهنية فى مجال الاتصال الجماهيرى لنتأكد من مدى تعقيدها ، ومدى صعوبة مواجهتها.

ثالثا : المحاولات التى بذلت لمواجهتها

اتخذت المواجهة مع هذه القضية أشكالا ثلاثة ، تكاملت نتائجها معا فى محاولة للتأثير على الإفرازات السيئة التى تفرزها ، واقتلاع العوامل المسببة لها من جذورها ، وهى : القوانين الأخلاقية والجهود المهنية وأنشطة اللجان والمجالس المتخصصة. وتبلورت هذه الأشكال الثلاثة على المستوى القومى والمستوى الدولى ، وتعاونت جهود العلماء من خلالها فى مجالات الصحافة والاجتماع والسياسة للوصول إلى آداب للمهن الاتصالية الجماهيرية. وتزداد هذه الجهود

وتتنوع ، لتصل إلى العشرات. ولكن النتائج لم تكن على مستوى كل هذه الجهود الهائلة ، وإن كنا لا ننكر صداها فى مواجهة كل مؤسسة للاتصال الجماهيرى وفى مواجهة كل من يعمل بها.

فمن حيث القوانين الأخلاقية ، تبين أن كل مؤسسة للاتصال الجماهيرى أصبحت أكثر اهتماما بالأخلاقيات المهنية ، واحتل اهتمامها بها مكانا بارزا فى كل مجتمع ، وبعد أن كان الجرى وراء الربح السريع وبكل الأساليب فلسفة تتمسك بها هذه المؤسسات فى كل مجتمع ، حدث تغير واضح فى الاتجاهات الفلسفية لها. ولئن كان هذا لا يعنى أن هذه المؤسسات تخلت عن سعيها وراء الربح ، فإنه يعنى أنها أعطت مزيدا من الاهتمام لمسئوليتها تجاه جماهيرها ومجتمعاتها ، وأن العاملين بها أصبحوا محاسبين بدرجة أكبر. ومهما كانت الأسباب التى دعت إلى هذا التغيير ، فإن الأخلاقيات المهنية أصبحت موضوعا عاما.

ولقد أصبح التمسك بالصدق والأمانة والموضوعية والدقة والبعد عن التعصب والإثارة والعنف والجنس والجريمة والمسائل الشخصية ، والتركيز على المصلحة العامة والمسئولية الاجتماعية ، والالتزام بالحقيقة الكاملة والولاء لها ، كلها صفات أخلاقية أساسية فى كل المواثيق الأخلاقية التى دعت إليها مؤسسات الاتصال الجماهيرى ، وحاولت أن تتمسك بها ، وأن تلزم بها كل العاملين فيها والمتعاملين معها.

لكن المشكلة الأساسية فى كل هذه المواثيق الأخلاقية ، أنها غامضة ، لأن عباراتها صيغت بألفاظ عامة ، مما فتح الباب أمام العديد من التأويلات والتفسيرات. وكان ينبغى أن يكون الأساس الذى تقوم عليه هذه المواثيق الأخلاقية وصياغتها واضحة ومحددة ، حتى تكون ذات مفاهيم موحدة وتفسيرات محددة قاطعة ، وبدون ذلك فإنها تفقد فاعليتها وأهميتها ، وهذا هو ما حدث بالفعل. وإن كانت هذه النتيجة السلبية لا تنفى وجود الإحساس عند العاملين بما يعنيه العمل فى الإطار الأخلاقى. وهذا ما يؤكده اهتمام مؤسسات الاتصال الجماهيرى جميعها بالأخلاقيات المهنية.

أما من حيث الجهود المهنية ، وهى تلك الجهود التى قامت بها الاتحادات المهنية للعاملين بالاتصال الجماهيرى فإنها جاءت متزامنة مع الجهود الإجتماعية الهادفة إلى التركيز على المسئولية الاجتماعية لكل المؤسسات فى المجتمع ، وما يتصل بها من التزام بالخدمة العامة والالتزامات الاجتماعية والمارسات الأخلاقية ، كما جاءت متزامنة مع الاتجاهات الاجتماعية نحو النظر إلى الأنشطة الاتصالية على أنها مهن متخصصة تتطلب تنظيمات مهنية.

ومع حركة نمو هذه التنظيمات المهنية ، زاد الاهتمام بما تقوم عليه من أساسيات أخلاقية ، بكل ما تعنيه من إعطاء تصاريح مشروطة للعاملين لمزاولة المهنة ، والحرص على العاملين الصالحين للعمل ، وإبعاد العاملين غير املؤهلين وغير الصالحين ، ووضع قوانين أخلاقية ، ومحاسبة العاملين على الالتزام بها. وفى رأينا ، أنه رغم كل ما تعنيه التنظيمات المهنية وجهودها. إلا أنها لم تصل إلى نتائج حاسمة. وربما يرجع ذلك إلى الحساسيات المتبادلة بين أعضاء متنافسين وينتمون إلى تنظيم مهنى واحد ، كنقابة الصحفيين مثلا.

وأما من حيث أنشطة اللجان والمجالس المتخصصة ، فإننا نجد العديد منها على المستوى العالمى ، خاصة اللجنة الفرعية لحرية الإعلام والمؤتمر العالمى لاتحاد الصحفيين. كما نجد العديد منها على المستوى الإقليمى ، مثل المؤتمر الإقليمى لصحافة الأمريكتين. أما على المستوى المحلى ، فإننا نجد الكثير أيضا مثل هيئة محررى الصحف الهندية والاتحاد القومى للصحفيين الانجليز واتحاد الصحفيين الاسترالى. ولعل أشهر هذه المجالس المتخصصة على مستوى وسائل الاتصال الجماهيرى كلها ، ما يعرف بالمجالس المتخصصة للصحافة ، مثل المجلس الأعلى للصحافة فى مصر وانجلترا والسويد والولايات المتحدة الأمريكية ، وغيرها.

وهذه المجالس المتخصصة تنظر فى موضوعين أساسيين : أولهما ، النظر فى الانتقادات التى توجهها الأفراد والمؤسسات إلى مؤسسات الاتصال الجماهيرى

كلها بصفة عامة والمؤسسات الصحفية المطبوعة بصفة خاصة. وثانيهما ، النظر فى كل ما يتصل بحرية الصحافة المطبوعة والمسموعة والمرئية.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال ، ينظر المجلس الأعلى للصحافة فى الشكاوى التى يقدمها الأفراد والمؤسسات فيما يتصل بمدى الإخلال بالدقة والأمانة فى عرض الأخبار والتعليق عليها ، سواء فى مؤسسات الصحافة المطبوعة أو المذاعة ، وسواء على المستوى الإقليمى أو المحلى. ويستثنى المجلس من هذه الشكاوى ما يتصل منها بالآراء الشخصية للعاملين فى هذه المؤسسات ، إلا إذا كانت تتصل بحقائق ليست موضع جدل. والمجلس لا يفرض عقوبات ، وإنما يستمد قوته من قوة الرأى العام الذى يمثله. وبالإضافة إلى ذلك ، يصدر المجلس بصفة دورية كتابا ابيض يحتوى على المشكلات المتصلة بالأخلاقيات المهنية التى تواجه مؤسسات الاتصال الجماهيرى[1].

وفى مصر ، عندما احتدم الصراع بين السلطة ونقابة الصحفيين حول القانون الذى أصدرته الحكومة بتشديد العقوبة على الاعتداء على المسائل الشخصية للمواطنين بدون أدلة قاطعة ، اتجهت السلطة إلى المجلس الأعلى للصحافة ليعالج المشكلة ، وتشكلت لجنة قومية من ممثلين عن نقابة الصحفيين ورجال القانون والمجلس الأعلى للصحافة ، لبحث المشكلة والوصول بها إلى حل يرضى جميع الأطراف. ومع ذلك ، لم تسلم الطريقة التى تشكلت بها اللجنة من الانتقادات ، حتى قبل أن تبدأ عملها.

ويبدو أننا فى مواجهة قضية الأخلاقيات المهنية ، كما قال هوهنبرج Hohenberg فى دراسة حول الصحفى المحترف ، أنه ليس هناك ما يوقف الصحفيين عن عمل أى شيء يمكن أن يشكل إهانة لأداب السلوك العام ، إن لم يكن ينطوى على انتهاك للقانون... وعلى عكس الأطباء والمحامين ، ليس من المستطاع تنظيم الصحفيين بواسطة أية هيئة خارجية ، ولا يمكن تطبيق قواعد السلوك التى تقرها تنظيماتهم النقابية بالقوة. وإذا لم يتصرف الصحفيون بوحى من

(1) Agee. W. & Others. Op. Cit. P. 544

مسئوليتهم ، وما لم تستطع المنظمات الخيرية ، أى المنظمات المعبرة عن الرأى العام كالمجالس المتخصصة ، اجبارهم على ذلك تحت التهديد ، وفان أحدا آخر لا يستطيع أن يفعل شيئا فى هذا الصدد ، إلا إذا ارتكبوا جرائم أو تورطوا فى دعاوى مدنية تتعلق بعملهم[١].

ويضيف جون ميريل J. Merr وزملاؤه ، أنه من الضرورى أن يتخذ العاملون فى وسائل الاتصال الجماهيرى مواقف إيجابية من زميلهم الذى يخرق الأخلاقيات المهنية عن عمد أو غير عمد. فالعمل الأخلاقى لا خلاف عليه ، ولكن السكوت عليه يشجع على الاستمرار فى ممارسته ، لأن مرتكبه لا يأبه بشىء ومرور هذا العمل بدون موقف إيجابى من زملاء المهنة ، لا يوصف إلا بأنه تخاذل وجبن[٢].

وبذلك ، نكون قد استعرضنا ثلاث قضايا أساسية ، هى : قضية الصراع بين السلطة ووسائل الاتصال الجماهيرى وقضية التصنيع وقضية الأخلاقيات المهنية. وهى جميعها تؤكد على ان دينامية الاتصال الإنسانى إذا لم تمارس بطريقة متوازنة وهادفة داخل إطار اجتماعى سليم من أجل خدمة المصلحة العامة للفرد والمجتمع. فإن إفرازاتها السلبية تكون ضارة بها وبالبيئة المحيطة بها معا.

ꕥꕥꕥꕥꕥꕥꕥ

---

(١) جون هوهنبرج، ترجمة كمال عبد الرءوف: الصحفى المحترف. مرجع سابق ، ص ٥٠٠.

(2) Merrill. J. & Others. Modern Mass Media. New York: Harper. Collins. 2ed edition, 1994. P.389.

المبحث الثانى

قضايا ومشكلات دولية

ليس تقسيمنا لقضايا ومشكلات الاتصال الجماهيرى هنا إلى قضايا ومشكلات داخل المجتمع الواحد وقضايا ومشكلات بين المجتمعات علـى مستوى العلم كلـه ، تقسيما حاسما وفاصلا. فالواقع يؤكد التداخل فى التـأثير بينهمـا بدرجـة تكسب هذه القضايا والمشكلات بكل اتجاهاتها صفة العمومية ، وتقلـل مـن صفـة الخصوصيـة لهذا الاتجاه أو ذاك.

ولنضرب مثلا هنا ، بقضية الغزو الثقافى الذى تقوم به المجتمعـات المتقدمـة للمجتمعـات الناميـة بكـل مـا يعنيـه مـن آثـار سلبية علـى ثقافـة المجتمعـات الناميـة وهويتها وتراثها وأصالتها. ولا شك فى أن قضية الغزو الثقافى ناتجة عن اكتسـاب المجتمعات المتقدمة لقدرات اتصالية إنتاجية هائلة بفعل ثورة تكنولوجيا الاتصـالات والمعلومات والتى كان نصيب المجتمعات النامية منها ضئيلا ومحدودا. وهذا يعنـى أن الغزو الثقافى كإحدى القضايا الدولية فـى مجـال الاتصـال الجمـاهيرى انعكـاس ونتـاج لتطـورات تكنولوجيـة هائلـة فـى المجتمعـات المتقدمـة ، اسـتطاعت هـذه المجتمعات تسخيرها لخدمة أهدافها وأغراضها وسياستها الخاصة فى مواجهة العالم من حولها. وهنا لا نستطيع وصفها بأنها قضية دولية بحتة ، وإنما هى قضية دولية ذات جذور داخلية !!

هذه الملاحظة العلمية العابرة أردنا تسجيلها هنا ، حتى لا يتبـادر إلـى الذهن أننا نتنـاول قسمين منفصلين مـن قضايـا الاتصـال الجمـاهيرى ومشـكلاته ، وإنمـا الأصح أن نقول أننا نتنـاول جانبـا آخـر يتكـامل تمامـا مـع الجـانب الأول مـن هـذه القضايا والمشكلات. وتتكـامل جميعهـا فـى وصـف الوضـع الراهن للنظـام الدولـى للاتصال على مستوى العالم كله وجذوره داخل كل مجتمع من مجتمعاته ، وما جاء التقسيم هنا إلا بهدف الدراسة والتحليل.

وفى بداية تحليلنا للقضايا الدولية للاتصال الجماهيرى ومشكلاتها ، علينـا أن نـدرس أهـم المشـكلات التـى يعـانى منهـا النظـام الدولـى للاتصـال بصفـة عامـة ،

محاولين أن نستخلص منها أهم القضايا المتصلة بالاتصال الجماهيرى ، كموضوع أساسى لدراستنا هنا.

ففى دراسة علمية قام بها جون ميريل J. Merrill وزملاؤه وأشرنا إليها من قبل ، تبين أن هذه المشكلات يمكن تحديدها فى ثمانى مشكلات أساسية ، بينهما تداخل كبير ، يؤدى بها جميعا الى مشكلات معقدة ، وهى كالآتى[1] :

١- التدفق غير المتوازن للمعلومات من المجتمعات المتقدمة إلى المجتمعات النامية ، حيث تتدفق المعلومات التى تنتجها المجتمعات المتقدمة إلى المجتمعات النامية بدرجة عالية وغير متناسبة مع مصالح هذه المجتمعات النامية. وهذا يؤدى إلى اختلال فى التدفق الإعلامى لصالح المجتمعات المتقدمة وعلى حساب المصالح الأساسية للمجتمعات النامية.

٢- وجود تحيز أو تعصب شديد ضد المجتمعات النامية. وهذا التحيز أو التعصب يخلق أنماطا لصور ذهنية لها داخل المجتمعات المتقدمة ، وهى لا تخدم المصالح الأساسية لهذه المجتمعات النامية.

٣- تضمين المعلومات الوافدة أو المتدفقة من المجتمعات المتقدمة على المجتمعات النامية قيما غربية لا تخدم إلا أهدافا ومصالح استعمارية ثقافية.

٤- الكم الضئيل الذى تتناوله وسائل الاتصال الجماهيرى عن المجتمعات النامية يركز أساسا على الأخبار السلبية كالكوارث والانقلابات والفساد الحكومى وما شابه ذلك. وهى كلها أخبار لا تخدم تكوين صور ذهنية حسنة داخل المجتمعات المتقدمة ، ولا تخدم بالتالى المصالح الأساسية للمجتمعات النامية.

٥- لا يتوزع التمويل اللازم لتطوير تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بين المجتمعات المتقدمة والنامية توزيعا عادلا ، بحيث تستأثر المجتمعات المتقدمة بالنصيب الأكبر ، وتترك المجتمعات النامية فى موقف العاجز فى مواجهة تطورات تكنولوجية متطورة ومتلاحقة.

---

(1) Merrill. J. & Others. Ibid. Pp. 416-419

٦- التعريف الذى وضعته المجتمعات المتقدمة للأخبار غير واقعى ولا يعطى اهتماما كافيا لأخبار التنمية والتقدم فى المجتمعات النامية. وهذا يؤثر على نوعية المضمون الإخبارى المتدفق من المجتمعات المتقدمة وعلى نوعية اهتمام وسائل الاتصال الجماهيرى بها بما يحدث داخل المجتمعات النامية.

٧- الغالبية العظمى من الأخبار التى تجمعها وكالات الأنباء العالمية تصاغ بلهجة غربية متحيزة أو متعصبة ضد المجتمعات النامية.

٨- تعليم الصحافة والاتصال الجماهيرى فى المجتمعات المتقدمة له اتجاهات غربية وموجهة أيضا ، وكذلك الدراسات العلمية التى تنشر لأغراض تعليمية أو علمية لها نفس الاتجاهات الغربية المتعصبة لمجتمعاتها ، مع تجاهل واضح لواقع المجتمعات النامية ومع تحيزها وتعصبها ضده.

تلك المشكلات التى يعانى منها النظام الاتصالى الدولى تشكل ضغوطا قوية على المجتمعات النامية وأنظمتها الاتصالية. ولذلك كانت أكثر صياحا وأعلى صوتا بالمطالبة بنظام اتصالى دولى جديد يحقق درجات أكبر من العدل والتكافؤ والأخلاقيات المهنية ، ويؤدى إلى تفاهم دولى أكبر لخدمة القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية لكل المجتمعات بدرجات متساوية. بينما تقف المجتمعات المتقدمة من هذا الصياح والصراخ موقف اللامبالاة والسخرية ، بحجة أن هذه الاتجاهات التى تنادى بها المجتمعات النامية وتساندها فيها المجتمعات الاشتراكية ، تهدد حرية الاتصال الدولى وتؤدى إلى سيطرة الحكومات المتسلطة وتحكمها.

ولا تزال هذه المشكلات قائمة وملحة على المستوى الدولى. ولئن كانت المنظمات الدولية وخاصة منظمة اليونسكو قد تخلت عن تبنى اتجاهات المجتمعات النامية ومطالبها تحت ضغط المجتمعات المتقدمة ، إلا أن هذا لا يعنى أن هذه المشكلات انتهت ضغوطها واختفى الإلحاح عليها. ومن ثم يكون علينا أن نبلورها إلى قضايا أساسية ، نتناولها بشىء من التحليل الذى يعطيها مضمونها وأبعادها بالكيفية التى تخدم أهداف دراستنا هنا.

ونستطيع هنا ان نحدد ثلاث قضايا أساسية ، هى قضية التدفق الإعلامى غير المتوازن ، وقضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات ، وقضية الغزو الثقافى للمجتمعات النامية. وهذه القضايا الثلاث تتداخل فيما بينها بنفس الدرجات العالية للتداخل بين مشكلات الاتصال الدولى التى تثيرها.

أ- قضية التدفق الإعلامى غير المتوازن

يقوم نظام الاتصال الدولى على أنظمة اتصال وطنية فرعية. ومن الطبيعى أن يحدث تفاعل بين هذه الأنظمة الفرعية داخل إطار النظام العام الذى ينتظمها. ذلك لأنه على الرغم من أن لكل مجتمع وجوده المميز من خلال تفاعلاته مع المجتمعات الأخرى على المستوى الدولى ، فإن أيا منها لا يستطيع أن يعيش فى عزلة ، بل لابد لها ان تتعامل مع المجتمعات الأخرى من خلال اتصال دائم وتواصل مستمر . ومن ثم ، فإن كل نظام اتصال داخل كل مجتمع يكون مستعدا لإعطاء المعلومات إلى الأنظمة الأخرى وتلقى المعلومات منها من خلال عمليات تبادل تحكمها الأنشطة المتبادلة والمصالح المتبادلة.

وتتم عمليات تبادل المعلومات بين أنظمة الاتصال الفرعية داخل إطار النظام الدولى للاتصال من خلال وسائل كثيرة ومتعددة ، كالاتصال الشخصى بين الأفراد والجماعات ، سواء الرسميين منهم أو أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية ، والبرامج الإذاعية بالراديو أو بالتليفزيون والتى تخترق الحدود الوطنية مباشرة أو عبر الأقمار الصناعية ، والكتب والمطبوعات والصحف والمجلات وبرقيات وكالات الأنباء العالمية والإقليمية والمحلية والمراسلين الخارجيين. ويأخذ كل نظام اتصالى من المعلومات المتبادلة قدرا تحكمه اعتبارات كثيرة أهمها مكانة كل دولة فى سلم القوة بكل أبعادها وقوة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية التى تربطها بالدول الأخرى وأبعادها[1].

(1) Herter, A. " International Information Flew ". In Merrill, J. & Fisher, H. International and Intereultural Communication. New York : Hasting House. 1976. Pp.242-250.

وتقول إحدى الدراسات العلمية ، ان العبرة ليست فى حجم المعلومات المتبادلة بين أنظمة الاتصال الفرعية ، ولكن العبرة باتجاهها ومضمونها ونوعيتها وآثارها على المجتمعات التى تنتمى إليها. فقد تسهم هذه المعلومات فى خلق صور ذهنية إيجابية عن كل مجتمع لدى المجتمعات الأخرى ، أو تسهم فى خلق التفاهم بينهما ، أو خلق روح التعاون وتحقيق المصالح المشتركة وزرع الثقة المتبادلة ، وتفادى الأخطار المشتركة . وقد يحدث العكس تماما أو بدرجات متفاوتة[١]. وهنا تكمن قضية التدفق الإعلامى.

ففى دراسة مصرية لمشكلة الاختلال الإخبارى كأحد مشكلات الإعلام الدولى، استطاع الباحث أن يضع تعريفا لقضية التدفق الإعلامى غير المتوازن كما يلى[٢] :

ينجم عن التفاوت فى مدخلات القوة فى النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والتقنية بين الدول تفاوت آخر فى قدراتها على إنتاج وتوزيع الأنباء والمعلومات. وهو ما يترتب عليه الاختلال فى كم ونوع المعلومات والأنباء المتبادلة دوليا. ولما كان لا يوجد دولتان متشابهتان تماما فى نظمها ومدخلات قوتها ، اتخذ هذا الاختلال أشكالا ومستويات عديدة بين كل دولة على حدة وبين بقية دول العالم ، وبين كل مجموعة متجانسة أو شبه متجانسة وبين المجموعات الأخرى ، نظرا لأن كل دولة أو مجموعة متجانسة من الدول تشكل نظاما ينتج نوع وكم المعلومات والأنباء النابعة من طبيعة نظامها وأهدافها وحركته لبلوغ هذه الأهداف ، والتى قد لا تشبع احتياجات واهتمامات دولة أخرى أو مجموعة دول أخرى. وبديهى ألا توجد دولة فى العالم ملزمة بانتاج وتوزيع المعلومات والأنباء التى تحتاجها دولة أخرى ، وإنما تقع على كل دولة مسئولية إنتاج المعلومات والأنباء التى تحتاجها أو الحصول عليها.

---

(1) Richardson, J. " The Media and Cultural Exchange " Exchange Quarterly, No. 13, Vo. 3, Winter 1978. Pp. 3-4.

(٢) راسم الجمال : دراسات فى الإعلام الدولى : مشكلة الاختلال الإخبارى. جدة : دار الشروق سنة ١٩٨٥. صص ١٥٠-١٥١.

ويضيف هذا الباحث ، أن الاختلال الإعلامي أصبح ظاهرة دولية ، تشترك فيها كل أطراف المجتمع الدولي. وتعبر عن الاختلافات القائمة فعلا بين النظم والثقافات والاهتمامات ، ودرجة التقدم بالنسبة لكل طرف منها.

ولهذه القضية أشكال عديدة ومظاهر متنوعة ، حددتها اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام التي شكلتها منظمة اليونسكو. وهي تؤكد على أن هذه القضية لا تتسم بالبساطة ، وإنما تتسم بالتعقيد. فنحن لا نواجه حالة بسيطة وإنما نواجه حالة مركبة للاتصال الدولي وانعكاساتها على أنظمة الاتصال الوطنية(١).

ولعل أهم هذه الأشكال والمظاهر ، ما يحدث من تدفق إعلامي غير متوازن بين الدول المتقدمة والدول النامية ، وما يحدث من اختلال في التدفق الإعلامي بين الدول ذات النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة وكذلك ما يحدث من اختلال في التدفق الإعلامي بين ذات الدول المتقدمة المنتمية إلى أنظمة واحدة ، وبين الدول النامية ذاتها ، وبين نوعية المعلومات والأنباء التي يقوم عليها هذا التدفق الإعلامي غير المتوازن بل أنن هناك مظهرا داخليا لهذا الاختلال في التدفق الاعلامي داخل كل دولة من الدول النامية ، حيث يحدث أيضا بين المراكز الحضرية والريفية على حساب المراكز الريفية منها.

ولا شك في أن الاعتبارات التي تحكم قضية التدفق الإعلامي غير المتوازن – تجعل المجتمعات النامية أكثر إحساسا بها وأكثر معاناة منها. ذلك لأن خطورة هذه القضية تكمن أساسا في أنها تعيد إلى الممارسة العملية عهود الاستعمار والتبعية. فالدول المتقدمة تحتل مكانتها العالمية في النظام العالمي المعاصر ، كما كانت تحتله في العهود السابقة ، وإن تغيرت مراكزها. وما كانت تحققه بالقوة العسكرية أصبحت تستطيع تحقيقه بالقوة الإعلامية. ولعل أكبر دليل على ذلك انسحاب الولايات المتحدة وانجلترا من منظمة اليونسكو عندما تأكدت أن هذه المنظمة تتبنى مطالب الدول النامية الرامية إلى إيجاد نظان اتصالي دولي متوازن وعادل.

(1) MacBride, S. Many Voices - One World: Communication and Society Today and Tomorrow. London: Kogan Page, 1983. P. 36.

ولقد بذلت جهود كثيرة لمواجهة هذه القضية وإيجاد حلول لها ، بدأت فى عام ١٩٧٥ م خلال انعقاد مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز بالجزائر ، وانتهت بتبنى منظمة اليونسكو لهذه القضية وتشكيل اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام. ولكن الأوضاع ما لبثت أن تغيرت بعد ضغوط الدول الغربية المتقدمة وتغيير الأوضاع فى قيادة اليونسكو ذاتها ، مما انتهى بالقضية إلى حالة من الجمود.

ب- قضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات :

تمثل الأنباء والمعلومات الخارجية أهمية بالغة فى كل وسائل الاتصال الجماهيرى ، وخاصة الصحف والمجلات والراديو والتليفزيون ، لأنها تؤدى بها إحدى الوظائف الأساسية لها ، حيث تربط الأفراد والجماعات ببيئتها الخارجية ، الإقليمية منها والدولية. وقد يكون هذا الارتباط إيجابيا فتنشأ العلاقات السليمة بين الشعوب والمجتمعات ، وقد يكون الربط سلبيا فيحدث العكس تماما أو بدرجات متفاوتة.

وتعتمد وسائل الاتصال الجماهيرى فى حصولها على المعلومات والأنباء الخارجية على مصادر عديدة ، أهمها : المراسلون الخارجيون والصحف والمجلات الأجنبية العالمية وأقسام الاستماع إلى الإذاعات الخارجية ووكالات الأنباء العالمية والإقليمية[1].

وإذا كان المراسلون الخارجيون أهم مصدر خارجي يحقق لوسائل الاتصال الجماهيرى ذاتيتها وتميزها ، فإن هذه الوسائل فى مواجهة التقدم التكنولوجى الهائل والنفقات العالية اللازمة لانتاجها ، تعتمد بدرجة عالية ولا يمكن الاستغناء عنها على المصادر الأخرى ، وخاصة وكالات الأنباء العالمية والإقليمية. وهذا الوضع يمثل مدخلا إلى ما يسمى بقضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات.

وتنفرد وكالات الأنباء العالمية بالسيطرة على حركة نقل الأخبار. وهى ، وكالة الأسوشيتدبرس الأمريكية A. P. التى تأسست سنة ١٩٤٨ م ، ووكالة

---

(١) إبراهيم عبدالله السلمى: مصادر الأخبار العالمية فى الصحافة القاهرة : مكتبة العربى للنشر ، سنة ١٩٩٢. صص : ٩-١٣.

اليونايتدبرس الأمريكية أيضا UPI والتى تحولت إلى وكالة واحدة سنة ١٩٥٨ م ، ووكالة رويتر البريطانية Reuters والتى تأسست سنة ١٨٥١ م ، ووكالة الأنباء الفرنسية AF P. والتى تأسست سنة ١٩٤٤ م.

وترجع خطورة السيطرة التى تتمتع بها هذه الوكالات العالمية على الأنباء والمعلومات الخارجية إلى عدة اعتبارات مستمدة أساسا من صفتها الدولية إلى جانب صفتها القومية. فقد مكنتها قوتها الاقتصادية والتكنولوجية والبشرية من الانتشار الواسع فى تغطية المعلومات والأنباء فى كل بقاع الأرض. ثم إن لها مئات المشتركين من الصحف ومحطات الراديو والتليفزيون ومراكز صناعة القرار فى الغالبية العظمى من دول العالم. وتقدم خدماتها طوال أربع وعشرين ساعة وبلغات عديدة ، أهمها العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والبرتغالية والروسية والأسبانية.

وهناك إلى جانب هذه الوكالات العالمية عدد آخر من الوكالات المتوسطة ، مثل وكالة الأنباء الألمانية DPA ووكالة الأنباء اليابانية KYODO ووكالة الأنباء الأسبانية EFE. وتعتبر وكالة الأنباء الألمانية أكبر هذه الوكالات المتوسطة ، ولها مراسلون فى أكثر من ٨٠ دولة ، ولها مشتركون يزيدون على ١٤٤ مشتركا ، وتقدم خدماتها بأربع لغات ، هى : الألمانية والإنجليزية والأسبانية والعربية. غير أن هذه الوكالات المتوسطة لا ترقى إلى مستوى الوكالات العالمية، لا من حيث الانتشار أو الامكانيات. ولذلك ، فهى تشترك فى وكالات الأنباء العالمية ، ولا يحدث العكس[1].

كما أن هناك عددا آخر من الوكالات المتعددة الجنسيات ، وهى وكالات ليس لها انتماء قومى ، وتقع فى مركز وسط بين الوكالات العالمية والمتوسطة ، وتسعى إلى إشباع الحاجات الإخبارية لمناطق جغرافية معينة ، والتى تضم دولا ذات

(1) UNESCO. International Commission For The Study of Communication : Working Papers 14, Monographs II, Pp. 54-69

أنظمة سياسية مختلفة ، مثل مجمع وكالات الدول غير المنحازة NANAP ووكالة انباء الكاريبى CANA ووكالة الأنباء الإسلامية ووكالة الأنباء الإفريقية.

ويضاف إلى ذلك ، عدد آخر من الوكالات المحلية الصغيرة. وهى لا تملك إلا عددا محدودا من المراسلين فى الخارج. وتتبادل فيما بينها الخدمات ، إلى جانب تبادلها الخدمات مع وكالات الأنباء العالمية. وهى تسعى إلى إشباع الحاجات الإخبارية المحلية بطريقة تحاول بها التقليل من اعتماد وسائل الاتصال الجماهيرية الوطنية على الوكالات العالمية فيما يتعلق بالأنباء المحلية.

كما يضاف إلى ذلك. عدد من الوكالات المتخصصة فى نوعيات معينة من الأخبار والمعلومات ، كالأخبار الرياضية والاقتصادية ، والأخبار الخفيفة Features والصور الإخبارية والأعمدة الصحفية ، إلى جانب أن بعضها يمتد نشاطه إلى جميع أوجه الإنتاج الفكرى والأدبى فى بلاده. ولهذه الوكالات المتخصصة مشتركون فى العديد من دول العالم.

وهناك عدد من الاعتبارات الهامة التى تعطى لقضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات حجمها وأبعادها وآثارها. ونستطيع هنا أن نحدد أهمها فيما يلى:

١- الانتماءات القومية لهذه المصادر العالمية ، سواء كانت صحفا ومجلات أو محطات للراديو والتليفزيون أو وكالات الأنباء. وهذه الانتماءات تفرض عليها أساسا أن تنظر إلى الموضوعات والأحداث العالمية من زاوية قومية ، وأن تعرضها بطريقة تخدم هذه الزاوية القومية ، وبالكيفية التى تحقق المصالح القومية لمجتمعاتها. وهذه البديهيات أساسية ، لأن التزامها نحو صفتها القومية يسبق التزامها نحو صفتها العالمية. ثم إن الصفة العالمية لها لا تفرض إطارا قانونيا أو أدبيا يحكم حركتها وطريقة عملها.

٢- طبيعة العمل فى وكالات الأنباء العالمية. فهى جميعها تنتمى إلى مجتمعات رأسمالية ، وتعمل فى نطاق نظام اقتصادى حر ، بهدف تحقيق الربح لأصحابها. وهى جميعها تعمل وتدار وفقا لمعايير الدول الرأسمالية المتقدمة

التى تنتمى إليها واهتماماتها. ومن ثم تركز على أنبائها وعلى مجالات اهتماماتها الإقليمية القومية[١].

٣- اختلاف القيم الإخبارية التى تعتنقها هذه المصادر العالمية عن القيم الإخبارية التى تعتنقها الدول المشتركة فيها. ولعل مقارنة بسيطة بين مفهوم الخبر فى الدول المتقدمة ومفهومه فى الدول النامية يثبت هذه الحقيقة ويؤكدها. فقد تبين أن الدراسات العلمية الصحفية فى الدول الغربية المتقدمة تعرف الخبر بأنه تقرير دقيق ووصف متوازن وموضوعى ، وأنه يقوم على بعض القيم التى تؤكد على معايير تتصل بالواقعية والتأثير والبروز والأهمية المباشرة والتوقيت المناسب والاهتمامات الإنسانية والصراع والغربة. ويقوم هذا المفهوم على افتراض إتاحة المعلومات بحرية للجماهير.

ولقد هوجمت هذه القيم الإخبارية من المجتمعات النامية ، على أساس أن لديها متطلبات من وسائل الاتصال الجماهيرى بها ، تختلف تماما عن متطلبات المجتمعات الغربية المتقدمة. كما أن كثيرا من المجتمعات النامية تقوم على هياكل سياسية هشة لا تتحمل مثل هذه القيم الإخبارية الغربية. وكذلك ترى هذه المجتمعات النامية أنه لا يجوز استخدام معايير إخبارية لا تتصل بمشكلاتها الأساسية. ونرى هذه المجتمعات أن الأخبار ينبغى أن تقدم فى سياقها وأن يحكم عليها طبقا لقيمها المرتبطة بالموقف المحلى. وبالتالى ، فهى ترى أن وسائل الاتصال الجماهيرى بها عليها أن تتعامى عن السلبيات ، وتركز على الإيجابيات[٢]

٤- الاعتماد الواسع والقاصر لوسائل الاتصال الجماهيرى الوطنية على المصادر العالمية ، وخاصة وكالات النباء العالمية. فقد تبين أن معظم الصحف والإذاعات ومحطات التليفزيون التى تقع فى دائرة الدول غير الشيوعية ليس لديها خيار فى الحصول على الخبار العالمية ، إلا أن تعتمد اعتمادا مباشرا

---

(١) راسم الجمال : مرجع سابق ، صص : ١٠٤-١٠٥.

(٢) جون مارتن وجرونز شودرى ، ترجمة على درويش : نظم الإعلام المقارنة. القاهرة : الدار الدولية للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٩١ ، صص : ٧٨-٨١.

على هذه الوكالات كمصدر أساسى ، والقلة من هذه الوسائل فى العالم هى التى تستطيع أن تدعى الاستقلال فى جمعها للأخبار العالمية اعتمادا على مراسليها.

ولقد نتج عن هذه الاعتبارات التى حكمت قضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات ، فقد الكثير من وسائل الاتصال الجماهيرى الوطنية لشخصيتها المتميزة، نتيجة لتحقق التماثل بينها فى الأخبار بدرجة عالية ، ونتيجة لسيادة القوالب والمفاهيم الغربية فى صياغة الأخبار والممارسة المهنية. وهذا التأثير له خطورته على ضوء الاعتبارات التى تحكم هذه القضية ، وخاصة ما يتصل منها بالإنتماءات القومية واختلاف القيم الإخبارية.

كما نتج عن هذه الاعتبارات أيضا ، تأثر وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمعات النامية بأسلوب وشكل الصحافة الغربية ، وخاصة الصحف والمجلات العالمية منها كالنيويورك تايمز الأمريكية والتايمز اللندنية ومجلتا تايم ونيوزويك الأمريكيتين. وكذلك أثرت أنماط الإذاعة الأمريكية على أنماط الإذاعة فى المجتمعات النامية ، إلى جانب اعتمادها الكامل على الخدمات التليفزيونية التى تقدمها هيئتان عالميتان للأخبار المصورة ، هما : فزنيوز الإنجليزية وشركة الأفلام المصورة UPITN الأمريكية الإنجليزية.

ولعل ما يقلل من الأخطار التى تعنيها قضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات ، وجود قدر من التعدد فى وكالات الأنباء المتوسطة والإقليمية والمحلية إلى جانب المراسلين الأجانب. وهذا يعنى وجود أصوات أخرى غير أصوات وكالات الأنباء العالمية والصحف والمجلات العالمية ، وإن كانت أصواتا محدودة الأثر.

كما يقلل من أخطار هذه القضية ما تقوم به وسائل الاتصال الجماهيرى الوطنية قبل أخذها بخير من الأخبار عن طريق وكالات الأنباء العالمية أو الصحف والمجلات العالمية أو محطات الإذاعة الأجنبية ، فهى تراجع وتقارن بين البرقيات الواردة إليها من أكثر من مصدر ، ثم تختار من بينها بحسب سياستها فى التحرير.

غير أننا اذا أخذنا فى اعتبارنا عامل السرعة والوقت الذى يحكم الصحافة الحديثة ، إلى جانب ضآلة المصادر الخاصة المستقلة ، فإن هذا الاسلوب يصبح محدود الأثر أيضا.

ويضاف إلى ذلك ، ما نلاحظه على وسائل الاتصال الجماهيرى الوطنية فى المجتمعات النامية من عدم اهتمامها بالتغطية الإخبارية الخارجية الواسعة ، فالمساحة المكانية والزمنية التى تفردها للأخبار الخارجية محدودة للغاية ، إذا قورنت بتلك التى تفردها للأخبار المحلية والموضوعات الأخرى. وهذه الملاحظة وإن كانت لها خطورتها على تكوين الرؤية الواسعة امام جماهيرها ، إلا أنها ليست متعمدة ، وإنما هى مضطرة تحت ضغط الاقتصاد فى التكاليف.

وتبقى القضية ساخنة ، فليس التقليل من المساحة المكانية والزمانية المخصصة للأخبار الخارجية أسلوبا علميا صحيحا ، لأن فيه إخلال برسالة هذه الوسائل ودورها فى المجتمع. وتصبح العوامل المخففة الأخرى ضعيفة الأثر فى مواجهة قضية تحتاج فى تناولها إلى توافق المصالح والاتجاهات وتوافر العدل والاتزان ، وهى كلها صفات مفقودة فى النظام الحالى للاتصال الدولى.

جـ- قضية الغزو الثقافى للمجتمعات النامية :

ليست هذه القضية مستقلة تماما عن قضية التدفق الإعلامى غير المتوازن وغير المتكافئ بين المجتمعات الغربية المتقدمة والمجتمعات النامية. فهى تمثل جانبا سيئا لها ، مثلما تمثل قضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات جانب آخر سيئا. فقضية التدفق الإعلامى غير المتوازن هى القضية الأساسية ، والقضيتان الأخريتان متفرعتان عنها.

ويخطئ من يظن أن قضية الغزو الثقافى مرتبطة أساسا بثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ارتباط السبب بالنتيجة. وإنما الصحيح أن نقول أن ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات أعطت الغزو الثقافى كهدف قديم وسائل أحدث وأقوى وأكثر تأثيرا.

فالغزو الثقافى للمجتمعات النامية ارتبط بظاهرة الاستعمار العالمى القديم عندما كانت القوة العسكرية أسلوبا ووسيلة لغرض الهيمنة الاقتصادية والثقافية والسياسية على الشعوب المقهورة. ونظرة إلى ما حدث فى مصر بعد دخول الحملة الفرنسية إليها أو بعد دخول الاحتلال الإنجليزى إليها ، تعطى شواهد وأدلة قوية على هذا الارتباط. ولقد تطور الاستعمار العالمى وتطورت أساليبه. فلم تعد القوة العسكرية سلاحا ، وإنما أصبحت الضغوط الاقتصادية والسياسية اساليب غير مباشرة. وما جاءت ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات إلا لتضيف إلى قوى الاستعمار العالمى الجديد أساليب مباشرة واكثر تأثيرا واوسع انتشارا.

ومضمون قضية الغزو الثقافى للمجتمعات النامية فىوقتنا الراهن ، يعنى أن ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات زادت التدفق الإعلامى الدولى غير المتوازن وغير المتكافئ ، وأصبح من السهل على المجتمعات الغربية المتقدمة ، وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ، أن تبث السم فى العسل كما يقولون. فمن خلال البرامج الإذاعية التى تستخدم البث المباشر عبر الأقمار الصناعية ، والذى يتخطى الحواجز والحدود ويصل إلى كل مواطن مباشرة فى منزله ، تحاول أن تحقق أغراضا ثقافية مشكوكا فيها. ولا تستطيع المجتمعات النامية فى مواجهة هذا السيل الجارف أن تحكم سيطرتها على ما يصل إلى مواطنيها ويستهدف عقولهم ونفوسهم ، بل ويستهدف هويتها الثقافية المتميزة بصفة عامة.

ولعل ما يعطى لهذه القضية حساسيتها البالغة ، أن المجتمعات النامية المستهدفة لا تزال تعانى من التخلف الشديد والتجزئة والأمية وضعف الإمكانات المادية والبشرية والتقنية. وهذه الظروف المعاكسة تجعل هذه المجتمعات فى موقف الضعيف المستسلم لقدره فى مواجهة قوى لا يملك فى مواجهتها حيلة ولا وسيلة.

ورغم وضوح هذه القضية وآثارها ، إلا أن الباحثين ينقسمون فى مواجهتها انقساما حادا. فالبعض يرى أن ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات تفرض حرية تبادل وتداول المعلومات والأنباء ، وأن حق الاتصال ينبغى أن يتوفر لكل الأفراد والجماعات فى كل المجتمعات ، خاصة وأن هذه الثورة سوف تؤدى إلى

تعدد المصادر وانفجار المعلومات ، وتضع على الأفراد مسئولية الاختيار بينها ، وما على الدول وأجهزتها إلا أن تلجأ إلى أساليب الإقناع في سياستها بدلا من اللجوء إلى أساليب الإرشاد والتوجيه والرقابة. كما أن هذه الثورة سوف تؤدى إلى اللامركزية بتشجيع إنشاء القنوات المحلية والنوعية لإحداث توازن مع المواد الوافدة. ثم إن هذه الثورة سوف تؤدى إلى التعددية بدلا من النمطية ، بخلق تعدد فى المجالات والاهتمامات والمدركات والمعارف وزيادة الفروق الفردية بين الناس ، بديلا عن النمط الواحد فى التفكير والتوجه.

وتؤكد منظمة اليونسكو على هذا الاتجاه المؤيد بإصرارها على أن مهمتها ضمان حرية تدفق المعلومات على المستوى الدولى والقومى ، ونشرها على نطاق واسع وأكثر توازنا وبدون عوائق أمام حرية التعبير يكون من شأنها أن تؤدى الى عدم مشاركة الدول النامية فى عملية الاتصال(١).

ويعارض هذا الاتجاه فريق آخر من الباحثين ، ويرون فى هذه الإدعاءات خطورة لا يمكن تجاهلها ، لأن هذا التدفق الإعلامى غير المتوازن وغير المتكافىء والذى تسيطر عليه المجتمعات الغربية المتقدمة من موقع القوة الاقتصادية والتقنية، وبأهدافها الاستعمارية التى لم تتخل عنها طوال تاريخها ، سوف يؤدى إلى هيمنة اتصالية وامبريالية ثقافية. ويؤكد على هذه النتيجة باحثون امريكيون ، لينطبق المثل القائل : وشهد شاهد من أهلها ، ويصبح حقيقة واقعة.

ففى دراسة لألفين توفلر A. Toffler يؤكد علـى أن هذه الهيمنة الاتصالية تستهدف تذويب العالم فى أتون ثقافى أمريكى واحد. وبدلا من أن تؤدى إلى إعطاء المجتمعات خيارات من الهويات المتماسكة لتختار منها ما يلائم حياتها الخاصة ، نجدها تفرض عليها أن تذيب هويتها داخل إطار كل متكامل(٢). وليت هذا الكل

---

(١) فورتن جيرسنج: اليونسكو وحرية التعبير . مجلة رسالة اليونسكو (عدد خاص) بتاريخ أول سبتمبر ١٩٩٠.

(٢) ألفين توفلر ترجمة فتحى شتوان ونبيل عثمان : تحول السلطة بين العنف والثورة والمعرفة. مصراته : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، سنة ١٩٩٢. ص ٤٢٩.

المتكامل يتصف بالعالمية التى تعرض على كل المجتمعات بدون تفرقة أو تعصب، وإنما يتخذ صفة غربية متعصبة عامة وأمريكية خاصة.

وفى دراسة لهربرت شيلر ، يعترف بأن الحضارة الغربية تسعى من خلال هذه الهيمنة الاتصالية إلى تحقيق الاستعمار الثقافى[١] . واستعمال مصطلح الاستعمار الثقافى هنا له ما يبرره وله مغزاه. لأن الباحث هنا ليس غريبا عن أهله، وأنه يرى أن قضية الاتصالات العالمية لا تنفصل عن قضية السيطرة الاجتماعية فى نهاية الأمر.

وفى تصورنا أن هذه القضية يمكن النظر إليها بموضوعية داخل إطار عدد من الاعتبارات التى تحكمها ، والتى تعتبر سمات اجتماعية علمية لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها إذا أردنا أن نصل إلى حسم لهذه القضية بكل أبعادها وآثارها ، وهى كما يلى :

١- أن حق الاتصال وما يرتبط به من حرية تبادل المعلومات والأنباء وحرية التعبير وحرية الرأى وما شابه ذلك من حريات فردية ، كلها أمور لا تقبل الجدل والمعارضة فى مواجهة ما يسمى بالتدفق الإعلامى العالمى بين المجتمعات ، على أن يكون هذا التدفق الاعلامى متوازنا ومتكافئا ومستهدفا تحقيق المصالح المشتركة لكل المجتمعات والشعوب. فإذا فقد التدفق الإعلامى هذه المواصفات ، فإن حق الاتصال وما يرتبط به من حريات فردية يصبح موضع تساؤل كبير ، لأنه فى هذه الحالة الأخيرة يصبح رداء يخفى تحته نيات ومقاصد لا تخلو من خبث وسوء.

٢- أن المواصفات الإيجابية المطلوبة فى التدفق الإعلامى الدولى تتطلب تكافؤا فى الإمكانات الاقتصادية والبشرية والتقنية ، فإذا لم يتوفر هذا التكافؤ ، فإن هذا يتطلب تخلى الدول المتقدمة عن أحلام السيطرة والهيمنة والاستعمار. وبالتالى تخليها عن مصالحها الخاصة. وهذا أمر مستحيل،

---

[١] هربرت شيلر ترجمة وجيه سليمان عبد المسيح : الاتصال والهيمنة الثقافية. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٣. ص ٢١.

على ضوء حقائق العلاقات الدولية ، وما يسمى بالنظام الدولى الحديث الذى تحكمه الصراعات بأشكالها.

٣- أن هناك فرقا واضحا بين الاتصال الحضارى وهو أمر مرغوب. والغزو الثقافى وهو أمر مرفوض. فالغزو الثقافى يقوم على الإكراه والإخضاع وخلق الاستعداد للانفصال عن الجذور الثقافية والحضارية والتنكر لها واحتقارها ، ويستهدف صياغة العقول والنفوس بطريقة تحطم المصالح القومية والهوية الذاتية للشعوب. بينما الاتصال الحضارى يقوم على الحرية والتلقائية وخلق روح الانتقاء والمفاضلة ، ولا يؤدى إلى التنكر للتراث الثقافى والحضارى ، ويهدف إلى استكمال البناء العقلى والنفسى. وشتان بين المفهومين فى مواجهة التدفق الإعلامى الدولى بوضعه الحالى[١].

٤- أن الشواهد الواقعية خير دليل على نوعية التأثيرات من التدفق الإعلامى الدولى الحالى. وبالتالى ، على إمكانية وصفه بالاتصال الحضارى أو بالغزو الثقافى ، وبالتالى ، على الحكم عليه بالإيجابية أو السلبية ، وبالتالى ، على قبوله أو رفضه.

فهناك دراسة علمية تؤكد على أن تطوير تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لا يخلو من مضمون سياسى. فقد نجحت هذه التكنولوجيا فى تعميم سطوة الثقافات الغربية ، وفى نقل مجموعة من القيم الغربية إلى أجزاء من العالم المختلفة ، كما ان هذه التكنولوجيا تم تطويرها بطريقة مشبعة بمصالح الرأسمالية الأمريكية ومواصفاتها منذ الحرب العالمية الثانية. وينبغى التسليم بإمكانية استخدامها على نحو مستهدف ومقصود فى حالات معينة[٢].

وهناك دراسة أخرى تؤكد أيضا على أننا إذا وقفنا أمام شبكة C. C. N الإذاعية الامريكية التى تستخدم الأقمار الصناعية على مدار ٢٤ ساعة وتشاهد فى

---

(١) محمد سيد محمد : " الاتصال الحضارى والغزو الثقافى : مفهومان متناقضان ". مجلة الدراسات الإعلامية العدد ٤٣ بتاريخ يونيه ١٩٨٦. صص : ٣٠-٣٨.

(٢) هربرت شيلر : مرجع سابق . ص ٦٧

١٣٧ دولة ، فإننا نجد أنها أحدثت ثورة فى إحساسنا بسرعة التاريخ وجمع الأخبار ، وأثبتت هذه المحطة التليفزيونية قدرتها على تحويل أى حادثة إلى قضية عالمية فى وقت واحد تقريبا ، وأنها قادرة على أن تلعب دورا فى تشكيل نتيجة الأحداث عن طريق التغطية الفورية لدرجة الإشباع ، وأنها خلقت قالبا جديدا يتعين على الدبلوماسية أن تعمل فى إطاره[١] . ولعل ما حدث فى حرب الخليج يعطى دليلا واضحا على قوة هذه الشبكة الإذاعية التليفزيونية ، لدرجة ان هذه الحرب وصفت فى كثير من الأحيان بأنها حرب تليفزيونية.

ويضاف إلى ذلك ، دراسة علمية ثالثة ، تثبت وجود آثار على الطفل العربى فى مصر ، نتيجة لتعرضه لسيل من الثقافات الأجنبية ، خاصة البرامج والأفلام التى أنتجت فى إطار بيئى مختلف عن البيئة العربية. فهذا التعرض يؤدى إلى ولاء الطفل لثقافات أجنبية على حساب الثقافات القومية ، ويؤكد هذه الآثار ارتفاع نسبة الذين يشاهدون الأغانى الأجنبية على نسبة الذين يشاهدون الأغانى العربية فى عينة الدراسة[٢] .

وهذه الاعتبارات جميعها تؤكد بوضوح على أننا فى مواجهة غزو ثقافى بالفعل للمجتمعات النامية ، وهو ما يشكل قضية معقدة ليس من السهل مواجهتها. وهذه الحقيقة تسقط كل الإدعاءات التى يتشدق بها المؤيدون للتدفق الحكومى بلا حدود ولا ضوابط ولا إمكانيات تحول هذه الحدود إلى قدرات فعالة ومؤثرة وليس مجرد الاكتفاء بالحلول الصورية أو الكلمات الإنشائية العاجزة.

ويكفى أنهم فى الدول الغربية المتقدمة لا يتصورون إمكانية حدوث توازن فى التدفق الإعلامى ، ويسخرون من اتهامات الدول النامية لها بالاستعمار الثقافى ، مدعية بأن أحدا لا يجبرها على قبول البرامج الغربية الأمريكية ، وإنما هى التى

---

(١) جوزيف فتشت " إمبراطورية وسائل الإعلام : هل هى شر لابد منه ؟ ". مجلة رسالة اليونسكو (عدد خاص) ، سبتمبر ١٩٩٠.

(٢) انشراح الشال : علاقة الطفل بالوسائل المطبوعة الالكترونية. القاهرة : دار الفكر العربى ، سنة ١٩٨٧. ص ص : ٣٩-١٠٣.

تطلبها وتلح عليها[١] . وهذا يعني أنها ليست متضررة من هذا الوضع ، وانما هي المستفيدة الوحيدة ، وعلى المتضررين أن يبحثوا لأنفسهم عن حلول ترضيهم اذا استطاعوا.

وهنا يتبادر سؤال هام حول ما يحدث الآن في المجتمع المصري في مواجهة هذه القضية؟! وقبل أن نجيب على هذا التساؤل ، نقدم هنا حادثتين منشورتين في صحيفة الاهرام المصرية اليومية: أولاهما ، تتصل بشكوى قدمها أحد المواطنين الى بريد الاهرام ، ولم يحاول المحرر أن يرد عليها لأنها تمثل ظاهرة عامة. ففي هذه الشكوى ، يقول صاحبها أنه أثناء قضائه لبعض أجازته الصيفية في المطرية بالدقهلية ، وهي مسقط رأسه ، سمع حديث الناس هناك عن قناة تليفزيونية ناطقة باللغة اليونانية يلتقطونها بالايريال وليس بالدش. وتبدأ هذه القناة يوميا بعد منتصف كل ليلة في عرض أفلام جنسية ومشاهد فاضحة. ويعرف هذه القناة التليفزيونية جميع السكان على شاطئ البحر الابيض من العريش الى الاسكندرية ، حيث اكد له معارفه هناك في تلك البلاد مشاهدتهم لتلك القناة بوضوح وبدرجة أكبر من القنوات المحلية. وقد وضع هذا البث الفاضح اولاياء الامور في موقف صعب.

ويضيف صاحب الشكوى ، انه نظرا لأنه لايوجد أحد يفهم لغة هذه القناة او غيرها من القنوات التليفزيونية المشابهة ، فليس هناك تفسير لاصرارهم على عرض هذا الفجور بدون "تشفير" أي بدون جهاز إستقبال يحل شفرتها، سوى إشاعة الفساد والإفساد وترويج الإنحراف تحت عباءة الحرية وتحت عباءات فنيه وفلسفيه أو أدبية أو ما شابه ذلك. ويتساءل في نهاية شكواه عن وسيله للتشويش على مثل هذه القنوات لحماية أطفالنا وشبابنا المراهقين ؟!!![٢]

واما الحادثه الثانية ، فهي عبارة عن خبر نقلته وكالة الأنباء الفرنسية وهو يقول أن جيبريانتيه رئيس بلدية كوركوردن الباريسية أكد مجدداً تمسكه بقرار منع

---

[1] Merrill, J. & Others. Modern Mass Media. New York : harper Collins Pub., 2ed edition, 1994. P.417.

[٢] دكتور محمد شميس الريس: "جنون منتصف الليل". صحيفة الاهرام اليومية ، بتاريخ ١٩٩٥/٨/٩. ص:١١.

إستخدام أطباق إستقبال الأقمار الصناعية فى أنحاء الضاحية لحماية سكانها ، ومعظمهم من مهاجرى المغرب العربى وتركيا من إلتقاط القنوات الفضائية العربية على وجه الخصوص ، لأنه يرى ضرورة إنصهار هؤلاء المهاجرين فى ثقافة مجتمعهم الجديد الذى اختاروه بمحض إرادتهم، بدلاً من الإحتفاظ بجذورهم الثقافية الأصلية[١] .

أن مغزى هاتين الحادثتين واضح ، وهو أننا نواجه التحدى بسلبية عجيبة وإستسلام غريب ، وهم يأخذون كل شىء بجدية تامه داخل إطار أهدافهم الإستراتيجية الثقافية ، وهم يحافظون على ثقافتهم حتى فى مواجهة المهاجرين الأغراب ، ونحن نفرط فى ثقافتنا بلا حدود ، حتى فى مواجهة أطفالنا وصغار السن من أبنائنا.

وهنا نتساءل مرة أخرى عن موقف المسئولين فى المجتمع المصرى من قضية الغزو الثقافى والذى تصور خطورته بدرجة ما تلك الشكوى التى أشرنا إليها ؟! ويجيب على هذا التساءول أحد هؤلاء المسئولين ، وهو الرئيس السابق للهيئة العامة للإستعلامات ، خلال ندوة علمية ، حيث قال[٢] : أن الثقافة الوطنية مدعوة ليس إلى الإحتماء بردود افعالها التقليدية فى مواجهة المثيرات الجديدة ، بل هى مدعوة إلى المشاركة فى صنع ثقافة المجتمع الدولى الجديد ، وان مجئ الصورة مع الصوت هذه المرة ، يمكن أن يدفع فى ثقافتنا حمى المقابلة بين كيفية تشغيل الحضارة الغربية لآليات نموها وتقدمها ، وامكانيات تشغيل هذه الآليات فى ثقافتنا لكى نبدع منجزات تثرى الحياة الإنسانية فى المجتمع الجديد ، لا أن نتخندق ضد مد الثقافة العالمية. أن ما نحن بحاجة إليه هو أن يحدث التفاعل المنتج الجدلى بين

---

(١) صحيفة الأهرام اليومية: "حظر القنوات العربية بضاحية باريسية". بتاريخ ١١ / ٨ / ١٩٩٥م. ص :١.

(٢) ممدوح البلتاجى: "أزمة هوية أم عجز عن ممارسة الحرية". ورقة مقدمة الى ندوة الهوية الثقافية الوطنية وتكنولوجيا الاتصال التى عقدتها هيئة الاستعلامات مع مركز الدراسات الاقتصادية والقانونية والاجتماعية.

ما لدينا وما لدى الآخرين ، ويحول الأضداد إلى مركب جديد فاعل. ويشايع بعض الباحثين وجهة النظر هذه ويؤيدونها فى دراستهم.

ويبدو أننا تعودنا على استخدام البلاغة الإنشائية والألفاظ الغامضة فى مواجهة قضايا مؤثرة وخطيرة. فما معنى هذا الكلام فى مواجهة واقع كالذى أشارت إليه الشكوى التى تناولناها ، وفى مواجهة إقبال جماهيرى على منتجات ثقافية لا نستطيع أن نجاريها فى قنواتنا التلفيزيونية. وهل هذا النوع من الثقافات المدمرة يمكن أن تتفاعل معه ثقافتنا ، أو حتى يمكن لها أن تتعايش معه ؟! وهل نملك من الإمكانيات المادية والبشرية والتقنية ما نستطيع به أن ننتج منتجات ثقافية تتفاعل مع منتجات ثقافية وافده وقوية ؟ ولمن تكون الغلبة؟

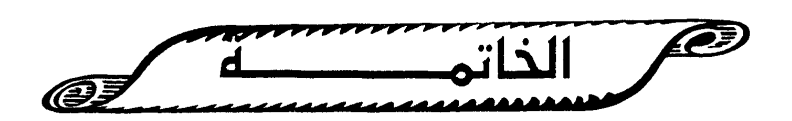
إن الحقيقة التى تؤكدها تجربة الإستعمار القديم ، هى أن الضعيف يقلد القوى ويتأثر به ، وليس العكس. ونحن فى مواجهة الغزو الثقافى نقف مع المجتمعات النامية جميعها فى موقف الضعيف. ولعل حقائق التاريخ التى نتجاهلها الآن تكون دافعاً لنا إلى تغيير سياستنا وإستراتيجيتنا الإعلامية قبل فوات الأوان !!

أن مغزى قضية التدفق الإعلامى غير المتوازن وغير المتكافىء بذاتها وبجابنيها ممثلين فى قضية المصادر العالمية للأنباء والمعلومات وقضية الغزو الثقافى ، هو أن ممارسة الحرية بلا ضوابط ولا ضمانات ليست إلا فوضى مرفوضة ، لأن ضررها فى هذه الحالة أكبر من نفعها. فإذا كنا فى مواجهة تدفق إعلامى دولى غير متوازن ولا متكافىء وتشوبه أغراض ومقاصد خطيرة ، فإن الضوابط والضمانات تصبح ضرورة حياه لا مفر منها ، لأنها توفر المناخ المناسب للممارسة الصحيحه.

وبذلك يتضح أن دينامية الإتصال الجماهيرى كتطبيق لدينامية الإتصال الإنسانى يمتد تأثيرها من داخل المجتمع إلى خارجه ، وتخلق قضايا ومشكلات داخلية لها إمتدادات خارجية على مستوى العالم كله. وإذا كانت وسائل الإتصال الجماهيرى وما أحدثته لها ثورة تكنولوجيا الإتصالات والمعلومات من تطورات معقدة ، وهى نتاج مجتمعاتها . فإن هذه المجتمعات أيضا بنظمها وسياساتها

ومصالحها وعلاقات الصراع بينها كانت بوتقة لتفاعلات دينامية الإتصال الإنساني بصفة عامة والجماهيري بصفه خاصة ، وافرزت تفاعلاتها قضايا ومشكلات معقدة على المستويين المحلي والعالمي.

وهذا يعني أن دينامية الإتصال تتطلب دراسات علمية أعمق داخل كل مجتمع على حده ، ثم على مستوى العالم كله ، حتى تستوعب مثل هذه الدراسات أبعادها وأصولها. وهذه نتيجة تثير قضية تتصل بإمكانية قيام علم الإجتماع الإتصالي الذي دعت إليه دراسات عربية وأجنبية. وإن كنا نرى أن هذه الدعوى أخذت بالشكل دون الجوهر ، مما يتطلب مناقشة مستقلة نختم بها دراستنا هذه.


الخاتمة



يثير المدخل الاجتماعى للاتصال قضية هامة فى مجالات الاتصال والاجتماع وعلم النفس. وهى قضية تتصل بقيام علم الاجتماع الاتصالى أو الإعلامى ، كما تسميه بعض الدراسات العربية. وهى قضية تستحق الاهتمام من جانب الباحثين فى هذه المجالات الثلاثة ، لأن إطلاق مصطلح العلم على هذا المدخل الاجتماعى للاتصال يعتبر أسما على غير مسمى حتى الآن.

وإذا كان مفهوم العلم يعنى المعرفة العلمية المنظمة والمتفق عليها بين من ينتمون إليه ، فإن هذا الوصف لا يزال غير مستقر فى علم الاجتماع الاتصالى أو الإعلامى. فالدراسات الأجنبية بصفة عامة والأمريكية منها بصفة خاصة تتعدد موضوعاتها وتركز أساسا على القائمين بالاتصال والوظائف التى تؤديها ورسائلهم والآثار التى تحدثها فى مجتمعاتهم. ورغم تعدد هذه الموضوعات وزواياها ، إلا أنها لا تعتبر كاملة ولا شاملة ولا متكاملة ، بدرجة لا نستطيع معها ان نصفها بأنها معرفة علمية منظمة يمكن أن يقوم عليها علم متخصص ومتميز ومستقل.

والدراسات العربية ، والتى صدر منها عدة دراسات قليلة ومحدودة ، لا تتفق فيما بينها على مضمون واحد . وإنما يتغير المضمون بتغير التخصص الذى ينتمى إليه الباحث. فإذا كان الباحث ينتمى إلى علم الاجتماع اهتم بالجماعات المنظمة الرسمية وبالعلاقات الإنسانية داخل هذه الجماعات المنظمة الرسمية. وإذا كان الباحث منتميا إلى علم الاتصال ، وخاصة ما يتصل منه بالإذاعة والصحافة ، مال بدرجة واضحة فى بحثه إلى هذا التخصص أو ذاك. والاختلاف حول المضمون يعنى انه لا يوجد اتفاق بين هؤلاء الباحثين ، ووجود الخلاف يعنى فقدان العلم لقاعدة هامة وأساسية.

فما هى الحقيقة حول هذا المدخل الاجتماعى للاتصال ؟ الحقيقة أن الاتصال ذاته عملية تصنعها عوامل نفسية واجتماعية متداخلة ومتفاعلة ومعقدة. وليس من السهل الفصل بينها ، وليس من المصلحة العلمية إذا كنا نتكلم عن علم يقوم عليها أن نفصل بين هذه العوامل ، لنخلق من بعضها علما. فإذا كانت الظاهرة واحدة ، فإن ما يصنعها ينبغى أن يكون كلا متكاملا. وهذا الكل المتكامل هو الذى يمكن أن

نسميه علما ، لأنه يصبح فى الإمكان الخروج منه بمعرفة علمية منظمة ومتفق عليها.

أما التركيز على العوامل الاجتماعية لوصف المدخل الاجتماعى إلى هذه الظاهرة المتكاملة ، فإنه يحدث غالبا لتبسيط الدراسة أمام الدراسين. وهذا هو ما حدث فيما قدمناة هنا حول المدخل الاجتماعى للاتصال الجماهيرى. لقد قدمنا زاوية جديدة لم تتناولها الدراسات العربية. ورغم أهميتها إلا أنها تضيف وجهة نظر أخرى إلى وجهات النظر العلمية التى نشرت حول هذا الموضوع. وهى تثرى المعرفة العلمية لعملية الاتصال وديناميتها فى المجتمع ، ولكنها لا تقيم علما.

فقد قامت هذه الزاوية الجديدة التى قدمناها للمدخل الاجتماعى للاتصال الجماهيرى على قسمين اساسيين : اولهما ، وصف هذه الظاهرة وصفا اجتماعيا وتناولناها بالتحليل كعملية اجتماعية لها عناصرها ومقوماتها ولها أيضا نظامها الاجتماعى فى كل مجتمع إنسانى وفى كل حالة إنسانية. وثانيهما ، قام على وصفها كدينامية متحركة ومتفاعلة وهادفة ، تؤثر وتتأثر وتفرز كثيرا من القضايا والمشكلات. ونظرا لأن هذه الظاهرة لها مستويات كثيرة ، فإننا ركزنا على وسائل الاتصال الجماهيرى فى دراسة تطبيقية تبرز هذه الجوانب جميعها وتوضحها.

ولاشك أن المنظور الاجتماعى للاتصال بصفة عامة له أهميته ، ولكنه لا يقدم الحقيقة كاملة حول هذه الظاهرة النفسية والاجتماعية المعقدة. إنه يقدم الجانب الظاهر منها ، ولكنه لا يقدم العوامل الكامنة التى تتفاعل داخلها. ومن ثم ، فهو يملك أن يقدم وصف حركتها فى المجتمع وبين الجماعات الإنسانية ، ولكنه لا يملك تفسير هذه الحركة تفسيرا كاملا. وهذه الحقيقة تؤكد ما ذهبنا إليه من عدم قدرة هذا المنظور الاجتماعى على صنع علم مستقل ومتميز.

فمثلا ، تاثير المجتمع على وسائل الاتصال بصفة عامة قد يبدو فيه المنظور الاجتماعى قويا ، ولكنه يضعف أمام وصف تأثير وسائل الاتصال على المجتمع ، بكل أفراده وجماعاته. فحتى لو بدا أن هناك تأثيرات اجتماعية كالتمزق او الوئام ،

الا ان ما يصنعها عوامل نفسية ، بحيث تبدو هذه التأثيرات الاجتماعية نتائج بارزة لعوامل نفسية متفاعلة تحت السطح.

ومثلا آخر ، نجد أن كل القضايا والمشكلات لها جوانب اجتماعية واضحة ، ولكنها جميعها نتائج لعوامل نفسية متعددة ومتفاعلة ، سواء حدثت هذه القضايا والمشكلات داخل المجتمع الواحد ، أو حدثت على مستوى العالم وبين مجتمعاته وشعوبه.

وبالتالى ، فإن المنهج الاجتماعى وحده ، ليس قادرا على الوصول بنا إلى كل الحقائق العلمية التى يعنيها الاتصال كعملية اجتماعية وكنظام اجتماعى وكدينامية إنسانية ، وتصبح مناهج علم النفس ذات أهمية قصوى ، لكى يحدث التكامل بين هذه المناهج الاجتماعية والنفسية كأدوات وأساليب علمية ، تصل بنا إلى الحقائق التى تقوم عليها هذه الظاهرة وتتحرك بها وتؤثر من خلالها.

وبالتالى أيضا ، لا يصبح علم الاتصال من اختصاص علماء الاجتماع وحدهم أو علماء النفس وحدهم أو غيرهم من المتخصصين ، وإنما يصبح اهتماما أساسيا وجوهريا لعلماء الاتصال. ومن ثم ، فإن التكامل فى النظر إلى هذا العلم ، ضرورة حيوية وهامة لإحداث التكامل بين كل المناظير التى تحدد معالمه وترسم حدوده وتخلق مضمونه وكيانه.

وتجدر هنا ملاحظة أخيرة ، فرغم أننا فى مجال العلم ينبغى أن نهتم بالمفاهيم وتعريفاتها بكيفية تحدث إجماعا بين الباحثين ، إلا أن استخدام الدراسات العربية لمصطلح الإعلام ليحل محل مصطلح الاتصال واستخدام بعض الدراسات الأجنبية لمصطلح الاتصال الجماهيرى والتركيز عليه بدلا من التركيز الأشمل على الاتصال بصفة عامة. كل هذه الاستخدامات تسبب خلطا لا مبرر له ، وإنما له نتائج سلبية عكسية على الاتصال إذا أردنا له أن يكون علما مستقلا ومتميزا ومتكاملا.

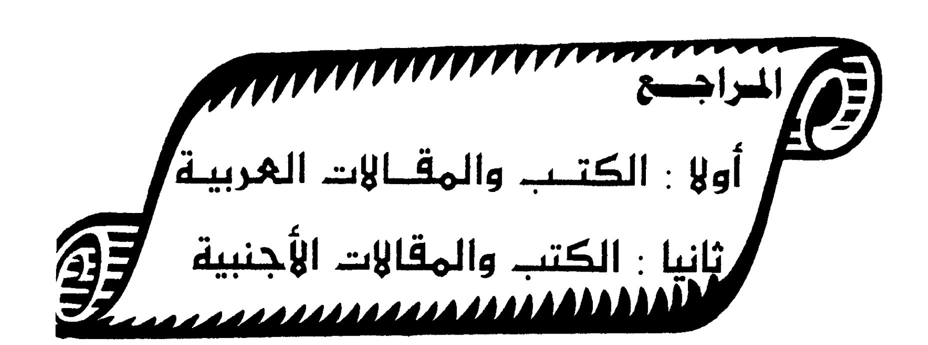
ذلك لأن الإعلام أحد استخدامات الاتصال ، وفن من فنونه الأساسية. وطالما أن الاتصال له استخدامات أخرى ، فإن مصطلح الاتصال لا يعنى بالضرورة

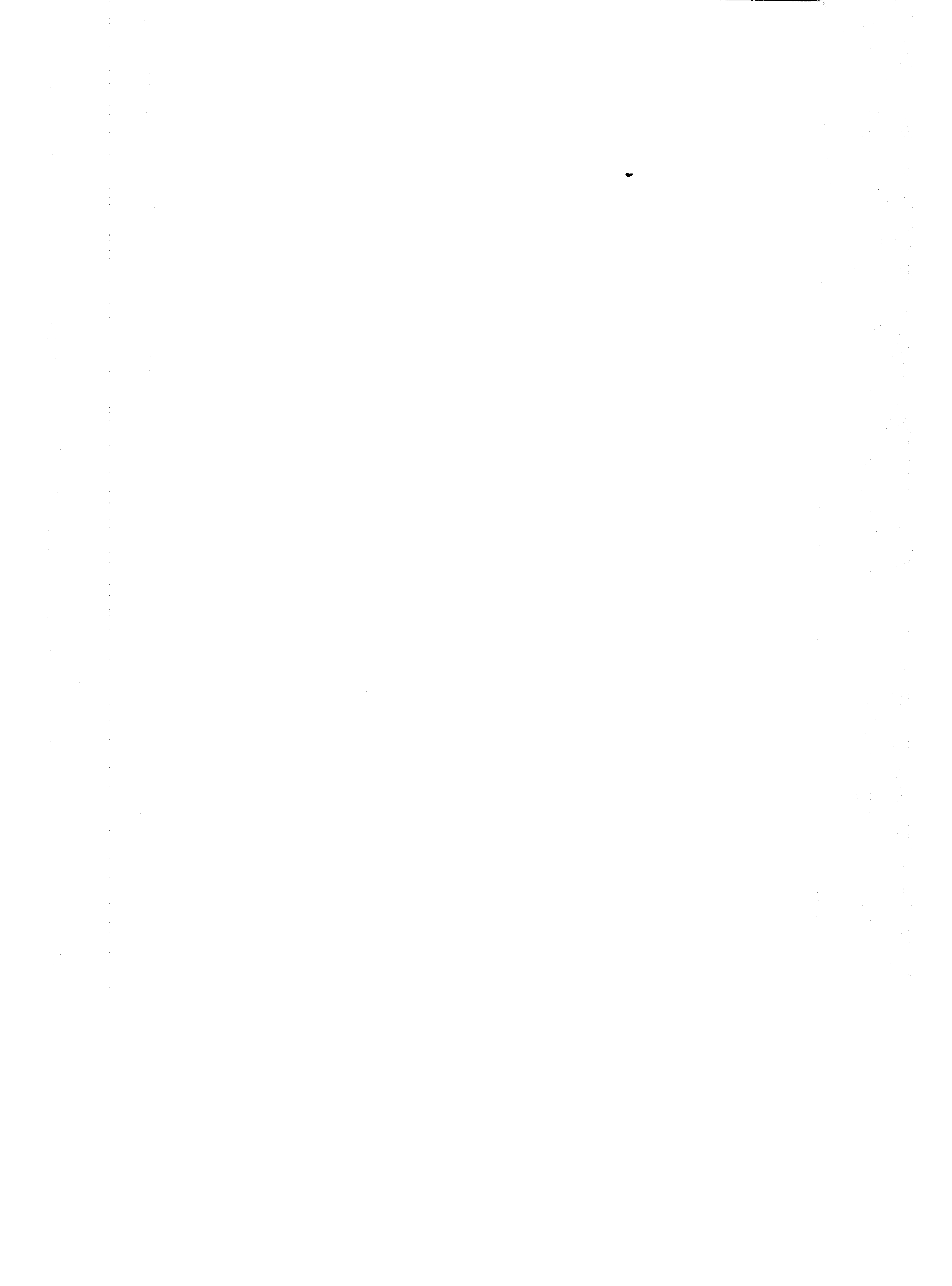
إعلاما فقد يعنى دعاية أو تعليما مثلا. ثم أن الاتصال الجماهيرى شكل واحد فقط من أشكال الاتصال. وصحيح أنه شكل قوى فى المجتمع ، إلا أنه ليس وحده معبرا عن الاتصال بمعناه الواسع.

بل إن كثيرا من الباحثين يتمادون فى استخدامات الإعلام كمصطلح ويطلقونه على كل شىء يتصل به من قريب أو من بعيد. فهناك فى نظرهم وزراء الإعلام ووسائل الإعلام ، وما شابه ذلك. فإذا كان الإعلام يعنى الحقائق الواضحة والموضوعية والدقيقة. فهل ما يقوم به وزراء الإعلام كدعاة للحكومة التى ينتمون إليها وكأعضاء فيها يعتبر أعلاما. وهل ما تقوم به وسائل الإعلام من بتر للأخبار وصياغتها بطريقة تخدم أهدافا خاصة معينة ، واشتمالها على مضامين دعائية وتعليمية ، فهل كل هذا يدخل فى مضمون الإعلام ؟! وهل كليات وأقسام الإعلام التى تدرس الصحافة والإذاعة والعلاقات العامة والنشر ، بكل ما تعنيه كوسائل وفنون اتصالية قد تستخدم فى أغراض أخرى غير الإعلام ، يمكن أن نسميها كليات أو أقسام للإعلام ؟!

إن كل هذه الأمثلة الواقعية تؤكد ان كثيرا من الباحثين يسيئون إلى مفهوم العلم عندما يستخدمون الإعلام محل الاتصال. والاتفاق على المفاهيم ووضوحها أمر له ضرورته وحيويته إذا أردنا أن نقيم علما للاتصال.

وأخيرا ، سوف يبقى الاتصال بعيدا عن مفهوم العلم الواحد المتكامل والمستقل والمتميز طالما ظل موزعا على تخصصات علمية كثيرة ، وطالما تركنا للباحثين اجتهاداتهم غير المبنية على دقة المفاهيم ووضوحها وشمولها. ومن ثم ، سوف يظل التكامل والوضوح والشمول والإجماع أسسا هامة وضرورية لقيام علم الاتصال ، كعلم له كيانه واستقلاله وتميزه.


المراجع
أولا : الكتب والمقالات العربية
ثانيا : الكتب والمقالات الأجنبية



أولا: الكتب والمقالات العربية

- إبراهيم عبد الله المسلمي: مصادر الأخبار العالمية في الصحافة. القاهرة: مكتبة العربي للنشر ، ١٩٩٢ م.
- ادوارد فالفيردي: "من الذي يخاف وسائل الإعلام". رسالة اليونسكو ، فبراير ١٩٩٥ م. ص ١٣.
- أرمان ماتيلار: أصوات غير متساوية. رسالة اليونسكو ، فبراير ١٩٩٥. ص٩.
- ألفت حسن أغا: "البث المباشر والهوية الثقافية". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٧٩ بتاريخ اول يونيه ١٩٩٥ م. ص ٢٦.
- ألفين توفلر: "ترجمة فتحي شتوان ونبيل عثمان": تحول السلطة بين العنف والثورة والمعرفة. مصراته: الدار الجماهيرية للنشر والإعلام ، ١٩٩٢م.
- انشراح الشال: علاقة الطفل بالوسائل المطبوعة والالكترونية. القاهرة: دار الفكر العربي ، ١٩٨٧ م.
- انشراح الشال: دراسات في علم الاجتماع الإعلامي: علاقة سكان القاهرة بنشرات أخبار التليفزيون المصري. القاهرة:الطباعي العربي ، ١٩٨٦م.
- انشراح الشال: دراسات في علم الاجتماع الإعلامي: مدخل في علم الاجتماع الإعلامي . القاهرة: مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٥م.
- أنور احمد رسلان: الحقوق والحريات العامة في عالم متغير. القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٩٣ م.
- تشارلز رايت ، ترجمة محمد فتحي: المنظور الاجتماعي للاتصال الجماهيري. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٣.
- جامعة الدول العربية: أساليب مواجهة الثورة الالكترونية والإعلامية. ندوة عقدتها جامعة الدول العربية بالاشتراك مع وزارة الإعلام المصرية ومؤسسة فريد ريش الألمانية بالقاهرة في الفترة من ١٠-١٣ يونيه ، عام ١٩٩٠ م.

- جان لاكوتير: "ضمير الصحفي". رسالة اليونسكو. سبتمبر ١٩٩٠م. ص ٦.
- جبارة عطية جبارة: علم الاجتماع الاعلامي. القاهرة: عالم الكتب ، سنة ١٩٨٥م.
- جوزيف فتشت: "إمبراطورية وسائل الإعلام: هل هي شر لابد منه". رسالة اليونسكو ، سبتمبر ١٩٩٠ (عدد خاص).
- جون مارتن وأنجو شودري ، ترجمة علي درويش. نظم الإعلام المقارنة. القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ م.
- جون هوهنبرج ، ترجمة كمال عبد الرءوف: الصحفي المحترف. القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ م.
- حسن رجب: "قضايا النشر في مجال علوم الاتصال". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٥٤ بتاريخ أول مارس ١٩٨٩ م. ص ٦٢.
- دانيل بوجنو: "أساليب جديدة لكي نتواصل". رسالة اليونسكو ، فبراير ١٩٩٥م. ص ٦.
- ديريك دي كيركوف: "من القرية العالمية إلى العقل الكوكبي" رسالة اليونسكو فبراير ١٩٩٥ م. ص ١٨.
- راسم الجمال: دراسات في الإعلام الدولي: مشكلة الاختلال الإخباري. جدة: دار الشروق ، ١٩٨٥ م.
- سجاد الغازي: "تنظيم الصحافة العربية وتشريعاتها". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٧٥ بتاريخ أول يونيه ١٩٩٤ م. ص ١٠.
- سليمان صالح: "ظاهرة التحيز في وسائل الإعلام الغربية". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٧٥ بتاريخ أول يونيه ١٩٩٤ م. ص ٧٨.
- شارلز بيدج ر.م. ماكيفر . ترجمة علي أحمد عيسى: المجتمع: الجزء الأول ، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ م.
- صحيفة الأهرام اليومية: خطر القنوات التليفزيونية العربية بضاحية باريسية" بتاريخ ١١ / ٨ / ١٩٩٥ م. ص: ١.

- صلاح الدين حافظ: "حق الاتصال وحرية الإعلام". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ١٩ بتاريخ اول سبتمبر ١٩٧٩ م. ص: ١٤.
- طلعت إبراهيم لطفى: "مدخل إلى علم الاجتماع". القاهرة: مكتبة غريب ، سنة ١٩٧٧ م.
- عبد الباسط حسن: مناهج البحث الاجتماعى. القاهرة: مكتبة وهبة ، ط ٦ عام ١٩٩٧ م.
- عبد اللطيف حمزة: "الإعلام والدعاية والتعليم". المجلة المصرية للعلوم السياسية. العدد ٢٣ بتاريخ اول فبراير عام ١٩٦٣. ص ٨٩.
- عبد اللطيف حمزة: "أزمة الضمير الصحفى". القاهرة: دار الفكر العربى ، ١٩٦٠ م.
- عبد المنعم سرى الدين: "تطور وسائل الاتصال والمواجهة الإعلامية القادمة". مجلة الدراسات الإعلامية ، بتاريخ أول إبريل عام ١٩٨٦ م. ص: ٨١.
- عصام سليمان المرسى: "التدفق الإعلامى بين الدول العربية". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٧٨ بتاريخ اول مارس ١٩٩٥ م. ص ١٨.
- على عبد الواحد وافى: علم الاجتماع. القاهرة: مكتبة نهضة مصر ١٩٧٧م.
- فورتن جيرسنح: "اليونسكو وحرية التعبير". رسالة اليونسكو (عدد خاص). أول سبتمبر ١٩٩٠م.
- القرآن الكريم: سورة البقرة ، الآيات من ٣١-٣٧.
- مجلة الصحفيون: وقائع المؤتمر العام الثانى للصحفيين المصريين (عدد خاص) ، مايو ١٩٩١ م.
- محسن خضر: "الهيمنة الاتصالية الفضائية وتحدياتها الثقافية". مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٧٧ بتاريخ أول اكتوبر ١٩٩٤. ص ١٢٠.
- محمد سيد محمد: الاتصال الحضارى والغزو الثقافى: مفهومان متناقضان. مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٤٣ بتاريخ أول يونيه ١٩٨٦ م. ص: ٣٠.

- محمد شميس الريس: "جنون منتصف الليل". صحيفة الأهرام اليومية بتاريخ ٩ / ٨ / ١٩٩٥ م. ص ١١.
- محمد المحتسب: "الوجه الآخر فى الصحافة ووكالات الأنباء: مجلة الدراسات الإعلامية"، العدد ٥٠ بتاريخ اول مارس ١٩٨٨. ص ٢٥.
- محمد محمد البادى: "المدخل إلى الإقناع فى المؤسسات المعاصرة". جدة مكتبة مصباح، ١٩٨٩ م.
- محمد محمد البادى: طبيعة الصحافة الريفية ودورها فى المجتمعات النامية: دراسة تطبيقية على المجتمع المصرى رسالة دكتوراة غير منشورة مقدمة إلى كلية الإعلام بجامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م.
- محمد محمد البادى: مشكلة الاحتكار الصحفى فى الولايات المتحدة الأمريكية. رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم الصحافة بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
- محمود عارف: "الصحافة المصرية بين المهنة والمحنة". مجلة الصحفيون، إبريل ١٩٩٠. ص ٥٠.
- مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه: الكتاب الثانى: دعائم علم الاجتماع وحقائقه. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربى، سنة ١٩٥٨ م.
- ملفين ديفلير وساندرا روكيتش، ترجمة كمال عبد الرءوف: نظريات وسائل الإعلام. القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٢ م.
- ممدوح البلتاجى: "أزمة هوية أم عجز عن ممارسة الحرية". ورقة مقدمة إلى ندوة الهوية الثقافية وتكنولوجيا الاتصال، التى عقدتها الهيئة العامة للاستعلامات بالاشتراك مع مركز الدراسات الاقتصادية والقانونية والاجتماعية.
- نسمة البطريق: "نظرية الإعلام المرئى والمسموع": دراسة فى المدخل الاجتماعى. القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٧ م.

- نعيم عطية: "فى النظرية العامة للحريات الفردية". القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م.
- نوال عمر: دور الإعلام الدينى فى تغيير بعض قيم الأسرة الريفية والحضارية. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق. ١٩٨٤ م.
- هربرت شيلر ، ترجمة سمعان عبد المسيح: الاتصال والهيمنة الثقافية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م.

****

ثانيا: الكتب والمقالات الأجنبية

- Acuff, F. & Others. From Man To Society. Hinsdale, Illinois: The Dryden Press, 1973.
- Agee, W. & Others Introduction To Mass Communications. N. y.: Harper & Row, 9th edition, 1988.
- Allen, R. Organizational Management through ommunication. N. Y.: Academic Press, 1974.
- Argule, M. Bodily Communication. London: Methueu Co., 1975.
- Barkowitz, L. Advances In Experimental Scoial Psychology. N. Y.: Academic Press, 1974.
- Berne , E. the structure and Dynamics of Organizations and groups, N. Y. Grave Press, 1966.
- Booner, H. Group Dynamcs; Principlrs and Applications N. Y. Ronald Press co. 1959.
- Bronowiski, J. The Origins of knowledge and language. New Havan, Conn: Yale University, 1978.
- Christians, C. & Others. Media Ethics. N. Y. and London: Longman, 3rd edition, 1991.
- Colley, C. Social Organization. Boston: Scriber's Sons 1909.
- Dahrendrof, R. " Toward Social Conflict ". Journal of Conflict Resolution, Vol. 2, No. 2. June 1958 Pp. 170-183.
- DeFleur, M. & S. Rokeach. Theories of Mass Communication. N. Y. and London: Longman, 5th edition, 1989.

- DeFleur, M. understanding Mass Communication. Boston: Mifflin, 1981.
- Deutsch, M. & R. Krauss. Theories In Social Psychogy. N. Y. Basic Books, 1965.
- Devite, J. Human Communication; The Basic Course. N. Y.: Harper Collins College Pub., 6 th edition, 1994.
- Dommuski, R. Research Metheds. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice. Hall, 1980.
- Dunn, W. & A. Barban, Advertising: Its Role In Modern Marketing N. Y.: Dryden Press, 5th edition, 1982.
- Fromm, E. The Fear of Freedom. London, 1952.
- Gammble M. & T. Introducting Mass Communication. N. Y.: McGraw. Hill, 1989.
- Gazian, C. & Others. " Measuring The Cocept of Credibility. Journalism Quarterly. Autumn 1986. Pp. 451-462.
- Green, A. Socciology; An Analysis of Life In Modern Society. N. Y.: McGraw-Hill. 1952.
- Gunter, A. " Biased Press or Biased Public ? Public Opinion Quarterly, Vol. 56, No. 2. Summer 1992. Pp. 147-167.
- Hachten, W. Muffled Drums; The New Media In Africa. Ammes, lowa: The state University Press, 1971.
- Halmes, P. The Sociology of Mass Media Communicators. Keele, Staffs University of Keele, 1969.
- Herter, A. " International Information Flew ". In Merrill, J. & Fisher, H. International and Intercultural Communication. New York: Hasting Heuse, 1976. Pp. 242-250.

- Innis, H. Empire and Communication. Toronto = University of Toronto Press, 1972.
- Janowitz, M. " The Study of Mass Communication ". International Encyclopedia of Social Sciences. N. Y.: Macmillan and Free Press, 1968, Vol. 3, Pp. 41-53.
- Krech C. & Others. Individual In Society. N. Y.: McGraw-Hill, 1962.
- Leavitt, H. Managerial Psychology. Chicago: The University of Chicago Press, 3rd edition, 1972.
- Levine, R. Culture, Behavior and Personality. Chicago: Aldine Co., 1973.
- Locke, J. An Essay Concerning Human Understading. Oxford: Clarendon Press, 1975.
- MacBride, S. Many Voices - One World, Communication and Sciety Today and Tomorrow. London: Kogan Press, 1983.
- Manis, J. & B. Meltzer. Symbolic Interactions: A Reader In Social Psychology. Boston: Allyn and Bacon, 1978.
- Martin, J. Comparative Mass Media Systems. N. Y.: Longman, 1983.
- McBonald, D. & R. Farace, " New Directions In Organizational Communication". Personal Psychdogy, 1974. Pp. 1-11.
- McQuail, D. Towards A. Sociology of Mass Communication. London: Collier & Macmillan Pub., 1969.
- Mead, G. Mind, Self and Society. Chicago: University of Chicago Press, 1934.

- Merrill, J. & Other. Modern Mass Media. N. Y.: Harper cellins College Pub., 2ed edition, 1994.
- Merrill, J. Global Journalism; A survey of the World's Mass Media, New York and London: Longman, 1983.
- Merrill J. & Other. The Forign Press. Baton Rouge: Lousiana State University Press, 1970.
- Merton, R. Social Theory and Social Structure. Glenccoe, Ill.: Free Press, 1949.
- Nachimas, D. & C. Research In The Social Sciences. N. Y.: St. Martin Press, 2 ed edition, 1981.
- Patton, B. & K. Giffin. Interpersonal Communication In Action.N. Y.: Harper & Row, 2 ed edition, 1977.
- Penisoff, S. Theories and Paradigms In Contemporary Sociology. Itasca, Ill.: Peacock, 1974.
- Reardon, K. Pearsuasion: Theory and Context. London: Sage Pub., 1981.
- Richardson, J. " The Media and Cultural Exchange ". Exchage Quarrterly, Vol. 13, Vo. 3, Winter 1978. Pp. 3-4.
- Saltez C. & A. Teger Change In Attitudes Toward other Nations. As A Function of the Type of International Contact. Sociometry, Vol. 38, No. 2, 1975. Pp.213-221.
- Sanford, A. Communication Behavior In Organizations. Columbus, Ohio: Merrill, 1976.
- Schmid, A. Voilence as Communication. London: Sage, 1982.
- Selznick, P. " Foundations of The Theory of Organizations. "American Sociological Review, Vol. 13, No. 1, February, 1948. P. 25.

- Siebert, F. Freedom of the Press In Enghand. Ellineis: University of Illinois Press, 1952.
- Tunstall, J. Media Sociology. Urbana: University of Illinois Press, 1970.
- Whorf, B. Language: Thought and Reality. Combridge, Mass: M. I. T. Press, 1956.
- Wells, A. Mass Media and Society. California: Mayfield, 1975.
- Wilson, S. Mass Media and Culture. New York: McGrawHill, 2 ed edition, 1992.
- Wright, C. Mass Communication; A Sociological perspective. New York: Randem, 2ed edition 1975
- Zanden, W. Sociology. N. Y.: Wiley, 1979.
- Zimbardo, P. & Others. Intluencing Attitudes and Changing Behavior. Reading, MA.: Addison Wisely, 1977.

رقم الايداع ٩٤٧٤ / ١٩٩٧م

I. S. B. N 977 - 5069 - 25 - 4